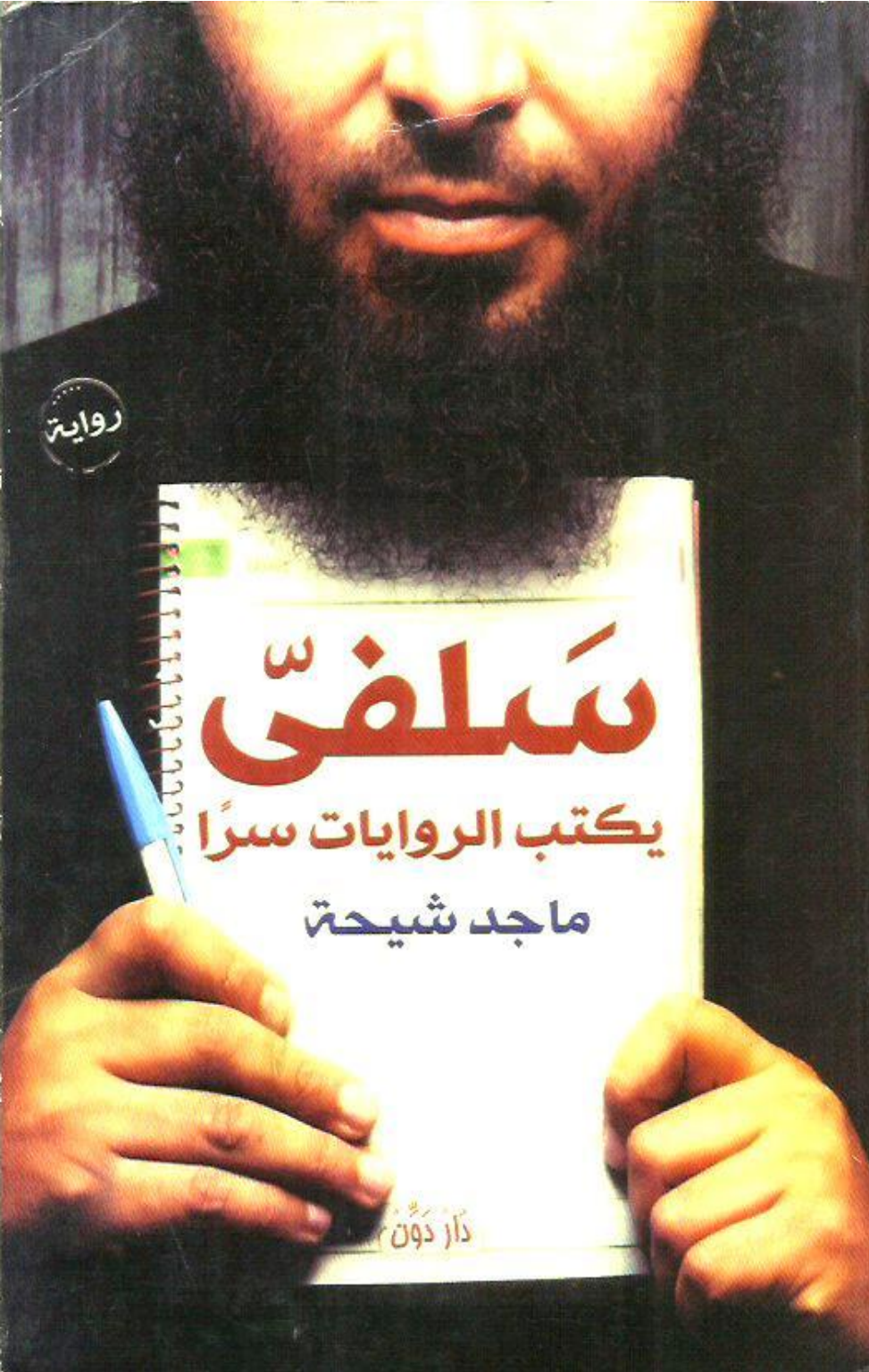
رواية
سَلفيّ
يكتب الروايات سرًا
ماجد شيحة
دار دوّن

سلفي يكتب الروايات سرا

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٤
رقم الإيـــداع: ١٩١٠٦/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٣-٣١-٦٤٢٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد مراد

جَميـع حُقـوق الطَبْـع والنَّشرْ محـفُوظة
© دار دَوِّنْ

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

سلفي يكتب الروايات سرا

ماجد طه شيحة

روايـــة

دار دوّن للنشر والتوزيع

حين يخلد للنوم من عاش في مدينة طويلا يحلم بمدينة أخرى حافلة بالخير أو بالشر وتنمحى من فكره مدينته.

لن يدرك أن ما يراه خلال حلمه هي مدينة أخرى.

ليست مدينته وأنه غريب فيها إنما سيعتقد أنه مولود فيها وأنه عاش وسطها طوال عمره.

جلال الدين الرومي

إهـــداء

زوجتي الرائعة،،،
التي آمنت بأنصاف الحلول وملوثي الدم والحائرين بين الطرق، أدين لها بالفضل والكثير الكثير من السلام النفسي، مماجعلني قادراً على إتمام هذه الرواية..

إهـــــداء

سين: كيف أهديك كلماتي وأنا أعلم أني لوثت نُبل لحظاتك الأخيرة بها

يا أنا المتألمة: لن أهديك عملاً مضطرباً حائراً مثلك لعلكِ تخرجين من التابوت السحري يوماً فتصبحين حُرّة.

الجزء الأول

(وفيه أول حكاية "سين" وجزء من حكاية "ميم")

سين:

تستيقظ الآن ولكنه لم يكن نوماً ذلك الذي استيقظت منه، تفتح عينيك وهذا هو الفعل الذي يصفونه بالاستيقاظ إذا كان بعد إغلاق لهما طويل، تشبَّعت حواسك بالنوم طيلة خمس وعشرين سنة في اللاوعى وتاه عنها في خمس سنوات من الوعى ولكنها ما زالت تعرفه جيداً، ليس نوماً تلك الغفوات التي تأتيك مباغتةً وتشهق منها صحواً، ربما هي أثر خبطات مؤلمة في جدران رحلة انزلاقية طويلة إلى شيء ما لم تدركه بعد، تفتح عينيك خلال هدنتها معك فترى، سقفاً أبيض ولمبات نيون عديدة تشع نوراً أبيض ووجهاً أبيض يطلُّ فوقك من وقت لآخر، تراه، هو على الحقيقة، الشيخ، ينحني عليك كلما شعر برفرفة جفنيك ليسألك:

- سين.. ماذا فعلوا بك؟ بماذا تشعر؟

- لقد انفجرت القنبلة أيها الشيخ، انفجرت ولم تحذرني.

أهذا هو صوتك؟ لشدَّ ما تغيَّر. وكأنهم عذَّبوا صوتك أيضاً ضمن ما عذَّبوا من أعضائك، ما تلك الغرفة الغريبة الواسعة، لم يكن بسقف زنزانتك الأخيرة إلا لمبة نيون واحدة يرتعش ضوؤها وينقطع، لم يكن سوى جدران سوداء أربعة ملينة بعلامات الأصابع والكفوف المتسخة والتواريخ والأسماء والتعليقات الغامضة المعذبة.

- أين أنا؟ كيف أتيت إلى هنا؟ لماذا جاءوا بي إلى هنا؟؟

لم تحرِّك لسانك لتسأل الشيخ، لشدَّ ما اشتقت في أيام سجنك الماضية أن تراه لتسأله عن أشياء كثيرة، لسانك كقطعة الرصاص ثقيلاً في فمك، كل

أعضائك ثقيلة كأنها محشوَّة بالرمل، لا شيء يتحرك فيك إلا تلك الخواطر السريعة في فضاء عقلك، كأن كل طاقة جسدك انسحبت هناك لتلتقطها وتنقيها من جسدك لتصعد مع روحك، هل تهتم فعلاً أين تكون؟، هل اهتممت يوما؟؟ في كل الأماكن التي اجتزتها؛ بيت أبيك الذي لم تختره ولم يخترك، شارع تقطع فيه الوقت مشياً بتمهُّل السلحفاة بعد مقابلة وظيفية فاشلة؛ لئلا تعود إلى أهلك بخيبة عاجلة، مكتبة في مسجد كبير مليئة بالطلبة والهمهمات، حصيرة في أرضية سجن باردة، سرير منزوٍ في غرفة مستشفى حكومي بيضاء الجدران، كيس من تلك الأكياس التي يضعون فيها الجثث، درج في ثلاجة مشرحة للموتى.

إنها الفوضى، انكسر فلك الأشياء وخرجت المألوفات عن مدارها لتسبح في فضاء عشوائي لا اسم له ولا حوافَّ، كنت تراهن على ثباتها كل صباح لتسعد نفسك، تستحثها فقط لكيلا تتملكك الكآبة، تنخسها كما تُنخَس الدابة البليدة، سيري، اذهبي، استمري؛ فثمة أشياء لم تخرج عن مدارها بعدُ، توجد ثوابت كتلك الشمس الدائرة في السماء، الآن.. سقطت دابة جسدك المنهكة، لو أغمضت عينيها التي تجاهد الآن لكيلا تغمضهما فلن تعود لترى حتى الشمس المتحركة بالأفق نحو غروبها، على الأقل بالنسبة لك، لن ترى ذلك، وكأن الأمر يستحق!، هل كان الأمر -أمر الدروان مع الأشياء في فلكها- يستحق كل هذه المجاهدة والكفاح، وربما كانت الشمس أيضاً محض وهم بصري، تُشرق لتغزل فوق العالم الفارغ سائر الأوهام الأخرى، شلة فوق السطح والمسجد والمكتبة والطلبة.

ها أنت ذا تخرِّف.. أهو الجزع عند الموت أم الشيطان الذي ينفث في أذنيك، هل سيكون الشيطان آخِر من سيحدِّثك أم هو؟، أين هو!، أين الشيخ، ما زال يروح ويجيء بين جسدك والباب حائراً، اتركه فهو الشيء الوحيد الذي يدور في مداره الصحيح الآن، ولكن عندما تأتي اللحظة الأخيرة تشبَّث به

واجذبه إلى أذنك ليهمس لك بالشهادتين ولا تطلب منه أن يلقِّنهما لك، لا تطلبها فتفقد قيمتها، ولا ترِه جزعك فلن يبكيك هكذا، لا يُبكي إلا شدة ثبات الرجال عند الموت، فكن ثابتاً كما أردت للأشياء دائماً أن تكون فلم تكن.

***

عندما تغلق عينيك في لحظات حياتك الأخيرة فلن يختلف الأمر كثيراً عن إغلاق عينيك بعد يوم شاق، ستظل ترى أشباح الأشياء التي كانت ثابتة أمامك طيلة الحياة، ولكنك الآن لا ترى الأشياء التي ظللت تراها طيلة عمرك، تحاول أن تحاصرها، بسذاجة تلميذ صغير يملي عليه أستاذه، تفتح قوساً وتضع فيه (أبراج المنارات الباحثة بضوئها عن سفن لم تعد تحتاج للضوء لكي ترسو، قلاع البحر التي تحمي شواطئا لم يعد يهاجمها أحد، الكراس الأسمنتية بغبار الملح المتبقي من رذاذ الماء الجامح فوق مصدات الموج، الألسنة الصخرية التي تغتال رغبة البحر في الانفراد بنفسه...) تغلق القوس، تضع البحر أمام القوس الأول أو خلف القوس الثاني فتصبح كل الثوابت عبثاً، مهما اقتربت من البحر أو ابتعدت عنه سيهزمك في معركة الوجود، لو أن الحياة بدأت من البحر كما يقولون فإنه من المستحيل أن تعود إليه، الساحليون لا يعيشون بقدر ما يمررون أيامهم، أن تكون ساحلياً في هذا الوطن يعني أن تكون ضمن ٣٧ في المائة يحسدهم النسبة المتبقية ممن يبعدون عن الساحل بأبعد من ٧٥ كيلومتراً، هذه النسبة المحظوظة تتحاسد فيما بينها ويتدرَّج هذا الحسد تصاعدياً كلما ابتعدت عن الشاطئ. توجد بيوت لا تطلُّ على البحر (يسمونها مدفونة) وشقق مطلة على البحر وشاليهات، توجد شواطئ خاصة وشواطئ للعوام، وحسب المكان الذي تعيش فيه وستذهب إليه ستقوم بالتنزُّه على الكورنيش أو ستنام على كرسي من القماش على ظهر مركب عائم سياحي تصطاد سمكاً لن تأكله؛ لأنك لا تنتظره، ولأنه يوجد في الخلف وأسفل منك من يُعدُّ طعامك ويأكل فتات ماندتك المتبقية.

أن تكون ساحلياً بالجغرافيا فقط وحكم ميلادك يعني أنك ستظل تعيش في القوقعة التي يصطحبها المصطافون معهم إلى بيوتهم؛ ليسمعوا صوت البحر كلما أرادوا، أن تظل تتناول من الدواء الذي لو زادت جرعته لاستحال

سُمّاً، ستكون أنت الأعور بين مجموعة من العميان، تحسد هؤلاء العميان على سلامة حواسهم التي أفسدها لك ملح البحر وقرقعة أسلاك الترام، ولا بد أن سيأتي عليك الوقت الذي ستسأل نفسك فيه لو أن للبحر متعاً خالصة لأخبرنا الرسل أن في الجنة بحاراً.

ورثت عن أبيك ربفية خائفة تستوثق من متانة الأشياء حتى تصل بها إلى أن تنكسر، لا تكسب البقاء بقدر ما تكسب الثقة، وفي معمله لم يتبقَّ لك شيء لتثق به، يُحذِّرك من أن الساحليين لا يصومون ولا يُصلُّون، إنهم متطرفون في كلا النقيضين، عندما يكرهون فإنهم يقتلون ويخونون ويكفرون، وعندما يحبون يضحون ويؤمنون، يا بُنيَّ: تزوج من ساحلية تصحو كل صباح على لمس شفتها لقدميك وهي تقبّلهما أو على لمس سكينها البارد على رقبتك وهي تذبحك، خوَّفك أبوك من الخروج إلى الشارع، من السيارات وقضبان الترام والسباحة في البحر البعيد للغاية عن بيتكم، لم يكن لك حينها سوى تسلية واحدة، أن تخرج إلى بسطة السلم لتراقب تلك النقطة الحمراء في القرص الدوار لعداد الكهرباء وهي تدور معه فتختفي للناحية الأخرى ثم تعود، لم يسألك أحد في المدرسة ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر، ولكن عندما كبرت عرفت أن إجابتك لم تكن ستتعدى أن تقول: أريد أن أصبح عالم فلك أو جغرافيا أو عالم حيوان، تدرس أفلاك النجوم الراسخة في السماء أو معالم الأرض التي لا تتغير أو دورات الحياة التي انتهت منها الطفرات، تريد أن تدرس ثبات الأشياء من حولك.

أول الثوابت، الإنسان مخير، هل في ذلك شك؟ أحد ثوابت الطفولة الدراسية السعيدة في مادة الدين التي لم تكن مادة نجاح أو رسوب، لعل هذا هو السر في أنه لا أحد ناقش تلك الحقيقة، لكنك تسأل الآن: مَن منا اختار طريقه؟ جميعنا بدأنا بدايات مختلفة وانتهينا نهايات واحدة، وما بين البداية والنهاية -بعد أن انتهت طفولة واقعك- ستشبه حياتك وكأن أحداً

كتبها لك ثم انصرف دون أن يُتمَّها، قلم ملقى وصفحة بيضاء، تهرب منهما بالبحث المستمر فوق أرفف العالم عن أسطورتك الخاصة، أحببت قراءة الروايات، فوق الأرفف الحقيقية قصة تشبهك، دون كيشوت، أرض التتار، الكونت المشطور، بطل من زماننا، حضرة المحترم، رحلات السندباد البحرى.... ولسبب ما كنت تشعر بالألفة تجاه حكاية السندباد، تقرؤها ولا تمل منها، السندباد الملقى في ساعة الحسم مثلك بوادي الأفاعي والألماس دون أن يخبره أحد كيف يمكنه أن يتسلق ويعود، هي نهاية رحلتك أو بدايتها، ولكن ها أنت ذا تتعلم بالممارسة الجبرية، لا يزال الإنسان يتعلم حتى اللحظة الأخيرة في الحياة: لا تتعلم -فقط- (أن الجدران ملساء فلن تستطيع تسلقها، وأن الأفاعي تخرج من جحورها وتأخذ من تربده إليها فلا يردُّها أحد، وأنك ستكون في ذيل القائمة بترتيب اسمك الأبجدي وحكم نشأتك وميلادك في آخر نهار صيفي كما نهار موتتك المخزية، وأنه حيث وقعت بترتيبك الجغرافي البشري لا سلالم للصعود، لا سلالم إلا في بيوتنا الزائفة ولعبتنا الورقية التي لم تكن تمل من لعبها رغم ذيل الثعبان الطويل للغاية في الخانة قبل الأخيرة، والذي يعيدك كل مرة إلى البداية كأنك لم تفعل شيئاً، لا صعود وإنما هي تلك الخراف الذبيحة التي تُلقى حولكم ثم تأتي النسور لترفعها).....

كل هذا عرفته ببدهية الرؤية النمطية، أحوال واديك، قاع وادى الأفاعى..... ولكن ما تعلمته بفعل محاولات النجاة المتكررة المضنية أن لا تغش، ليس ورعاً أو نقاء، بل لأن الغش يزيد من معاناتك ليس إلا، هي تلك الضربات العشوائية بذراعيك في بحر من الرمال المتحركة محاولاً السباحة في مادة لم تُخلق للسباحة بل خُلقت لابتلاع الأشياء والأحياء.

تعلمت أيضاً أن النسور لا ترفع أكثر من وزن الخراف.. عبثُ الاختباء في بطون الخراف الذبيحة واحتمال رائحة أحشائها النتنة مُخيطاً عليك، غير

مسموح لك بهذا الغش كما هو مسموح في نص الحكاية الأصلية في رحلات السندباد، وهذا هو ما تعلمته...

وكيف تغش إن أردت وكل دروبك مرسومة بخامة واحدة لا تتبدل، خامة صُلبة حديدية كقضبان القطارات، مدفوعاً عليها كما دُفعت للحياة أول مرة برفض رحم أمك لك بعد اكتمال النمو، تنتمي بحكم يوم مولدك إلى ذلك الجيل الذي أتى مباشرة بعد إلغاء التعيين الحكومي، تستمر بقوة القصور الذاتي غير مصدق حتى جعلوك تُوقِّع على أوراق بعدم المطالبة بالوظيفة شرط استلام شهادتك، لا عودة إذاً. دخلت جحر الضب الذي لا يتسع لتدور حول نفسك وتعود، مستقبل مظلم ينتظرك، مفرداته تقدير تخرج سيئ وسيرة حياة خالية من الدورات العلمية التي كانت ترفاً لأبناء جيلك، الذين أتوا بعدك تداركوا أنفسهم أما الذين سبقوك فسجدوا لله شكراً، أعطتهم الوظيفة والزواج سنوات فوق أعمارهم فأصبحوا آباء لأبناء جيلك أما أنتم فسقطتم سهواً.

وجدت نفسك مع الوقت عنصراً أساسيا فى دورة حياة مفرغة مسلوبة الجوانز، تشتري أهرام يوم الجمعة، لا السياسة ولا أخبار الفنانين ولا حوادث الطرق والقتل ولا قصص المعذبين في بريد الجمعة الشهير، كل بغيتك هي صفحات الإعلانات المبوَّبة، صفحة هادئة مثل وجه عجوز على المعاش لم يعد يطمع في شيء من الحياة، المختلف أنه يلعب الدومينو مع شاب يريد أن يفوز برهان المشاريب المجانية، حجر النرد يتخبَّط، النقاط السوداء على أوجهه الستة تضوي أمام ناظريه، إبادة حشرات وفئران دون المغادرة.. متخصصون للصراصير والبق وج الفئران.. عطاءات ومناقصات... شركة... وزارة.... تعلن عن طرح مناقصة عامة، ها هي بغيتك: باب الوظائف الخالية، تقوم بنقل العناوين وأرقام التليفونات وتعيش حياتك في تفاصيلها بقية الأسبوع، تتشكل تلك الكلمات السوداء إلى مضمار سباق

وهمي ينتظرك الفشل في نهايته كنتيجة حتمية، ولكنك مضطر للاستمرار فيه كالكابوس الذي لا تملك أن تستيقظ منه، مجبراً أن تعود في كل مرة خلال الباب لتشرح لأفراد عائلتك سبباً مختلفاً عن سابقته لعدم توفيقك، كل شيء في هذا العالم يصبح سهلاً مع التكرار عدا الكذب على من يُعلقون آمالهم عليك، مع مرور الأيام أصبح لديك حساسية للعودة المبكرة، إنها تعطيهم خيبة أمل فورية، الأب الصامت والأخت الكبرى الصامتة مثله، لو يرهقانك بالشرح مثل أمك فسيهون الأمر عليك قليلاً، هناك حبل سُرِّي بين عنوسة أختك وعنوستك أنت الوظيفية، بعد مقابلات العمل العبثية تصبح العودة إلى البيت في ذلك التوقيت عذاباً منتظراً، لا تعود، تتدرج في اكتشاف طرق أخرى لتضييع الوقت خارج البيت، أولها -بالطبع- المشي، السير في كل طرقات المدينة، بين البنايات وفي الشوارع الرطبة المترعة بالأصوات والنداءات والروائح التي تثير الحنين إلى صنع حياة مثلها، تتحوَّل مفاصلك من كثرة المشي إلى صمغ مؤلم فتعرف محطات للراحة، السينما والحدائق والمقاهي، هي أماكن الجلوس المعتادة، تعرفها ليس مرة واحدة بل تباعاً، تنتقل من محطة لأخرى دون عودة بسبب العيوب التي لا تُطاق، السينما صاخبة مظلمة، التحرُّش فيها لا ينتهي (تسمى هذا تحرُّشاً، الثنائيات الغرامية التي تُشعل دماءك أصواتهم الخفية، أصوات التلمُّظ)، الصداع والصمم والبلل نتيجة طبيعية للجلوس فيها لوقت طويل علاوة على ذلك تحتاج إلى ميزانية منفصلة، تنتقل إلى الحدائق التي لا جديد فيها، الشمس وطوابير النمل وبراز العصافير والنظرات الموسوسة تطاردك أينما حللت، أما الجلوس على المقاهي شبهة لم تكن قد اعتدتها بحكم تربيتك، تختار الكرسي الأبعد في الزاوية المظلمة، بعيداً عن أن تصل إلى أنفك دخان الشيشة المُسكر، تطلب كوباً من الشاي أو القهوة تحتسيه -كما تحبه-

ساخناً، ينتهي سريعاً. يأتي صبي المقهى فيرفعه الفارغ وهو يحذفك بنظرات تحتية فتجد نفسك مضطراً لطلب آخر أو تلملم (عزالك) وتمشي.

في ذلك الوقت كانت أحلامك تختزل نفسها. تنكمش. لا تصبح صلبة بفعل الأيام بل تزداد حساسيتها بفعل الإحباطات المتوالية. تنهشك أحلام اليقظة. ولعل ذلك كان يحدث بفعل دخان الشيشة الذي يلتقطه أنفك الآثم رغم أنفك فتتخدر له حواسك وأعضاؤك المتعبة. تلاحظ عندما يغوص بك مقعدك وكأنه مصنوع من قطن سحائبي. عندما يتحوَّل الدخان المتناثر حولك إلى حروف لغة سرية أو راقصات باليه. تعلم عندما تحدق بقوة إلى كوب الشاي وكأنك تمتلك في عينك تلك الموهبة الحرارية الليزرية لتسخين الكوب بعد برودته لإطالة فترة مُكثك في زاوية المقهى دون تكاليف إضافية. تعلم عندما تكزُّ على أسنانك وتضغط بكل ثقل قدمك على أرضية الباص الذي يُقلك إلى بيتك لتفرمله عند المطبات مع رعونة السائق في القيادة. ولكنها لحظات وتفيق. تتعلم بدلاً من ذلك تكتيكات تطيل من عمر جلوسك دون تكاليف إضافية (احتضان الكوب في يدك لفترة طويلة؛ حفظاً لحرارته من ناحية. ومن ناحية أخرى الاحتفاظ بسرية فراغ الكوب عن العين المتلصِّصة لصبي المقهى. رغم ذلك كان للدقائق الإضافية التي كنت تكسبها أثر في ثمن كوب الشاي). تتعلم كيف تستسلم للمطبات دون معاناة. جثة ترفعها أمواج المطبات وتخفضها في رحلتها الأبدية إلى اللاشيء حتى يلتهمها السمك قضمات صغيرة. تدريجياً يعرفك جميع صبيان المقاهي. وكأنك ترى أعينهم تهمس إليك: ها هو الزبون المماطل قد جاء. هكذا تجد ظهرك إلى الحائط. لا رصيد من الأماكن سوى تلك الأراضي المحروقة القديمة.

ما كل هذا الوجع من التفاصيل التي تسكنك. أهذا الذي يصل بالناس إلى الشيخوخة. الامتلاء بالتفاصيل الموجعة. تعود إلى بيتك وإلى سريرك كل يوم بإرث ثقيل منها. تعبر خلال الصالة في غابة النظرات اللاسعة كخيوط

قناديل البحر، تذهب للنوم حتى لو لم يكن وقت النوم قد أتى.. الانتظار الأسوأ على الإطلاق، انتظار الصباح التالي لتحاول أن تصبح فيه كما لم تستطع أن تكون في الصباح الذي سبقه، لتحاول فيه أن تكون كما يريدك أولئك الذين تحبهم ويحبونك ولا تريد أن تخيب ظنهم فيك، لا تتعلم، كل الصباحات متشابهة وكلها تحمل ما يرهقك، عندما تغمض عينيك لا تنام، تتحرك في خلفيتهما المظلمة مئات من سيقان العناكب المنفصلة للتوِ عن أجسادها والتي ما زالت حية، تتحرّك وتخمش وعيك وغيبوبتك على حد سواء، فلا تنام ولا تصحو، تتأرجح فقط على الحافة دون أن تسقط أو تنجو، لتكتشف فجأة أن اليوم الجديد قد أتى وانفجر ضوؤه في فراغ غرفتك.

***

ورغم ذلك كنت تصحو صباحاً كل يوم لتمارس خدش يدك وكسر أظفارك على الجدران الملساء، محاولاً الصعود بشرف الحمقى المغيبين عن الحقائق، وكأنه لم يزل هناك سبيل لرياح المعجزات رغم أن خريطتك واحدة لا تتغيَّر معالمها وإن تغيَّرت البحار التي تلقي بسفينتك دائماً إلى الشواطئ المهلكة، توقفت عن الاستجابة لتودد الناس إليك في المواصلات العامة؛ لكي لا تجيب عن أسئلتهم الفضولية بشأنك، متى توقفت أيضاً عن الإهتمام بأناقة طالب الوظيفة (البنطلون المكوي كحد الموس، الحذاء المُلمع، الياقة المُنشاة، الشعر الممشط)، لم تسحب خيطاً لإرشادك خلال سيرك في متاهتك الخاصة لتعرف، ولكن لا يمكنك أن تنسى على أية حال ذلك اليوم الشتائي الممطر، عندما كشف المطر أصباغك كما يكشف الماء أصباغ الشمطاوات حين يغسلن وجوّههن بعد الممارسة، تجلس تحت تلك المظلة محتمياً من انهمار المطر فتلاحظ دون جهد التأمل على قماش بنطلونك -كأنك تقرأ رسالة كارثية مكتوبة بالحبر السري- تلك المنطقة حول خط الكيّ في المنتصف -حد الموس- وقد كشفها بلل المطر محترقة تماماً من كثرة الكيّ، هل تفاجأت حينذاك بينما يزحف عار تلك المنطقة المتهرئة من القماش إلى جلدك لتغوص في لحمك وعروقك كأنها من حامض شديد التركيز، ينثال الخزي مثل كثيب رمل متراخٍ فوق كل خطواتك القريبة، تُرى، أهذا هو سبب احتقار صبيان المقاهي لك؟، أهذا هو سبب رفض أصحاب العمل لك؟، هل لاحظوا كلهم ما لم تره أنت إلا بماء المطر؟ اهتراء عالمك وخدوش يديك وكسور أظفارك وأنت تحاول كل يوم صعود الجدران الملساء لوادي الأفاعي والألماس؟

ولم تكن رغبتك في أداء صلواتك المتأخرة هي التي دفعت بك إلى ذلك المسجد الكبير الفارغ في غير وقت الصلاة، التمست إحدى مراوح السقف -

الوحيدة الدائرة- وجلست تحتها لتجفيف بلل ملابسك، ربما نساها عامل المسجد لحسن حظك، ضاعت المقابلة وكأن ضياعها يشكل فارقاً!

أتى وقت الصلاة فجاء موظف المسجد وأذّن، قمت دون رغبة لتتوضأ وتصلي مع الناس ثم عدت للجلوس تحت نفس المروحة التي صارت صديقتك، بالتأكيد لم ينسها موظف المسجد؛ لأنه تركها مرة أخرى عند انصرافه رغم جو الشتاء البارد، ربما بها عطب ما في دائرتها الكهربية مثل العطب الذي أصاب حياتك، ظللت مرابطاً في المسجد حتى وقت العشاء ثم عُدْت إلى بيتك.

في اليوم التالي لم تشعر بالرغبة في الذهاب إلى أي مكان، عُدْت إلى نفس المسجد تحت نفس المروحة، وكأن بينكما أخوة مشتركة، تدور مثلها في متاهة الحياة طيلة اليوم كله صيفاً وشتاءً، تباغتك أوقات الصلاة فتنهض للوضوء والمشاركة، تعود لجلستك بينما تخفت كثافة الأصوات المصاحبة لانتهاء الصلاة (اصطدام أحذية المصلين بالمشاية الحديدية في خروجهم وضربات البعض للأرض المبلطة بكعوب أحذيتهم العنيدة في ارتدائها)، يبتعدون ويبتعد قرع أحذيتهم فتصير وحيداً تماماً كالميت بعد أن ينصرف دافنوه، كان آخرهم انصرافاً موظف المسجد الذي ظلّ يرمقك في دخوله وخروجه، ربما يظنك لصاً، تزداد مغناطيسية جسدك التي تجذب رأسه وعينيه في كل صلاة وكأنه يؤكد على حروف الرسالة التي يريد توصيلها إليك: "أنا قلق من وجودك فانصرف"

ليست الصلاة مرهقة مثل الدوران في الشوارع ولا مكلفة بقدر المقاهي والحدائق العامة، كم مسجداً ذهبت إليه بعد أن غادرت ذلك المسجد الأول، وكم مروحة تدور في وحدتها أنستها وآنستك، وكم موظفاً متوجساً منك ظلّ يرمقك حتى غادرت مسجده إلى غير رجعة؟؟ الدال على الخير كفاعله، ولا ريب أنه بسبب تخاذل الحكومة عن تعيينك صارت شريكتك في

عدد كبير من الحسنات مقابل عودتك الى الصلاة، عودة إجبارية صحيح، ولكنها استمرَّت كالتوبة الصادقة دون فارق، لا يُقلل من عدد تلك الحسنات وجود موظفين لهم في المساجد يشكُّون في بقاء المصلين بعد الصلاة، عثرتَ في النهاية على مسجد لا موظفين فيه ومفتوح على الدوام، مسجد واحد صار قبلتك حتى بعد أن عُدْت إلى البحث عن عمل، كُرات نفتالين في أحواض الوجه (لم تر أحواض وجه بتلك الكثرة في أي مسجد من قبل!) صابون معطر ولا يوجد صنبور ماء واحد معطل، مما يعني أن هناك سباكاً دائماً يعتني بهم، مسجد فخم وواسع حتى إن الناس في بدايته كانوا يبدون صغاراً، تجلس في نهايته، تمارس عملية تفكُّك جوانية وتراقب تشكيلات الناس تنعقد وتنفضُّ وتستمع إلى زقزقة العصافير التي تُسقط عليك قشَّ أعشاشها وتراقب مراوح السقف -أصدقاءك الجُدد- تلاحظ اختلاف دوراناتها الشبيهة بدورانات البشر في الحياة، مختلفين في سرعتهم وبطئهم، ترنُّحهم وثباتهم، لهاثهم وتعبهم، وكأنك ترى في السقف عالماً معكوساً لصالة ضخمة ممتلئة بالصوفيين الراقصين، وتظل جالساً حتى تأتيك نسمات النوم الهينة فتلقيك في أحضان النوم بلطف أو يؤذَّن للصلاة، أيهما أسبق، تظل حتى بعد صلاة العشاء وترحل.

ولكن ليست كل الريح هي ما تشتهيها أشرعة سفينتك الراسية بينما تضمد خروقها وتدهن بالقار قاعها المهترئ، تأتيك ريح أخرى ترمي عليك بكثافة نوع واحد من البشر لا تخطئه عيناك، أصحاب لحى، إذا صادفت بعضهم في الشارع لا تعلم أيكما من يسبق الآخر بتحويل وجهه للناحية الأخرى غاضباً دون سبب، مع الوقت وجدت نفسك جزءاً من مجتمعهم الصغير، وجدتها بحكم الوجود الجسدى ليس إلا، ومنغمساً في نشاط آخر غير تضييع الوقت بالنوم، كانوا يأتون متجهِّمين، وكأن ذلك الشعر في وجوههم وذلك التجهُّم من متطلبات وظيفة غامضة أتوا لتقديم أوراقهم للفوز بها،

وكأنهم يريدون جميعاً العمل كقباطنة لسفينتك المعطلة، بالفعل يحملون بين أيديهم أوراقاً، أقلاماً وكراريس، يملؤون المسجد الواسع حتى لا تكاد تجد فيه موضع قدم، ويأخذون مكانك إذا قمت لتجدّد وضوءك، يأتى الشيخ، يضعون له قبل مجيئه ترابيزة خشبية ومقعداً وميكرفوناً ملتوياً طويلاً يصل إلى قُرب فمه كعنق بلشون، وفور جلوسه تبزغ أمامه عشرات التليفونات والمسجلات الصغيرة حتى لتكاد تسقط من كثرتها وتزاحمها فوق الترابيزة، تُحمل فوق سجادة الرؤوس للأمام في صمت لتوضع أمامه قبل أن ينطق الكلمة الأولى، يستمرُ درسهم لبعد صلاة العشاء، لهم مواعيد ثابتة لا تتغيَّر، أوجدت لنفسك تكنيكاً خاصاً، تجد لك مكاناً بجانب الباب بحيث تنصرف سريعاً إذا أصابك الملل، وتضع حذاءك في مكان سرّي خلف صناديق الأحذية حتى لا تبحث عنه كثيراً وسط حفل الأحذية الصاخب هذا، وغالباً -رغم كل احتياطاتك- تنصرف معهم، بعدهم بقليل عندما تخف حدة زحامهم في الشارع، تكره ظهورك الحاد بينهم كنقطة بيضاء في صفحة سوداء، تشعر بالغربة.

ولكنك بالفعل كنت نقطتهم السوداء، لا تشبههم، بين أصابعهم قلم وعلى أفخاذهم كراسات يلعب بصفحاتها هواء المراوح، أما أنت فجالس بينهم مثل ديكور زائد، خيال مآتة دون البالطو الممزَّق، من وقت لآخر يناوشك الشيخ، يوجّه إليك سؤالاً ليتأكد من متابعتك للدرس، ثوانٍ من الإحراج، طويلة كأنها ساعات والجميع منهمكون من حولك لا يُسمع إلا أزيز لمبات الفلورسنت وتقليب الأوراق، مرتين وصار لديك أولويات أخرى غير الانصراف المبكّر وعدم ضياع الحذاء، صرت تختبئ خلف الأعمدة الخرسانية في زاوية تقطع خطَّ بصره، ظننت أنه سينساك بتلك الطريقة ولكن خاب ظنك.

بعد أحد الدروس أرسل أحد تلامذته إليكَ، نزل على ركبة واحدة إلى جوارك واحتضن الأخرى بالتفافه ذراعه وبيد الذراع الأخرى الفارغة صافحك، لم يكن لبقاً، لم يكلِّف نفسه حتى عناء التمهيد النفسي، قال مباشرة:

- الشيخ يريدك.....

قالها هكذا، بالفصحى، ونهض ليمدَّ يده إليك ليساعدك على النهوض، عندما لاحظ ترددك وعدم استيعابك.

قطعتما باحة المسجد إلى سلم خلفي، كدت تعود لتحضر حذاءك ولكنه صعد أمامك حافياً فتبعته، كان يصعد درجتين درجتين بنشاط جم كأنه ابتلع منشطاً، انتهى بكما الصعود إلى الدور العلوي الذي كنت تظنُّه "مصلى حريمي" ودخلتما من باب واسع كأبواب المخازن الكبيرة، فوجئت بالمشهد، أربكك لدرجة أنك أبطأت خلف ذلك الذي يقودك ولكنه لم يبطئ، بينما أنت مساق خلفه تتأمل ما تكشَّف لك، أرفف عديدة، ممرات من الأرفف ممتدة إلى قرب السقف المدجج بالمراوح واللمبات وممتلئة بالكتب، مجلدات، مجموعات كاملة منها تحتل رفاً كاملاً، أجزاء من كتاب واحد تشدُّ أزر بعضها بعضاً عبر عنوان يحمل كعب كل كتاب فيها حرف أو جزء من حرف، على الأرض كتب مفتوحة ومغلقة، بين ممرات الأرفف طلبة جالسون على الأرض يقرأون فرادى وجماعات ثنائية، والبعض منهم واقفاً ما زال يبحث، يسحب الكتب من أماكنها ويقلب أوراقها سريعاً ويعيدها، جميعهم نظروا إليك عندما دخلت، انزعجوا ما في ذلك شك، لاحظت ذلك متألماً، لم تفهمه ولكنك تألمت، لا بد أن الميكروب يتألم هكذا عندما يدخل بين الخلايا الصحيحة ولعل هذا سبب وحشيته، إنهاء الغربة سريعاً، طيلة حياتك لم تحب إلا قراءة الروايات، تدهشك تلك المجلدات الكبيرة، ماذا يكتبون فيها، كل هذه الصفحات والكلمات ماذا يدبِّرون للعالم فيها، وهل تُقرأ بالعين في أي وضع كوضع القراءات الأخرى المسلية متكئين أو نائمين، الذين يقرأون

لهم مناهج مختلفة في القراءة كما لاحظت، القراءة بالعين دون صعوبة، القراءة بتحريك الشفتين دون صوت وأصبع موضوع تحت السطر الذي يقرأه يتحرك بعرض الصفحة وطولها لأسفل كأن خيط الكلمات ينبع من تحت إصبعه الغازل، بينما عيونهم وملامح جوههم وظهورهم منصوبة ومنتبهة كأنهم يتلقون أوامر منها مع اهتزاز البعض للأمام والخلف كأنه يقرأ قرآناً.

انتهى سيركما بنهاية أحد الممرات بين الأرفف إلى غرفة ضيقة، انحنيت برأسك وأنت تدخل من بابها، غرفة الشيخ الذي كان جالساً على مكتب واطئ صِرف دون أدراج، لم ينهض ليستقبلك فلم تمد يدك لتصافحه، جلستما -أنت ورفيق رحلتك القصيرة- على الشيء المتاح، مخدات سميكة عالية صُنعت لهذا الغرض، انتهى دور الذي اصطحبك إلى هنا ولكنه ظلَّ موجوداً في خلفية الحديث عينين محملقتين.

تأملت الغرفة، رصَّات من الكتب إلى جانب المكتب من الناحيتين، كرسي وحيد من الخشب عليه كتب أيضاً، كوب من الليمونادة أمامه لم تكن لتمانع أن يطلب لك واحداً ولكنه لم يفعل، مرات قليلة في الأماكن التي ذهبت للتقدم فيها كطالب عمل قدموا لك مشروباً، لدرجة أنه في أحد المرات النادرة فتح لك أحدهم علبة مدسوساً في قاعدتها المخملية قطع من الشيكولاته ذات الشكل الهندسي العجيب، ولكنك كنت مثل كلب الشوارع الذي يهرب بمجرد أن يرى أحداً ينحنى أمامه على الأرض، أثناء بحثك عن عمل كنت تصطدم بتلك الحكايات، الاختبارات العجيبة، دلو الماء المغمور بالماء والذي يُطلب منك أن تلتقط عملة معدنية من قاعه دون أن تتبلل يدك، النافذة الفخ التي توجد سكاكتها في مكان خفي من الحائط ويطلبون منك أن تفتحها، كنت تتمنى أن تمدَّ يدك وتنزع إحدى تلك القطع الشيكولاتية الملكية من قاعدتها، ولكنك رفضت بأدب؛ خوفاً من أن يكون

ذلك جزءاً من اختبار القبول، لا يقدِّم أحد ما شيئاً لوجه الله. هذا ما تعلَّمته أيضاً من وادي الأفاعي. كان تقديم المشروبات أيضاً أثناء الانتظار في أماكن طلب العمل فأل سيئ، وكأنهم يقولون: "شكراً لتعبكم ومجهودكم، الوظيفة مشغولة بالفعل ولكنكم مجرد ديكور"

يبادرك الشيخ بالكلام قائلاً: "نورتنا"، لم تُحر جواباً، احترفت التحدث إلى نفسك أكثر مما تتحدث مع الآخرين، الصمت أقل ضرراً من الكلام، تقيم حوارات كاملة كأنها بين شخصين مختلفين وتتغير ملامح وجهك وتتبدل أحياناً؛ تبعاً لتطور هذا الحوار الخفي..

لعلهم أخبروك، الشبهون لهذا الذي يجلس بجانبي بعينين محملقتين. يقولون لك إن هذا الغريب الحليق اللحية يداوم على الجلوس في المسجد. ليس لهذا المسجد موظف يرمقني بل مئات منهم، لم ألحظهم لذلك. لم تصلني الرسالة الجماعية ولم ألحظ الرؤوس الممغنطة إلى جسدي، نحن قلقون لوجودك، وسواء أخبروك أم لم يخبروك أنت تصطاد فيَّ منذ شهور حتى اضطررت للاختباء منك خلف أسطوانات المسجد. لم آتِ إلى مسجدكم لأستمع إليك، هل أخبرك. أضيع وقتي، لا تعجبني الدروس، لا تهمني، أنتم تستدعون همومكم من الكتب القديمة ثم تهتمون لها، مثل الرجل الذي يستدعي أرواحاً لا تخصه ليبكي عليها أقارب لا يبكيهم إلا الذكرى والخوف.. فقط لتتكسبوا من ناحيتكم وفقط لكي لا يُتَّهموا بالجحود والنكران من ناحيتهم، ليس من ضمن همومي الحياتية أن أتعلم بأي ذراع أبدأ في غسل أعضاء الوضوء، لم أحاول حتى تنفيذ نصيحتك لأكون من المهتمين: (تنصت وتتابع، ما نقوله دين لو جعلته همك اليومي لصار تلقي علمه عندك أسهل من شرب الماء)، تردف ذلك أحياناً بشرب كوب من الماء وُضِع أمامك. تعلو الضحكات. ضحكات مجاملة؟ أم ضحكات حقيقية لتمرير جو التعلم الخانق، تعجبني تلك الضحكات، تدفعني روحها العامة للضحك.

تعجبني أيضاً الحكايات، ماذا تسمونها؟ الإسرائيليات، الرجل والسحابة المتكلمة، الثلاثة رجال والصخرة، السفينة ذات الأدوار الثلاثة والثقب، أتابعهم، لكن باقي حديثك لا أخفي عليك فعله معي، أسرح منك، أتوه في الملكوت، أعدُّ ريشات المراوح ولمبات السقف، أنام لو أردت اختصار الحقيقة في كلمة واحدة.

ولكن كل هذا الحديث الداخلي لم تُقَل كلمة واحدة منه، ماذا دار بينكما من حديث قبل النقطة الفاصلة، لا تتذكر.

أخبروني أنك موجود دائماً في المسجد!

هل تراقبونني؟ تحفزت.

ليس عن عمد، أنت تعرف، وجودك بيننا واضح ولافت، الكلام عنك كثير وأكثر من مرة أوشك أن أرسل لك لكني أتراجع لعلك لا تأتي المرة التالية.. هناك سبب لحضورك الدائم أرجو أن أعلمه.

هذا تحقيق؟

الآن فهمت، إنهم قلقون، قلقون مثل مجموعة من الكتاكيت سقط بينها خفاش أعماه ضوء النهار

تظن أنني منهم؟ حيرة عينه، فأتممت جملتك (أمن دولة؟).

لا أخفي عليك، البعض ما زال يظن ذلك لكني متأكد أنك لست منهم. (فاجأك الرد؟) إنهم حريصون على معرفتنا لهم، يستمتعون بخوفنا منهم وبسلطتهم علينا وأيضاً حتى لا نطيل الكلام لست عيناً لهم، العين لا تكون بارزة بهذا الشكل.

من تظنني إذاً؟

لا أظنك شيئاً، إن بعض الظن إثم. ابتسم.

إذاً، لا يخاف، لا تقلقه، ما الهدف من إرساله إليك إذاً؟

وكأنه سمع أفكارك..

- أريد أن أحل مشكلتك؟

- ليس عندي مشكلة.

- هل أنت متأكد؟

مرة أخرى تكون متهماً خلال حوار واحد، تمنَّيت في تلك اللحظة أن تكون في الشارع، لم تستمتع بالحوار، لا تستمتع بالحوار الذي تكون فيه فأراً طوال الوقت، نظرت إلى الباب، لاحظ نظرتك، قال فجأة كأنه قرر إنهاء الجلسة:

اسمع، سأخبرك بحقيقة قلقي منك، أنت تخضر جميع الدروس، حضور مثالي دون حتى أن تنهض لتجدِّد وضوئك، لدرجة أنني توقعت أنك بهذه المواظبة على الحضور سرعان ما ستصبح واحداً منا أو ستختفي خائفاً، تسمع كل هذه الدروس وحتى الصلاة تصلي معنا ولا تتململ، العوامُّ يهربون من مساجدنا لطول الصلاة، وأنت تحجز نفسك معنا وتمر كل هذه الأيام دون فائدة، وتقول ليس عندي مشكلة، هل تحاول أن تقنعني بذلك؟ أقنع نفسك أولاً.

هذه هي تُهمتك إذاً، صعب التغيير، لامبالٍ، ينزلق عنك الكلام كما ينزلق الماء على ريش طيور الماء، هو قلق منك، لو صارحك بالكلمات الصحيحة لقال لك: "لست طبيعياً، ألقي عليك كل سحري فلا تنبت لك شعرة واحدة في وجهك، هذه هي مشكلتك في الحقيقة، ولكني لا أودُّ أن أصارحك بتلك الطريقة"

تقرأ عيني الشيخ وما يود أن يقوله فلا يخفى عليك، ولكنه لا يستطيع أن يقرأ عينيك، هي جدار مصمت رغم كل خبرته بالبشر التي وصل بها إلى أن يكون مُعلماً لهم، لو قرأ عينيك للحظة واحدة لعرف فلسفة حياتك وما أرهق نفسه في تتبُّعك؟؟ الفلسفة التي تنبع من السؤال المفضَّل لدى أحد

أهم الشخصيات المؤثرة في حياتك وهو دكتور الرياضيات في الجامعة، والتي كان يبدأ به كل محاضرة لا يمل:

لماذا خلق الله لنا أذنين وفماً واحداً، الإجابة التقليدية: لنسمع أكثر مما نتكلم؟، لا، الإجابة الصحيحة، ليعبر الكلام من ناحية إلى أخرى دون تأثير، الدرس المستفاد: لا تسمع إلا ما تحتاجه، أما الباقي فمرّره دون تساؤل للناحية الأخرى، الأذنان كما تلاحظ موجودتان على خط واحد في ناحيتي الرأس، متوازيتان، الكلام الكثير مثل الأكل الكثير، يزحم بطنك، يوقف عملياتك الحيوية.

وأنت تفعل هذا -ليس مع هذا الشيخ فقط- بل مع الجميع، تفعله مع نصائح أبيك ومخاوف أمك والأسر الجامعية بشتى أنواعها، الديني والإصلاحي والمشاغب والخدمي، لا تتعمّده بذلك.

هل طال الصمت حينها بحيث صار لزاماً أن يقطعه أحدكما؟ كان أنت من قلت: ممكن أنصرف، قلتها هكذا، بالفصحى، انتقلت إليك عدوى الفصحى على ما يبدو، على الأقل ها أنت ذا قد تأثرت بشيء من عالمهم، أشار الشيخ إلى الباب: نحن لا نحبسك، قبل أن تفتح الباب، استدرت، من تحت المكتب لاحظت، لأول مرة، يرتدي حذاء، شكّل لك هذا الاكتشاف نوعاً من الصدمة، ربما الفزع، الأقدام الحافية للآخرين المنتشرين في كل أنحاء المسجد والمكتبة ثم الحذاء في قدم الشيخ، يُشجعك بإشارة من يده عندما لاحظ تردُّدك، بسط يده، خرجت الكلمات من فمك مستغربة كطعم الفم في أول استيقاظك من النوم:

- أفهم من كلامك أني غير مُرحَّب بي؟

تصفعك كلماتك وتشعر بالمهانة التي لحقتك على يدك بنفسك، ندم لا حدَّ له يجتاحك، تسمع إجابته وكأنك تسبح تحت الماء:

- بالعكس، كل ما في الأمر أن عليك علامات استفهام كثيرة.

مرة أخرى، العيون المتلصصة في المكتبة، السلم، المسجد، باحثاً عن حذائك، أنفاس الناس الذين انصرفوا مُعلَّقة في فضائه وما زالت تدفئه، الشارع، كيف سار الحوار بهذه الطريقة، عليك علامات استفهام، وأنتم؟ يا فئران الكتب، يا أصحاب الملفات المشبوهة، يا أعداء الحكومة، يا مطاريد أمن الدولة؟؟

ولكن لماذا تكدر نفسك!، من المؤكد أنك ستستيقظ في اليوم التالي وقد نسيت أو تناسيت، اكتسبت حواسك مع الوقت منعة، بمعنى آخر: نشف جلدك، خاصة أن الغد هو يوم الخميس، يوم التوقف عن الحركة، السقوط المتتالي في النوم منذ الاستيقاظ الروتيني الأول تاركاً الضوء يسمك مرة تلو مرة، "النوم تقاويه نوم" كما يقول الريفيون نقلاً عن أمك، وبعد أذان العصر ميعاد الاجتماع الأسبوعي فوق سطح بيت أستاذ محمدي، اجتماع الفشلة من شتى الأنواع، يتبدلون ويتغيَّرون، يتزوَّج من يتزوَّج منهم ويختفى، ينادي شيطان السفر إلى دول الخليج فيستجيب من يستجيب له ولو بأقل الشروط، ولكن الثابتين المستمرين كفلينات سنانير صيد على شاطئ الحياة لا تغادر الماء ولا تغامر بالدخول فيه، أولهم أستاذ كامل الذي لو رُسِم رمز مختصر لحياته لكانت علامة المنع الحمراء، بمجرد أن تخرج علبة سجائر من جيب أحدهم يقول بسرعة:

رجاء عدم التدخين في الجلسة لو سمحتم، من أراد أن يدخن فليذهب عند السور.

ينتظر حتى تأتى زجاجة الماء فيحذِّر:

- لا تشربوا من الزجاجة مباشرة لو تفضلتم، اشربوا من الكوب.

يقرن كلامه بالفعل، يكون أول من يشرب ليس للعطش، بل ليضمن أن لا أحد قبله مست شفتاه الكوب، تأتي صينية الشاي:

- يا فلان لا تذُق الشاي من الملعقة ثم تضعها في كوب آخر.

لا يشترك بالحديث في حوارات الجلسة الدائرة، ولا يأكل -رغم أنه يدفع- ولا يشرب بقدر ما يُحذِّر، وعندما يحسو حسوة من كوبه يظلُّ يُدوِّرها في فمه لدقائق ثم يزدردها مضطراً ولا يعود، على النقيض منه أستاذ نيل الذي تدمع عيناه دائماً وهو يأكل من فرط نشوته، الأخير عند انتهاء الأكل والأول الذي يبدأ، السؤال الأول الذي سيسأله لك أستاذ نيل إذا جلست بجانبه في مكان عام أو خاص سيكون عن رقم تليفونك المحمول، سيهتم به أكثر من اهتمامه بأحوالك الشخصية وتقلباتك، أما عن الدرس الأول والأخير الذي سيعطيه لك باعتباره أكبر أفراد شلة السطح سناً هو أنك لا تعلم متى ستحتاج الناس، ثم لن تجده يتحدَّث بعد ذلك إلا عن مكتبة أبيه الكبيرة التي ورثها عنه، ويريد أن يبيعها لبائعي اللب والترمس لولا وصيته الأخيرة، أستاذ نيل بعد أن يأكل ويشرب الشاي ليس له تسلية طيلة الجلسة إلا نقل أرقام التليفون -كنزه الحقيقي- من تليفونه المحمول إلى نوتة صغيرة أو العكس، السبب أنه يمتلك عدداً غير مسبوق لضياع وتلف وسقوط في الماء وسرقة متعمَّدة لتليفوناته بالأرقام والشريحة، أن تكون صديقاً لأستاذ نيل يعني أنك ستتلقى على تليفونك صفارة رسالة مرة شهرياً على الأقل يكون التخمين الأول لك أنها ستكون كالتالي "مرحباً بك، أنا نيل السمالوطي، رقمي الجديد هو.....". أستاذ كامل وأستاذ نيل صديقان حميمان رغم اختلافهما في الطباع، إنهما يثبتان نظريتك في بحث الأشياء عن ثباتها، يأتيان معاً وينصرفان معاً فيتركان متسع الليل لكم.

ثالثة الأثافي، أشرف المصاب بمرض ما في غُدَّته الدرقية يجعله يتثاءب بشكل مستمر ويُعزو ذلك إلى سهراته والمغامرات النسائية الليلية التي تبدو أشبه بيوميات لص يتسلَّق المواسير، أشرف هو إذاعة الجلسة، يقوم برصِّ أكواب الشاي المتبقي بها الحثالة السوداء بطريقة معينة فوق الصينية، على شكل مستطيل أو مثلث أو علامة زائد، ويضع فوق أحد تلك الأكواب

التليفون المحمول الخاص به ويقوم بتشغيل برنامج الموسيقى، الأكواب تصنع صدى صوت مضاعفاً، تبدأ الإذاعة الأسبوعية لفوق السطح والتي لا يُرتّب برنامجها أحد غير أشرف بتواشيح النقشبندي أو نصر الدين طوبار، ثم تلاوات متعددة لمنصور شامي الدمنهوري أو عبد الباسط أو الطبلاوي، خلفية الجلسة حتى تنفض أغاني أم كلثوم وفيروز، لا يقتنع أشرف بأغاني الرجال عن الحب، الرجال لا يكونون مقنعين عنده إلا عندما يقولون تواشيح أو أغاني حماسية أو قرآناً.

عناصر السهرة ثابتة لا تتغيَّر، شراء السمك المشوي كوجبة عشاء، وحكايات الأشباح والعلاقات الحميمة، وأصابع المايسترو أشرف وهو يقود أغانيه المنتقاة في عزف سيمفونية أكواب الشاي كما سمَّيتمونها، تملؤون بالونات الكلام حتى تصبح فوق رؤوسكم مناطيد سعادة وهمية ودفء كرعشات القشعريرة بعد التبوُّل، عندما تصل فوق السطح تجد دائماً من سبقك بالوصول، يأوي جلستكم طقم من كراسي الفوتيل القديمة التي برز منها حشوة القش، حسب المتوفِّر في جيوبكم تضعون خطة شراء أشياء التسلية، غالباً، عندما يكون المبلغ كبيراً، تشترون بعددكم سمكاً مشوياً ولوازمه، دائماً السمك؛ لأنه الأرخص، تأكلون وتعاودون الأكل والمصمصة، ليس بدافع الجوع بل الملل، تلٌّ صغير من العظام والقشور التي تحوَّلت إلى هشيم جاف لو أشعلتم فيه عود كبريت لاشتعل، الكلام عند انتصاف الليل ليس له دفة، خاصة بعد أن يغادر معظم الكبار في السن إلى بيوتهم، فينحرف الحديث إلى مواضيع أكثر حميمية، من عبر القنطرة المشتهاة، عندئذ يتوقَّف أشرف عن التلويح بأصابعه ويبرز في الساحة كفارس لا يباريه أحد، الوحيد الذي عبر القنطرة بصورة غير شرعية، فتكون للحكاية حينذاك متعة كاملة حتى للمتزوجين، حكايات ملفقة بأجزاء من الحقيقة، ولكن من يهتم طالما أن الوقت يمر بصورة ممتعة، لا تُكذبون الحكايات ولا

تُصدِّقونها فهى تميمة جلستكم، تمتد صحراء الصمت بعد ذلك فلا يبزغ فيها غير تفاهات الأسبوع السابق لكل منكم ليحكيها، صبارات الحقائق غير الممتعة، الحياة الجافة.

في تلك المرة وبعد الانتهاء من العشاء مباشرة صرخت فيهم عابثاً: هنئوني، لقد عدنا إلى الصلاة.

أجابوك في نَفس واحد مثل كورس في فريق موسيقى:

"وندمنا... على ما فعلنا... وعزمنا... عزما أكيداً...على أننا.. لن نعودَ.. إلى ذنب.. يغضب الله... وبرئنا.. من كل دين.. يخالف دين الإسلام.."

كانوا يُلحنون دعاء التلقين بخطبة الجمعة كُلٌّ بطريقته وصوته النشاز، ثم ثارت مناقشة فقهية بعد أن عرفوا سبب عودتك إلى الصلاة، استخدام المساجد كأماكن للراحة، حكم ذلك شرعاً، مثل القطط الصغيرة العمياء تتحسسون ألغام المحرمات خوفاً من أن تفرقع في وجوهكم، تذكرت المسجد والكتب والهمهمة والأصابع المتحركة تحت الأسطر، فذكرت لهم اسم شيخ علامات الاستفهام وحكيت لهم عن المقابلة، كانوا منبهرين.

- أنت مجنون، هو هو ولا أحد غيره؟ قل كلاماً غير هذا، هل أنت متأكد أنك تغطيت بالأمس وأنت نائم، لم تكن تحلم؟!

أعجبك انبهارهم فمضيت تسرد تفاصيل المقابلة، بعد هدوء عاصفة المجانين تحدث العقلاء، تحذيرات، الصلاة في تلك المساجد شبهة أمنية ستظل ملتصقة بك طوال العمر، يوماً ما سيأتون ويدقون بابك ويأخذونك، النهاية الطبيعية، التطوُّر الطبيعى من شخص عادي لإرهابي أصولي تطارده الحكومة، أما الأستاذ كامل فقال في هدوء لا يخلو من امتعاض تحذيري:

- اليوم الذي يمر على الواحد منا دون أن يحلق ذقنه كأنه لم يغسل وجهه أو ينظف أسنانه، كيف يُطيقون كل هذا الشعر على وجوههم؟ أعطنى سبباً واحداً لكى لا يصبح مأوى للقمل، فلنقل إن الرجال يتخمَّلون ويعتبرونه

جهاداً في سبيل الله، فماذا عن المرأة منهن التي تقابلها في الشارع أو مصلحة حكومية وحرارة الصيف تجعلك تودُّ لو تنزع جلد وجهك من كثرة العرق بينما هي في الصيف مثل الشتاء لا يختلف الأمر معها، تضع تلك القطعة السوداء من القماش على وجهها وتسميها نقاباً، أعطني سبباً واحداً لكي لا تجعل أنفاسهن منتنة بسبب ارتدائها طوال الوقت.

أما أستاذ أشرف فكان لديه نظرة لخَّص بها الموقف كله في جملتين، وهو يتثاءب وتدمع عيناه:

- لحية هؤلاء الرجال هي أداة جيدة لمداراة الذنوب، أعرف ملتحين يُدخِّنون النارجيلة علناً في المقاهي، علاوة على أن ذلك النقاب أو الحجاب أياً ما يسمونه ليس وسيلة للتدين بقدر ما هو وسيلة للتخفي والانتقال بحرية في السرقات والجرائم ومغامرات العشق والغرام سواء للرجال أو النساء، ولإخفاء الوجوه المشوهة وحروق الشمس والماء المالح للعائدات من المصايف.

أستاذ نيل قال إن لديه في مكتبة أبيه كتباً كثيرة تشرح انتماءات هؤلاء الناس وفكرهم، ولكنه لم يفكر لحظة في أن يقرأها؛ لأنها غير مُسلية.

لكن دون شك لا يستطيع أحد أن ينكر، أنت وقعت على كنز، شيء ستحكي عنه لأحفادك، علاوة على ذلك، أنت لا تعرف متى تحتاج الناس، ذلك الشيخ له علاقات ويحترمه الأعداء قبل الأصدقاء، لو تعاطف معك أحسن من ألف واسطة.

استمرَّ الحديث على هذا المنوال، تحذير وترغيب، أحياناً يكون نفس الشخص بقناعات مختلفة في أجزاء مختلفة من الليل، الليل طويل مع بدايات الصيف والنسيم لطيف والكلام ذو شجون، لا ريب أنك أثريت ليلتهم، في النهاية وأنتم واقفون تتثاءبون تمهيداً لفضِّ الجلسة أخذوا عليك وعداً ألا تكتم عنهم أي تطورات جديدة بخصوص ذلك الموضوع، أثناء نزول

السلم تتدافعون ويتملككم الضحك لسبب غير مفهوم، ربما لأن المحمدي يُحذِّركم من الضحك حتى لا ينزعج أبواه النائمان، تأخذون مساراً ملتوياً لرحلة عودتكم، ليس كما جئتم فرادى بل متكتلين مثل هجرة النحل، يتسرَّب منكم شخص تلو الآخر، في النهاية يتبقى معك شخص واحد، الأخير، صديقك الحميم بحكم الجيرة، سرتما في الشارع الذي يضمُّ بيتكما، عندما أصبحتما قريبين من نهايته مسح على جسدك مستهزئاً وقبَّل أطراف أصابعه التي لمستك وقال: بركاتك يا عم الشيخ، أجبته: أكيد سليت الجماعة، قال:

- أكيد، حبكة قصتك الجديدة جيدة هذه المرة، متى ستبدأ في كتابتها؟؟

توقفت عن السير، اعتادت شلة السطح أن تحكي لهم كل فترة حكاية كأنها حدثت لك، نواة قصة جديدة تكتبها أو تهملها، لا بد أنه ظنَّ أنها إحدى قصصك الكاذبة، قلت له متوقعاً ما سيقوله: ليست قصة، هتف بك متفاجئاً: الله يخرب بيتك..

انقلب سوداوياً في لحظة، دائماً تشعر أنه يختنق إذا ابتعد عن الضحك والسخرية من الآخرين لحظة واحدة، لا يخرج بهذا الوجه إلا معك، قال مبتئساً:

كان يجب أن ترفض مقابلة الشيخ وتترك المسجد، ما قمت به كان مجازفة، تصرُّف غير مسؤول.

ظلَّ صامتاً بعد جملته وكأنه لا يجد الكلمات التي تصف ما فعلته، وصلتما إلى بيتك، سيمشي، آخر بيت في الشارع، لا تحب النهايات المبتورة، أشرت له بيدك:

انتظرني هنا سأدخل وآتي لنا بكوبين من الشاي، سنتحدث قليلاً، الليل طويل.

دخلت، في الظلام تخبَّطت في أثاث الصالة، لو أضيئت لمبة واحدة سيستيقظ أبوك وتدخل معه في سين وجيم، لا يوقظه إلا الضوء كأنه مُركَّب على دائرة الكهرباء، لا تقلقه الحركة والضوء بقدر ما يُقلقه الاستهلاك، في الظلام لا ترى الماء وهو يغلي، ضوء شعلة البوتاجاز تحته ولكنك لا تراه، تشعر برجرجته داخل الوعاء فتلقي فيه ملعقتين من الشاي وتطفئ النار بسرعة قبل فورانه وتُغطِّيه، تأخذ كوبين نظيفين وملعقة صغيرة و"حُقّ" السكر تحت إبطك، على عتبة الباب تجلسان، صراصير الليل تجري، تعبر الشارع، تتوقَّف عند سماع أصواتنا كخطر محتمل، تواصل جريها عند اطمئنانها.

دائماً هناك كلام لا يُقال إلا بين اثنين، يُشبه هذا التفكير بصوت عالٍ، لا يعني ألا تصلا إلى طرق مسدودة من التشبُّث بالرأي والكبرياء الناتج من تأكُّد كلٍّ منكما لامتلاكه الحق المطلق، مع ذلك تنمو لصداقتكما فولكلوريات، تتحدثان وعندما يتأزم الحوار بينكما توشكان على العراك، فيقول الأهدأ منكما للآخر: انزل اشرب شاي، اللفظ أُسقط وبقي مدلوله: لينفثئ الغضب، لنأخذ استراحة من الاختلاف، لم تصادف في حياتك من ترتاح بالحديث إليه مثل صديقك، صارحته بأفكارك التي جاءتك للتو، استغلال الموقف، نصحك: لا تلعب بالنار، قلت:

- وأين النار في ذلك؟ سأذهب إلى شيخ "علامات الاستفهام"، ألم يقل لي إنه يريد أن يحلَّ مشكلتي، ها هي، عاطل، أخبره بأني بلا وظيفة وأحتاج لمساعدته، لن يكلِّفه الأمر سوى دقيقة أو أكثر على المحمول لأحد معارفه، تسألني ما الدافع له أن يفعل؟، أنا مستاء من اتهامهم لي بالعمالة لأمن الدولة، سيجد هو أنه اعتذار بسيط لي، ثم إن الجديد في الموضوع أنه في زحمة الأسئلة والطلبات الفقهية سيجد شيئاً جديداً غير مألوف، ليس طالب علم كما المعتاد، طالب وظيفة.

تضاحكت، لم يضحك هو.

لطالما كان لديك الوقت لتراجع ذلك الحوار القديم، لتسترجع معه تلك الشخصية التي كنتها، كيف دار الحديث بينكما، تقليب الكلام المترسِّب في قيعان النفس دون نية في الفعل، تماماً كما نقلب بقايا السكر في كوب الشاي مع الحثالة الأخيرة، ليس لتحسين الطعم بل للخسارة المحتملة، لم تعتقد وقتها أنك ستجد نفسك يوماً ما وظهرك إلى الحائط، وهذا السيناريو الذي رسمته لصديق طفولتك هازلاً هو آخر سلاح في جرابك، لم تتوقَّع هذا أبداً، كان لديك دائماً في كل شيء مرَّ في حياتك خيارات، تلك الخيارات التي يسميها الآخرون هزائم وتسميها أنت بدايات أخرى، وزيادة على تلك الخيارات، قناعاتك الخاصة التي جرَّبتها ومارستها في سنوات عمرك القليلة ونفعت، بطريقة الصواب والخطأ، بعيداً عن الكتب والمبادئ العامة والأكليشيهات الأخلاقية والانتماءات الجاهزة، فقط كان الفيصل في صلاحية أي سلوك عندك هو نفس الفيصل لصلاحية أي شيء لأبناء جغرافيتك البشرية: الفوز، النجاح، الحصول على الكعكة.... لا يهم إن كانت كعكة الفوز تلك فقط المتاحة لمن هم في مثل طبقتك الاجتماعية والتي لا تتعدى الحصول على امتيازات مدعمة وإن كانت سيئة تماماً كالسكر الأسود والشاي بصبغة الأحذية والصابون التمويني الجيري الذي لا يذوب بقدر ما يخدش الأيدي، متحاشياً غضب الحكومة بالمشي بجانب الحائط، داخل الحائط إن لزم الأمر، تاركاً المخاوف التقليدية الغريزية تنمو بداخلك مثل نباتات برّية دون رادع تغذيها الأساطير المحلية لأناس وضعوهم تحت الأرض أو وراء الشمس، مثلها مثل الخوف غير المبرر من السير بجانب أقسام الشرطة ناهيك عن دخولها، الخوف من أي ما ينتمي للعقاب الحكومي ولو ورقة متسخة تُلقى أمام عتبة باب بيتكم، مروراً بترك تربيتك الدينية المتعجرفة والتي لا تملك سواها بحكم الجو المحيط فتتحكم في نقاشاتك

وخياراتك. التربية التي تقول إن الدين ليس مادة تُثرى وتُنمَّى بالدراسة وإنما هو شيء أشبه بالحدس والتسلية الفكرية، الذوق الذي يُربَّى بالورع العشوائي مثل اختيار الملابس وتثمين البضائع التي يُغالي في ثمنها الباعة الجائلون استعداداً للفصال، كنت تقول لنفسك لتطمئنها عندما تتعرض لزلزال أخلاقي إنه لا يوجد في الدين شيء لا تفهمه، الدين نزل على بدو الصحراء ولم يُعقِّدوا حياتهم، كل تلك الكتب والمجلدات تحصيل حاصل.

ولكن -ويا للعجب- كانت الدروس التي سمعتها -تجرعتها غصباً مثل الدواء- تقول غير ذلك، الأمر أكبر من مجرد تمارين وأحاجٍ أخلاقية، هناك نوع من التدريس الثقيل، أطنان ورقية من المواقف التي حدثت والأقوال التي قيلت والأعمار التي أفنيت في تفسيرها لأذكياء الرجال، اختلاف الأفهام حول تفسيرها لم يكن اختلافاً اعتباطياً، كأنه شيء مثل الغزل حول الخيوط الأساسية لحمايتها وتقويتها، أما عن البدو الذين فهموا الأمر بغريزية اللغة لديهم فقد سقط هذا الفهم الآن -القدرة على ممارسته- بسقوط اللغة عبر السنين قطعة قطعة مثل ملاط الحائط القديم، كان مشهد الأرفف المليئة بالكتب والهمهمة والشفاه المتحركة لا يُنسى، النداهة التي ظلت تناديك طيلة سنتين بعد هذا الحوار الليلي الخاص مع صاحبك، ولكنه لم يكن أول شيء يناديك فتجاهلته....

***

بعد هذه الليلة لم تُثِر الحديث مرة أخرى عن الشيخ أو المسجد بينك وبين رفاق السطح، مجيباً في كل مرة يلحون عليك فيها بالكلام: من أراد أن يعرف فليأتِ معي ليرى، مع مجيء الشتاء التالي قلّت مقابلات العمل، فأصبح وجودك في المسجد أساسياً، فبعد مرور ثلاث سنوات من المقابلات الوظيفية الفاشلة أصبحت أكثر حساسية للبقاء في البيت، وكما أخبرت رفاق السطح أنك لا تعرف ماذا تفعل بضوء النهار، تلقّيت حينها أكثر من دعوة لقضاء فترات الفراغ عندهم بدلاً من المسجد، لم تكن لتمانع أن تمكث ساعات مع أ/ نيل السمالوطي تساعده في نقل الأرقام أو كتابتها على التليفون، أو زيارة أستاذ كامل في مكتبه الزجاجي للتخليص الجمركي لتستمع الساعات الطوال إلى حكاياته عن المرأة التي قطعت مروحة السقف أطراف أصابعها وهي تخلع ملابسها، والرجل الذي أصابه فيروس سي النشط عند حلاق لا يُغيّر شفرات الحلاقة بين زبائنه، وزميله الذي وجد صرصاراً في زجاجة مياه غازية، أو حتى تزور أشرف في شقته التي تفوح منها رائحة القرنبيط الفاسد ليصطحبك في إحدى مغامراته النسائية العديدة كحارس ثانوي أو كعشيق مؤقت لفُتات امرأة أخرى، كنت قد فقدت أي احترام لنفسك ولكن ما أبقاك بعيداً عن أن تستجب لدعواتهم هو نفس ما أبقاك في المسجد، الحفاظ على المتبقي، العمود الفقاري لكبريائك.

في أحد أيام الخميس الشهيرة أثار حسني موضوع جعل المتزوجين لا ينصرفون مع منتصف الليل كعاداتهم، كان حسني هو منافس أشرف في الاستيلاء على وقت الجلسة، ولكن في مجال آخر، هو صاحب نظرية تفتُّت الشمس ليلاً إلى نجوم، وأنه لم يصعد أحد إلى القمر حتى الآن، وكل ما يروجونه عن ذلك مجرد أكاذيب، وأن اليهود هم من بنوا الأهرامات على الحقيقة، وأن الأشجار التي تقوم وزارة الزراعة بزراعتها بتمويل من دولة إسرائيل هو شجر الغرقد والذي سوف يتآزر مع اليهود في آخر الزمان في

حربهم مع المسلمين، على خلفية من أغنية "رق الحبيب" تُعاد وتتكرر كأن أشرف يريد إخراجكم من سحر الحكاية التي يجتهد حسني في غزل خيوطها، والتي كانت عن غزو العراق للكويت، قال إنه عثر عند بائع رصيف على كتاب أورد حديثاً للنبي يصف فيه بدقة ذلك الغزو والآثار المترتبة عليه، وأنها بداية لنهاية العالم، كان أستاذ كامل قد رفض أن يأكل من السمك كما هي عادته، ولكن المختلف أنه قاء كل ما في بطنه قبل أن تنتهوا من الأكل، ظلَّ منهكاً في توابع القيء عند السور البعيد ثم جاء وجلس على كرسيه بوجه ممتقع، وكأنه خسر لتوه معركة ظل طيلة حياته يحارب من أجل الانتصار فيها، ربما كان مزاجه السوداوي الذي جعله يشترك في الكلام لأول مرة خارج نطاق التحذير، قال أستاذ كامل إن الدليل على صحة موضوع نهاية العالم هي الأشياء التي تغيرت ولم تعد كالأول، التطرُّف في الطقس وتداخل أوقات الصيف والشتاء، المدن الساحلية التي ظهر فيها البعوض على غير عادتها والمدن الريفية التي تُهاجمها الآن حيوانات غريبة كالسلعوة، بعض الحيوانات تشعر بالزلازل قبل أن تأتي، وكل هذا ينبئ عن فساد العالم والذي هو مقدمة ليوم القيامة.

لم يكن صديق طفولتك حاضراً في هذا الحديث الشيق، كان ذلك الأسبوع هو الذي التحق فيه بالعمل في أحد المولات التجارية كمناول للبضائع، اتصل بك خلال النهار واعتذر عن المجيء معك بسبب الإرهاق المعتاد من العمل، غُدْت وحدك في تلك الليلة بطعم غريب في فمك، لعل وجبة السمك كانت فاسدة وشعر بها أستاذ كامل رغم أنه لم يأكل منها، كما تشعر الحيوانات بالزلازل قبل حدوثها، ليس بسبب الحموضة أو الطعم الغريب. في تلك الليلة وأنت عائد إلى بيتك تملكك إحساس قهري بأن صداقة عمرك قد انتهت، ليس لأن طرفها الآخر قد تجاوز عُقده النفسية بخصوص شهادته الجامعية والتحق بعمل وأنت ما زلت عاطلاً، بل لشعورك المستمر بأن كلام

حسني عن نهاية الأشياء لم يكن وليد الصدفة، تذكَّرت كيف أنهم -في المسجد- ومنذ أيام قد قاموا بوضع عدد من صواعق البعوض في السقف، دار حديث بين شخصين -ربفيين!- جالسين بجانبك عن طبيعة هذه الأشياء التي علَّقوها في السقف، فأجاب الآخر في سخرية بأنها ترسل موجات إلى الدماغ لتطرد النوم عن روَّاد المسجد، لم تكن تعلم أنه يقصدك إلا عندما فتحت عينيك ونظرت إليهما فوجدتهما يبتسمان، انتبهت، كنت بالفعل تنام بعمق ولكن دون أحلام، قلت في نفسك لعله أحد الآثار المترتبة للنوم في الأماكن المقدسة، النوم دون أن تحلم، الآن -وبعد حديث حسني وتعليق أستاذ كامل عليه- عرفت سبب نومك بعمق، فساد العالم!

***

كيف يمكنك أن تعلل كراهيتك للبحر لساحلي مثلك يعشقه، خاصة عندما يسألك في جدية:

- كيف تكون كاتباً وتكره البحر؟

تجيبه -صديق طفولتك- وأنتما تتسكعان على الكورنيش:

- الشعراء هم الذين يحبون البحر.

- إذاً كل هؤلاء المصطافين شعراء؟

تحاول أن تقنعه بأن هذا الحب مزيف، إنها الدهشة من واقع بيئة مغاير لبيئتهم، إنها روح الفرحة الجماعية للمنهكين بعد الوصول، مفاجأة الهدايا التي يهبها لهم البحر ولا يستطيع أن يهبها إلا للغرباء المؤقتين، إن البحر يتزيَّن للزائرين؛ لأنهم سيدفعون الثمن.

- هذا يشبه أن تسكن في مطعم لأنك تحب الطعام، تسكن في مكتبة لأنك تحب القراءة، تسكن في بيت للدعارة لأنك تحب الجنس، هناك علاقة أخرى بجانب الحب لا بد أن تقيمها إذا كنت ستستمر في الإقامة بجانب من تحبه أو ما تحبه، ربما سأحب بحراً آخر ولكن بحر الإسكندرية يعطيك ظهره بمجرد أن تحاول أن تقيم تلك العلاقة الأخرى معه، لذا أنا أكرهه..

وضع اليدين في الجيوب أثناء الحديث: حركة تدل على موقف محدَّد ضد الطرف الآخر، ورغبة ملحة في عدم مصارحته والإفصاح عما يجول في النفس، وهي حركة فيها تحدٍّ وكبرياء ومقاومة، وكأننا بذلك نريد أن نقول افعل ما تشاء لا يهمنا، لكن لماذا لا تضع يديك في جيوبك إلا عندما يصبح من الضروري في حديثكما أن تذكّره بذلك اليوم الذي أحببتما فيه نفس الفتاة، كجزء من حُجَّتك ليس إلا، هي نتيجة طبيعية للعيش في واديكم، الخيارات المحدودة، كأن يدوس أحد ما في طابور مزدحم على قدم شخص آخر، إنه شيء لا يستأهل اعتذاراً، ولكن الشيء غير الطبيعي أن يأتيك بعدها ويقول لك: أنا رأيتها قبلك، تنازل لي عنها، تنازلتَ له وكأنها عملة

ورقية أبصرها هو أولاً على الأرض فكان صاحب الحق فيها، وكإجراء مؤقت لتثبت حسن نيتك لصديقك لم تعد تسير في الشارع الذي يضمُّ بيتها، لم تسأله بعدها كيف صار الأمر بينهما، حكمت على علاقة مثل هذه بالفشل قبل أن تبدأ، حتى لو كنت أنت طرفها الآخر، لو كان هو المنسحب لك، لو استمر معها فسيكون حبه لها مثل حبه للبحر، محض تقمُّص لمشاعر الغرباء، تقمُّص لمشاعرك أنت في حال لو استمررت معها، هل هذا هو السبب الذي يجعل الرجال يسمحون لزوجاتهم بالنزول إلى البحر بتلك الملابس الفاضحة في شاطئ مليء بالرجال، إنهم يُغذون علاقاتهم الزوجية بنظرات الآخرين المعجبة إلى زوجاتهم، إن ما بينك وبين البحر هي كراهية الغيرة لمحبوبة تهب نفسها للجميع بغير حساب، قال لك دون أن يسمع صوت أفكارك أو يقرأها في عينيك:

لا أعلم لماذا تصر على تعقيد علاقاتك مع الآخرين، أنت تشبه هؤلاء الريفيين الذين يصرون على السباحة بملابسهم الكاملة في البحر، يجب أن تعترف بأنك غريب؛ لأنه مهما كانت مهارتك في تعليل مشاعرك بتلك الطريقة ستغرق يوماً ما، هل تتذكر تلك الفتاة العام الفائت، ظلَّت مصرة على إقامة علاقة شريفة حتى أول قبلة، لقد أنقذتك منها عندما رجوتك أن تتركها لي، لو تركتها لك لفازت بزوج محترم ريفي يخاف البحر، هناك أشياء يجب أن تؤمن بها دون تفكير كما يؤمن بها الآخرون، كل هؤلاء الناس ليسوا عبثاً، عندما يتحركون إلى ناحية ما تحرك معهم، عندما يخلعون ملابسهم لنزول البحر لا تصر على ملابسك الكاملة وإلا غرقت، ليس كل شيء يجب أن نصدقه ونعيشه موجوداً في تلك الكتب التي تقرؤها..

أخرجت يديك من جيوبك.

- سأخبرك بسرٍ لم أخبر به أحداً قبلك، هل تعرف أن المرأة الوحيدة التي تمنيت أن أتزوجها هي بالفعل امرأة من الكتب، من التاريخ، اسمها نضيرة

بنت الضبرن، تقول الحكاية إنها خانت أباها من أجل سابور الذي عشقته من خلف أسوار مدينتها المحصنة وهو يختال بجواده بين جنوده في حصاره لمدينتها، عشقته ففتحت له أبواب مدينتها ليقتل أباها ويجتاح أهلها، وفي الليلة التي دخل بها شكت له من قساوة الفراش المحشوّ بزغب النعام فأمر الخادمات أن يفتشن تحت المراتب فوجدن ورقة من آس شعرت بها من فوق كل ريش النعام من ترفها، فسألها: بم كان أبواك يُغذيانك؟ أجابته: بالملح والزبد وصفو الخمر والشهد، فأمر بها سابور فرُبط شعرها إلى ذيل فرس فمزقها بين الصخور، يقول التاريخ إنه فعل ذلك خوفاً منها على نفسه من خيانتها كما خانت أباها، ولكني أعتقد أن ما شعر به سابور ليس الخوف.

- ولماذا قتلها إذن؟

- لا أعرف.. لا أعرف، لو كنت أعرف لأخبرتك ولكنه بكل تأكيد ليس الخوف.

قال ليغير الموضوع وليرحمك من حيرتك:

- كيف حال شلة فوق السطح في غيابي؟؟

- سألوني عنك مرة واحدة، أنت تعرف كيف يسير الأمر هناك، سينسونك بسرعة، ولكن اطمئن، لن يستثنيك أستاذ نيل السمالوطي من رسالته الشهرية!

قال في ثقة أوجعتك:

- هذه طبيعة الحياة، يجب أن تتجاوزهم أنت أيضاً كما تجاوزتهم أنا، كان وقتاً جميلاً ولكن يجب ألا ندع الأوقات الجميلة تستغرقنا، هل تتذكر ماذا قالوا لي عن عملي الجديد بالمول.. ولكن دعنا من هذا، هل ما زلت تصلي في ذلك المسجد؟

***

الذي بنى شوارع الإسكندرية مثل رقعة شطرنج في اتجاه البحر وبموازاته كان يعلم جيداً عن صفات أهل الساحل، يعلم أنهم لا يدورون حول الأمور، يضعون طعامهم أمام أضيافهم ويرفعونه كما هو دون كلمة تشجيع واحدة، لا يدقُّون أوتادهم بعمق ولا يشعلون ناراً ولا يُعلقون صور ذويهم الأموات على الحوائط، ولكن مع ذلك فهم على استعداد لأن يُصدِّقوا الأكاذيب عن بحرهم، من تلك الأكاذيب أن رائحته تشبه رائحة اليود، توجد رائحة للبحر بالفعل، تتسرَّب إلى طباعك وتصرفاتك وتدمغك، ليس برائحة اليود، لا تعرف رائحة اليود التي يتحدث عنها أولئك الذين يزورون البحر مرة واحدة سياحية في السنة، ولكنك تعرف رائحة البحر، يشبه تجشُّؤ سمكة عملاقة غافية منذ آلاف السنين، لو كان السندباد ساحلياً لانتبه منذ سارت قدماه أن الجزيرة سمكة طافية منذ عشرات السنين..

أن تتوقَّف عن الكلام على موضوع بعينه، أن تُبعده من أن يظهر خلف نافذتي عينيك، تخبئه كلقيط من أفكارك، ذلك لا يعني أنك نسيته أو أنك لا ترغب في أن تفعله، ذلك يعني أنه أكثر شيء تود أن تفعله في تلك اللحظة، وأنك فقط.. ساحلي..

إنه جزء من طبيعة البحر لو تعلم، الهدوء الذي يسبق العاصفة، سطح الماء الخامد كالزيت ثم تأتي العاصفة.

وكان صديق طفولتك يسألك -أكثر ما يسألك- هل ما زلت تصلي في ذلك المسجد؟ فتجيبه، لم تهرب من إجابته إلا بعد أن قررت، ولم يبدأ هو في الإلحاح بالسؤال إلا بعد أن تهرَّبت من السؤال.. وكنت تودُّ أن تجيبه، أن تفضفض له.

هل قرأت حكاية شيخ البحر في حكاية السندباد؟ السندباد الذي حشا أذنيه صمغاً ليعزلهما فمرَّ دون أن يفتنه نداء الحوريات، ولكنه لم يسدَّ أذنيه عندما ناداه شيخ البحر، انكسرت السفينة كما تنكسر كل سفينة

ركبها السندباد، حملته الأمواج على أحد أخشابها المتبقية إلى جزيرة النجاة. بحث عن الماء أول ما بحث، بجانب بئر الماء شيخ عجوز يتوسَّل إليه: احملني على ظهرك قليلاً؛ لأصيب بغيتي من تلك الثمار البعيدة. بمجرد أن حمله على كتفه دارت الساقان الهزيلتان كأفعوانين هائلين على عنقه، وأصبح الشيخ العجوز راكبه إلى الأبد. وكنت تحذِّر نفسك: ملينة حياتنا بشيوخ البحر. كان شيخ البحر بجانب بئر الماء، على جزيرة النجاة، كل شيء يشير إلى صلاح الحال، ثم.. صار عبوديته.

ها أنت ذا على وشك أن تقع في أسر نداء شيخ البحر، رغم أنك لم تستمع لنداءات شيخ بحر واحد في كل حياتك، عاملتهم كما تعامل الشحاذين المهذَّبين المهندمين الذين ينتظرونك على الأرصفة بحكايات مأساوية جاهزة موثقة بأوراق (روشتات أطباء وصور أشعة وفواتير صيدليات): أن تغمض عينيك وتُسرع من إيقاع خطواتك، تشد مصراعي قلبك على رطوبته كما تشدُّ مصراعي نافذتك في يوم خماسيني مُغبرٍّ، قليلة هي الأموال في جيبك كما هي قليلة فرص حياتك الأكيدة.

انتظروك على أرصفة مدرجات الدراسة في كل سنواتك الجامعية، روافد تحشد الطلبة إلى البحر الصاخب منهم، هتافات مدوية مُنغمة، على صدورهم بطاقات ملونة تشير إلى هويتهم الانتمائية، كلها تنويعات على نفس الكلمات (العدل الحرية الإسلام النماء) انضمَّ إلينا. يهتفون بك، تشد المصراعين وتنطلق، لن تركبوني يا شيوخ البحر

برغم دوامة الأسئلة التي تقع فيها كل مرة بعد الهروب (أليس الانتماء ممتعاً؟، أليست العبودية وسيلة للوصول في كل حكايات الصوفيين؟ تكريس النفس من أجل هدف بكل ما تحويه كلمة التكريس من معانٍ. السهل الممتنع. أليست أفضل من العشوائية التي تعيشها)، كنت تعلم أنك لن تنحني أبداً ليركبوك ليس لصلابتك بل لأنك اعتقدت دائماً أن الأفعال

الكبيرة لا يقوم بها أناس مثلك، أنت رجل الأفعال الصغيرة التي يقوم بها الناس العاديون دون أمل لهم في عمل واحد كبير، المستسلمون لسلسلة الأفعال الصغيرة المعيشية، تخزين الأطعمة. الوقوف في طوابير الخبز، العودة من العمل بصفقات الشراء الفرص تحت إبطك، لكن الأعمال الكبيرة هي ما يقوم به أناس مفرغون من تلك الهموم اليومية، منزوعة عندهم تلك النظرة الشرائية الانتهازية، الذين لم يَهْرِ لحم أكتافهم زحامهم للناس في الطوابير فيستطيعون حينذاك أن ينصحوهم (أحِبَّ أخيك، تنزَّه عن وساخات الدنيا.... وإلخ).

كل أبطال واديك المعتبرين كانوا لصوصاً قالوا كلمات مفخمة قبل صعودهم إلى المشنقة، أو قتلة انقلب التاريخ صدفة من أجلهم في اللحظات الأخيرة قبل أن يموتوا، فاستطاعوا أن يسجلوا أنفسهم كنبلاء، لذا لم تعتقد أبداً أن الحياة يمكن أن تكون مجرد تدريب عملي لإنجاز عمل واحد كبير تعتقد أنه لم يأتِ ولكنه يمر دون أن تشعر، السبب أنكم تكونون مشغولين بالعراك كالقطط على القمامة، كل أبناء واديك الذين حلموا بدور في هذا العالم بحثوا عن الانتماء الذي يوفّر تلك الفرصة لهم دون احتكاكات مؤلمة، ودون مخاطر الضياع في المياه المفتوحة، ولكن ما هو الانتماء؟؟ كعادتك مع كل الكلمات المبهمة التي لم تجد لها معنى محدداً تضع لها معاني حسب فهمك لها في كل مرحلة من حياتك، وكأن فهمك ينمو مع الزمن (الانتماء.. مرادف واحد - دفء الجماعات، اثنان - التكريس، ثلاثة الفناء الصوفي في مجموعة، أربعة الغباء الخلوي... التحوُّل الى ترس والصبر الطويل على قانون الخطوة الترسية، ترتيب الخطوات وبطء الخطوات ووحشية الحركة التي لا ترحم خمسة وهو التعريف الأخير الانتماء هو مجرد غباء).

يوماً ما -وكما توقفت عن الاعتقاد بأنك ستكون واحداً من أصحاب الأعمال الكبيرة ولم تكن مستعداً لأن تكون ترساً في مجموعة كبيرة حركية- تصل لفلسفة حياتك. تكفيك المراقبة من زاوية مهملة. ليس وقت صانعي التاريخ. لعله وقت إثارة الغبار فقط. كيف وصلت لهذه النتيجة. من الصعب أن تقولها. إنه شيء أشبه بالتعفُّن في الأجساد الميتة. لا تستطيع أن تدفعه عنك ولو طال تماسكك الظاهري. إنها تلك الصباحات التي ظلَّت تحمل طعماً واحداً لا يتغيَّر في فمك عندما تستيقظ وتظل متكلساً تحت غطائك كدر غبي. كل فترات التاريخ المنسية سقط فوقك. الطعم المر لعدم الفهم الكامل لطبيعة حركة الحياة مثل تلك الساعات الأخيرة التي تعيشها الآن. ولكن دون تزييف: قررت فيها أن تتوقف عن خدش جدران الوادي الملساء. الأمل والبحث عن وظيفة تليق بك كما فعل صديق طفولتك. نفس الليالي التي كنت تنام فيها بعمق تقريباً منذ سنوات دون أن تخدش جفن عينيك سيقان العناكب. في أحد تلك الصباحات الذي خرج عن تشابهه بكل صباحاتك السابقة قرَّرت أن تذهب إلى شيخ علامات الاستفهام.

***

هكذا حصلت على عملك في المكتبة، كان الحصول عليه كما قال لك الشيخ لفترة مؤقتة لحين البحث لك عن عمل يليق بشهادتك الجامعية، تعاطف معك بصورة لم تتصوَّرها، وكان تعاطفه سبباً في هزيمة وساوسك، كانت طبيعة العمل كما أخبرك أنه يريد وضع ضابط أخلاقي لوجود الطلاب في المكتبة قائلاً:

المكتبة كما رأيت كبيرة، كنز لا يُقدَّر بثمن لأي طالب من طلاب العلم الشرعي، لو أخبرتك عن عدد الزائرين يومياً سيصيبك الذهول، يأتون من شتى المحافظات، هو أيضاً مكان مفتوح مباح لراغبي تضييع الوقت والتشويش على الباقين والاختلاسات، بعض الطلبة يستعيرون الكتب ولا يعيدونها، بعضهم يُمزِّق بعض الصفحات منها وكأنه آخر من سيقرأ في الكتاب.

يقف حينذاك يلتقط بعض الكتب الملقاة في الجانب ليريك بعض الصفحات المنتزَعة من مكانها التي اكتشفها بنفسه أو اكتشفها آخرون، مجموعة كبيرة من الكتب.

الشكاوى في هذه الأمور تستهلكني وتضيع وقتي، أريد نائباً عني في المكتبة، ستكون له وظائف عديدة، شيخ المكتبة، عيني الأمينة، جاسوسي المُعلن، وأريد تقريراً في نهاية اليوم: عدد الطلبة والكتب التي قرأوها، الوقت الذي استغرقوه في المكتبة، ربما نجعله تقريراً أسبوعياً أو شهرياً حسب الظروف، سيفيدني ذلك في تقييمهم، ومع الوقت ستعلم أماكن الكتب وسترشد الطلبة الجدد إليها، يفقد الطلبة أوقاتهم بين أرفف المكتبة دون جدوى، القراءة دون منهج ليست أكثر من مضيعة للوقت، يحتاجون للرقابة، ولن أطلب منك أكثر من ذلك، وجبة الإفطار والغ سأكلّف بها مصطفى فتى الكانتين ليأتيك بها دون أن تُغادر مكانك، وسيكون راتبك إن شاء الله مجزياً، ولن أكلفك فوق ما تستطيع إلا لو أعنتك عليه

(يبتسم)

- كل ما في الأمر أنك ستشتاق للشمس والتراب وضجيج الناس.

تركك حينذاك ليجدد وضوءه ويتهيَّأ للصلاة، طيلة السنوات التي قضيتها معه في المكتبة لم يذهب مرة واحدة أمامك ليجدد وضوءه، كان من عادته أن ينزل إلى باحة المسجد مع الأذان، وأحياناً يصلي الفرضين بوضوء واحد فلا ينزل في الفرض الثاني إلا قرب إقامة الصلاة، لم يتركك يومها إلا ليفسح لك وقتاً للتفكير واتخاذ القرار. ولكن هل ذهبت إليه وأنت تملك ترف الخيار، هل كنت مخيراً؟ وبصيغة أخرى للسؤال: هل كان يمكنك أن تفعل ما فكرت فيه طيلة الدقائق الطوال التي تركك فيها، تفكر في تثاقل وكأنك تداعب وجه رجل ميت بريشة طائر لتزعجه، تفكر دون نية الفعل وكأنك تراوح بين قدميك (ستنهض الآن وبسرعة شديدة، ستخرج من هذا الباب الذي ستحني رأسك وأنت تعبره، تمرق عبر الأرفف، ربما صادفك أثناء نزولك على السلم وسألك (إلى أين؟) ولن تردَّ عليه، ستصبح في الشارع آنذاك وقد خلَّفت نداءاته وراءك، حراً في المياه المفتوحة، حراً في المساحات المشمسة الشاسعة في قاع وادي الأفاعي، اهربوا اهربوا.. ليست جزيرة ما نقف عليه، إنه حوت عظيم)، لم يكن بينك وبين الهروب إلا هذا الباب القزم الذي ستحني رأسك وأنت تمرُّ من خلاله، لماذا بنوه بهذا القِصَر؟ وكأنه مُتعمَّد، لماذا تذكَّرت حينها قراءاتك عن القبائل الهندية التي لا ينحني أفراد المربين الروحيين فيها أثناء عبورهم الأبواب حتى لو كانت عارضة الباب العليا أقصر من أن تستوعب طولهم، يمرون خلالها وكأنها ضباب، قرأت أيضاً عن هؤلاء الملوك الذين يجعلون رحلة الدخول إلى بلاط مُلكهم متعددة الأبواب متفاوتة الطول حتى يجبروا كل قادم إليهم على الانحناء التدريجي غصباً متى وصلوا إليهم.

وكأنك فقدت شفافيتك، هبطت عليك تلك الكثافة الضاغطة فكبلتك واستحال الباب في نظرك إلى ثقب إبرة، كثافة أطنان وأطنان من الماء المالح، لم تلحق بسفينتك ونزل بك الحوت إلى الماء، لم تكن ثمة سفينة أصلاً، لم تصل إلى الجزيرة السمكة إلا سباحة بذراعيك ولم يكن ما بك ذهولاً أو خوفاً أو تعثراً حين جريت لتلحق بسفينتك الوهمية بل كلل ذراعيك من السباحة المرهقة، ماذا ينتظرك على الجزر الأخرى غير شيوخ البحر؟ لتكتفِ بتلك الجزيرة قبل أن تهلك في البحث، كذا كل أبناء جغرافيتك البشرية في رحلاتهم، لا سفن انتقال ولا قوارب للنجاة وإنما هو تشتت بين الطرق والبحار حتى تدهسهم حركة الحياة أو يبتلعهم الموت حين يصيب الكلل ذراعهم واليأس نفوسهم.. وحينذاك يكتشفون، ما ظنوه جزيرة النجاة ليس إلا سمكة كبيرة، لا يكون أمامهم سوى الغوص البارد في حالتك، البارد حتى من حرارة الدهشة المعتادة!!

وكان الحوار بينكما عندما عاد -بعد موافقة سريعة منك- عن صورة تواجدك بالمكان.

سيتم وضع مكتب لك في الممر الأول، ليس بجانب الباب فيشغلك الصاعدون والهابطون ولا في العمق فتفقد حركة الداخلين والخارجين ويفقدون رقابتك عليهم، ربما فيما بعد سنشتري جهاز كمبيوتر لك، نضع كاميرا مسجلة في الأماكن الميتة موصولة على برنامج لشاشة الكمبيوتر، كل هذا أمور مؤجلة أتمنى تحقيقها، يقولون إن هناك نظاماً للحريق يستعمل البودرة ولا يستعمل المياه، مناسب للكتب؛ لأنه يطفئ الحرائق دون أن يفسدها، ربما نأتي أيضاً بتكييف، التكييف أفضل من المراوح لحياة الكتب وتركيز الطلبة.

ومضى الشيخ يحلم ويسرد تفاصيل أخرى عن مؤسسته الصغيرة، لم تكن في أرضه حينذاك، كنت تفكر في حياتك الجديدة القادمة، تفكر في الطريقة

التي ستزفُّ بها الخبر إلى شلة السطح عامة وإلى صديق طفولتك السوداوي خاصة، تتخيل تعليقاتهم ونظراتهم وسخريتهم. الطريقة التي ستدور بها الحوارات بينك وبينهم بعد ذلك، لعل هذا هو السبب الذي جعلك تكتم الخبر عنهم، لعل هذا هو السبب الذي جعلك تترك جلستهم فوق السطح رويداً رويداً كما تركها صديقك أيضاً لظروف عمله المرهق. هناك سبب الآن ليجعل علاقتك بصديق طفولتك أقوى فأقوى، ولكن ظلَّ هناك السر العالق في حلق صداقتكما كتفاحة آدم. في كل مرة كان يسألك: هل ما زلت تصلي في ذلك المسجد؟ وهو يعلم أنك لن تجيبه كأنه يدفعك بعيداً عنه أكثر وأكثر. وكأنه يتعمَّد ذلك، وحتى عندما عرف من الآخرين لم يتصل بك ليلومك؛ لأنك لم تخبره، لم يستوقفك في الشارع ليهنئك ساخراً. اختفى من حياتك ببساطة، هل سافر ثم عاد، هل أدخلوه سجن أحد إمارات دولة خليجية كما أشيع عنه؛ لأنه بصق في وجه أحد مواطنيها ثم عاد مرة أخرى مناولاً للبضائع أو عاملاً في الميناء؟

لم تسأل نفسك طيلة السنوات الخمس السؤال الذي تسأله لنفسك الآن وأنت تموت: أين هو الآن؟ الآن!! تنقِّب عنه في كتاب الموتى لا في كتاب الأحياء، لا ورقة واحدة تخصُّه هناك، لا تعلم عن وظيفته التي يأكل منها ولا عدد أولاده الذين يعولهم ولا حتى نهاية شجاراته المستمرة مع أبيه، تلمع في تلك السماء المظلمة بضع مصادفات للقاءات عابرة في الشارع الذي يجمع بيتكما فتصافحه، لكنك لا تتبادل معه أخبار الحياة ولا أوجاعها، قبل أن يسافر وبعد أن عاد، فقط ابتسامات مبتسرة تتبادلانها بينما تهتز أيديكما في مصافحة آلية، لا كلمة ود واحدة عدا كلمات الترحيب المحنطة التي لا تؤلم، يده في يدك باردة ويدك في يده باردة وكأنكما اتفقتما على تلافي اللمس الدافئ في الكلمات وفي الأيدي. تتساقط من أفواهكما الكلمات، لا تتجاوز نصف المسافة بينكما، كتلك القطع الفلينية التي كنتما تحشوان بها

فوهات مسدساتكما وأنتما أطفال وتُربط بخيط حتى لا تضيع، تسقط بعد انطلاقة واهنة فتسحبانها وتعيدان حشوها وإطلاقها، تمارسان فعل الفرقعة الفمية دون رصيد حقيقي، أكلشيهات كلامية (حالك؟ تمام.. الحمد لله.. أرجو أن تكون بخير)، تضعان بعض مجروش الثلج فقط فوق جثة صداقاتكما المشتركة ثم تفترقان.

لعله أحد آثامك التي استحققت عنها موتك المبكر هذا، موتك البطيء، هل تموت كل الأشياء بنفس ذلك البطء الذي لا يبصره أحد ولا ينتبه له، وكأنها دقائق في أزمنتهم وسنوات في زمنك الخاص، غريب أمر تلك العلاقات البشرية التي مارستها، كم كانت تشبه الحياة التي عشتها، تبدأ بسرعة البرق وتعيش عافيتها القصيرة كعمر الزهور وتنتهي في سكرات للموت أطول من مجموع زمن بدايتها وعافيتها، تعرف ذلك الآن وأنت موشك على الموت حقيقة، كيف يصبح تألم الطرف المقابل من أي بادرة طيبة أو أي لفتة دافئة منك أمراً طبيعياً، كذا الموتى الموشكون على الموت في بدء انتمائهم للعالم الآخر، يتألمون من دفء أصابع الأحياء حين تلمسهم، تصبح لمسات الود والشفقة موجعة، يصبح حتى تذكُّر الأماكن التي مروا بها موجعاً.

تفتح عينيك الآن فترى الشيخ وهو يدور بين الباب والسرير الذي يحتوي جسدك، ربما ينتظر أن تغمض عينيك الإغماضة الأخيرة لينصرف، تودّ ألا تفتحهما لينصرف، تنزلق في متاهات الألم المظلمة، تشهق صحواً فتراه وينتبه إليك، يسألك:

- سين.. كيف أنت؟ بماذا تشعر؟

ما أجمل موت الأشجار الذي لا ينتبه له أحد، مات سليمان النبي بتلك الطريقة..واقفاً، وتتمنّى لنفسك الآن موتاً مشابهاً.

***

جزء من حكاية ميم

ميـــم:

اعتاد أبي أن يقول لي دائماً: لا تفتح عينيك عندما تستيقظ، إذا عجزت عن تخمين المكان الذي أنت نائم فيه فاعلم أن الشيخوخة قد أدركتك، مات أبي قبل أن يخبرني -أو أخبره- أن ليست كل الأماكن متشابهة، توجد أماكن تستيقظ فيها فتجد ذاكرتك قد هربت منك إلى أماكن أخرى لا تستطيع أن تهرب منها حتى لو غادرتها بجسدك، تستيقظ في أي مكان آخر فتظنُّ نفسك فيها، هذه الأماكن التي حاولت الهروب منها بروحك وذاكرتك وحواسك عندما كنت فيها فلما خرجت منها بجسدك اقتنصت روحك فظللت طيلة حياتك تستيقظ فيها، لم يكن للزنزانة التي وضعوني فيها رقم أو اسم، لكن العساكر فيما بينهم -ببعض سخرية أحياناً وهم يقولونها- كانوا يسمونها "زنزانة المؤهلات العليا"!

للوهلة الأولى عندما استيقظت ظننت نفسي راقداً على سريري، كحصاة داخل حذائي أقلقتني برودة الجو حولي حيث أنام، لم أكن معتاداً أن أنام على سريري في غرفتي الصيفية في برد الشتاء، تصبح حينها مخزناً لأشياء عُرس أختي الكبرى، أنام على كنبة الصالة بينما يحتلُّ مكاني القديم مصنوعات الخزف والزجاج وسجاجيد ونجف وطفايات سجائر ملونة من البلاستيك ومكانس من سعف النخيل والقش، اشترتها أمي على مراحل اختلاسات غفلة من مارد الفقر الحبيس في قمقم بيتنا، حتى قبل أن يأتي خاطب لأختي!، وبعد أن ينْسا من مجيء أحد، كل شهر تقريباً تضيفان شيئاً جديداً وتكشفان عن الأشياء القديمة خشية التلف ثم تعيدان ترتيبها وتغطيتها وتطعيمها بكرات النفتالين نفاذة الرائحة، وتضعان الزجاج

والخزف في كراتين مكممة الأفواه بالبلاستر؛ خوفاً عليها من التهشُّم، وتسردان أثناء ذلك أحلام البيت المُتخيَّل المشتهى، ورغم ذلك الغطاء والحبس لا تتوقف عن إفراز رائحتها الخاصة، خليط رائحة لا مثيل له ولا اسم له سوى الفرحة، لدرجة أنني لا أعرف هل توقفت هذه الأشياء عن إفراز رائحتها بسبب قِدمها أم بسبب حزن أختي العانس.

أمارس الآن اللعبة التي نصحني بها أبي، أقاوم الشيخوخة فأنا ما زلت شاباً في الثانية والعشرين من عمره، بالتأكيد لست الآن في غرفتي الصيفية رغم أن تلك الرائحة تعطيني طعم بيتي الذي تربَّيت فيه، عشت ما يكفي في هذا العالم لأعرف أن الروائح تدلُّ على الأشياء أكثر من الأصوات والرؤى، الروائح قارئة فنجان موهوبة، تستطيع أن تخبرك بالماضي الذي لم تفهمه والحاضر والمستقبل اللذين لم يأتيا بعد؛ إنها لغة الأشياء عندما يتوقف البشر عن إزعاجها بالحركة بينها، حديثها الصامت إليهم، نزيف احتكاكها بحزنهم وفرحهم، علامات طريقي الشائك، تتحفَّز عضلاتي بسبب الرائحة، مطهِّر للجروح وقطن طبي معقم، رائحة دماء، لا يخطئ أنفي ذلك الخليط الكابوسي أبدأ منذ أن غلبني النوم على الكرسي الفوتيل بجانب سرير أبي المريض في غرفته فأيقظتني وساوس تلك الرائحة وصوت حشرجة قصيرة شبيهة بحشرجته، والدماء تغالب فمه لتخرج من مريئه.

ولكني الآن لست في غرفتي ولا في غرفة أبي، أين أنا إن لم أكن في أي من المكانين؟ أي مفاجأة تخبئها لي تلك الرائحة مرة أخرى، تتضح لي الحقيقة ببطء مثل نهاية طريق مقطوع، أنا في زنزانة المؤهلات العليا، ومنذ أتوا بذلك السجين الغريب معنا؛ لوجود طبيب بيننا يستطيع معالجته لم أعد أستطيع النوم دون قلق؛ بسبب رائحة النزيف المنبعثة من جروحه.

مثل سُمّ سريع الانتشار -دون أن أفتح عينيَّ- ينتشر بداخلي واقع الأشياء من حولي وتكتسب صلابتها أولا بأول، أكثر من خمسة عشر سجيناً يفترشون

الأرض ببطاطين، نائمين، أو يتناومون -رغم الضجة الصادرة من الممرّ وغرف التحقيق ونداءات العساكر وهرولتهم ودقاتهم على أبواب الزنازين بعصيّهم- لو كنا كائنات من دم بارد في بياتها الشتوي لاستيقظنا بسببها من سباتنا، دورة مياه ميدانية خلف ستار معلق على حبل. ستار ثابت ليس لركود الهواء بل بثقل القذارة التي يحملها، أول ما أتوا بنا تبادلنا بدايات أسماننا أو كنياتنا ثم نسيناها، صار النداء القليل بيننا مفعماً بلفظ واحد: "أخ"، ليست أخوة سُنة بقدر ما هي أخوة الجدران المشتركة.

بعد أن قبضوا على جاءوا للطبيب السجين معنا بصندوق الإسعافات الأولية وبعض الأدوية التي طلبها، وجمعنا ثمنها بما تبقّى من مال معنا، مع الوقت صار سجناء إضافيون يأتون إلينا فيقضون معنا أجزاء من اليوم لعلاج جروحهم ثم يغادرون، لم يكن الأمر يتعدى كدمات في الوجه وجروحاً لا تتعدى ثلاثة غرز خياطة وتسلُّخات بشتى أجزاء الجسم، ولكن كبداية كان الأمر مفزعاً، كان واضحاً أنهم يستعملون حتى الضباط الجدد في الاستجواب لضيق الوقت وخطورة الحدث وضغط العاصمة عليهم، ذات يوم جاءوا بأحد المساجين مطعوناً بشيء حاد أسفل إبطه، قال لي الطبيب إنهم يتعمَّدون الطعن في تلك المواضع بالذات لإذلال السجين، مكان يرتاده القيح والتورم مثل زائر معتاد ويتسبب في ضعف وألم مستمرين..

كيف أمسكوني؟ منذ اليوم الأول لتفجير الكنيسة المجاورة للمسجد الذي كنت أذهب للاستعارة من مكتبته حذرني زملائي في السكن: أهرب، أختبئ هذا الشهر في قريتك البعيدة ولا تعود حتى يجدوا الجاني أو يهدأوا، لم أكن في السكن معهم وقت حدوث التفجير وحتى لو كنت معهم فلن يكون لشهادتهم معنى، سمعت الانفجار بينما كنت واقفاً وحدي على الشاطئ، كان البحر ساكناً كما لم أره من قبل، تنفَّس الماء عشرات الفقاقيع وكأنه يئنُّ أو يزفر، تحوَّل لونه في ذلك الجزء الذي احتشد بالفقاقيع إلى لون أخضر

كالطحالب، بينما ظلّ بقية لون السطح كله يميل لزرقة غير مكترثة، مضيت ألتقط الأخبار من الشوارع البعيدة ومحطات الترام، عندما عدت إلى السكن هتفوا بي مندهشين: ما زلت هنا.. ظننناك عُدت إلى البلد، سخرت من مخاوفهم على كما سخرت من مخاوف ابنة خالي في طفولتي عندما صاحت بي أن أجري لأن الكلب مسعور، الكلب الذي عقرني لأني آمنت بمقولة أن الكلب الذي ينبح لا يعض، عقر الكلب ساقي في صخب من نباح لاهث، لكم أفسدت القناعات التي اكتسبتها من قراءة الكتب عقلي، أفسدت حتى تلقائية الفزع..

فجأة اكتسبت شكوك زملائي في السكن واقعية قاسية مثل عصفور ظلّ يطير في فضاء سجن زجاجي حتى قرر أن يتجاوزه فاصطدم بجدرانه، لكن ما خفف عني أنه كان عاجلاً أو آجلاً سيمسكون بي، كأحد الطلبة المغتربين كان يجب أن تُبلغ عني شرطة الجامعة، عندما عرفت أنهم أبلغوا عني قضيت ثلاثة أيام لا أعود إلى السكن إلا بعد الواحدة ليلاً، أتجول في الشوارع الكبيرة والكورنيش وأجلس في أماكن انتظار الترام وتحت التماثيل التذكارية، كنت أمارس حق الطريدة في الهروب عند مفاجأة القوة الغاشمة، أمسكوني وأنا في الشارع، هبط اثنان بملابس مدنية من عربة مغطاة وطحناني بين أكتافهما مثل فكي رحى تطحن حبة قمح واحدة تبقّت من حفل طحين حافل، عبثاً حاولت أن أُخرج لهما بطاقتي الشخصية كردّ فعل ساذج، ولكن أحدهما أمسك كفي قبل أن أدسَّها في جيب بنطالي.

كنت أصغر مَن في الزنزانة، استجوبوني خمس مرات قبل أن يكتشفوا أنه لا علاقة لي بالأمر، حكيت لهم عن كل شيء في حياتي من الألف إلى الياء حتى الأمور المخزية والأحداث التي أودُّ أن لا أتذكَّرها، موت أبي منذ سنة، ترمُّل أمي وعنوسة أختي التي لم تتزوَّج رغم تعديها سنَّ الثلاثين، كل شيء عدا أنني كنت أذهب إلى تلك المكتبة، لا بد أنهم لم يعثروا على اسمي في سجلات

الاستعارة. أما الكتب التي عثروا عليها في السكن فكانت كافية لتبرئتي، بعد القبض عليَّ في الشارع اصطحبوني إلى السكن، ظلَّ الضابط يقلب في صفحات الكتب بذهول وكأنه عثر على مسلة للفراعنة على سطح القمر، روايات لنجيب محفوظ وماركيز وقصص ليوسف إدريس وتشيكوف، ولكنهم لم يطلقوا سراحي على الفور، استبقوني كما استبقوا الطبيب، فقط لأساعده في التطبيب، ولكن عندما جاءوا بذلك السجين النازف وتركوه معنا لم أعد أنام.

وكأنني أوشكت على الشفاء فأشكو؛ منذ مات أبي توقفت عن غفلة النوم، الضياع الكلي المخزي لحواسي بحيث تسقط منها مفردات بيئتها المحيطة، أسدل جفني عينيَّ فتحبس رؤيتي بينما حواسي الأخرى تعمل ببطء خلفهما مثل خشبة مسرح أنهى فقراته فخرج عماله يكنسون ويعيدون ترتيب الأشياء، في كل ليلة رغم مرور سنة كاملة أتذكر كيف بدأ الأمر.

كان يوماً مثل كل الأيام، نفس ميعاد عودته من العمل، غلبه قيء الدم فجأة أثناء صعوده على السلم، لم تزل نبرة صوته لا تفارق أذني مهما استعدتها في لحظات خلواتي، نبرة فزع ومفاجأة كأنه تعثر في الظلام بثعبان أو جثة قطة، بعثرنا الصوت ناحيته فوجدناه جاثياً على ركبتيه ينظر إلى الدم الذي أغرق صدر قميصه وملأ كفيه، كأن هذا الدم لا يخصه، أو كأنه ارتكب جرماً هائلاً وضُبِط متورطاً به، تساند على كتفي وكتف أختي لينهض ويصعد السلالم المتبقية، ولما لم ينقطع إفراز الدم من فمه أخذناه إلى طبيب..

كانت الليلة الثالثة، تناوبنا السهر عليه خوفاً من أن يعاوده القيء ويغلبه فيمنعه الإعياء من أن يستنجد بنا، بدأت نوبتي في الساعة الثانية بعد نوبة أمي، كان مستيقظاً في البداية فظلَّ يُحدِّثني عن خوفه من أن نُدان بسبب مرضه ثم يموت قبل أن يسدد تلك الديون، كنت متعباً وممتلئاً بالهواجس

مثله، هواجس تثقلني، تثقل أعضائي وذاكرتي ولساني، لم أطمئنه، ولا أتذكر هل نام فنمت جالساً بعده مباشرة أم نمتُ وهو يتحدَّث إليَّ؟، كان أبي وأمي يشكوان من كثرة نومي، يخبرني أبي متضاحكاً أنه لا ينام بتلك الكثرة إلا خالي القلب من الهموم، ثم يعود ليقول وكأنه يهمس لنفسه: نم نم واشبع نوماً، فأنت لا تدري ما يخبئه لك الغد، أما أمي فتعالج الأمر في صمت كل يوم بطريقتها: ترسل أختي إلى غرفتي لتفتح الشباك ليصفع ضوء الشمس عينيَّ وتصرخ في أذني كما يصرخ صارفو الجن في آذان المسوسين بالأشياء التي تريدني أن أقوم بها من أجلها، تصرخ حتى يسمعها الجيران: أمك تريد منك أن تنزل وتشتري كيلو طماطم ونصف كيلو فلفل رومي وعلبة كبريت وزجاجة فليت.....

لم أخبرهم يوماً عن سِرّ نومي الكثير: في طفولتي كانت الأمور تحل نفسها بمجرد أن أستسلم للنوم، وفي شبابي أعطتني الأحلام أكثر مما يمكن أن يعطيه لي الواقع، توتر أمي وقلق أبي وبكاء أختي، كانوا يدفعونني للنوم باطراد ووسوسة، كان المفعول الملطف للنوم يشبه مفعول غرفة التحميض للصور الفوتوغرافية، الغرفة المظلمة، ولكن هذه المرة استيقظت فوجدت نفسي أمام أكبر مشكلة في حياتي. عندما أيقظني صوت الحشرجة التي أفلتت منه كان الأوان قد فات، مات أبي في نوبة حراستي له.

تحقَّقت نبوءة أبي، أرملة وعانس بينما ذهبت كل أحلام واقعي أدراج الرياح. أما أحلامي الحقيقية فتوقفت عنها اضطرارياً، مات تاركاً لي ذاكرة مثقلة ومعاشاً حكومياً يذوب بين يدي كما تذوب قطعة الثلج في يوم شديد الحرارة، صارت الجنيهات القليلة طوق النجاة للحياة التي ترك لي أبي موؤنه إتمامها، تغزو السِمنة جسد أمي فتصير جزءاً من ديكور البيت الحزين، وتجف أختي العانس كأنها وهبت كل سوائل جسدها لأمي، مركبتان على دائرة حياتية واحدة ودورة غذائية مشتركة ومزاج واحد، تبكي أمي في

الصالة دون دموع فتنهمر الدموع من عيني أختي في غرفتها دون صوت، تتعثر أختي في طرف السجادة المهترئة فتشهق لها أمي الجالسة في الظلام، أما أنا فصرت خارج مدارهما بصورة تُشعرني بالحرج، كنت مستعداً أن أدفع نصف سنوات عمري لتخرج أشياء الغرفة الصيفية من محبسها فتعود لتفرز روائحها من جديد، أيام الفرحة متشابهة أما أيام الحزن فلا يأتي يوم إلا مختلف عن سابقيه..

***

سـيـن:

من قال إن الأيام تمر متشابهة؟ كل قارئي حكمة اليوم في أوراق النتيجة الورقية وصفحات الأجندات، وكل قارئي "حظك اليوم" وتوقعات النجوم في الجرائد يلتمسون خطأ تلك المقولة دون أن يصلوا للطريقة الصحيحة لإدراك ذلك، وهي أن تكون ساكناً بالدرجة الكافية لتلاحظ حركة الأيام، أما أنت فمنذ اليوم الأول لك في عمل المكتبة لم يكن هناك أحد في العالم أكثر سكوناً منك لتلاحظ، من فوق المكتب الذي جلست عليه كنت تتأمَّل كيف أن لكل يوم ضوءه المميز وأشخاصه وروائحه.

تستقبلك الساعات الأولى من يوم السبت على الرصيف الذي يقع عنده المسجد، وكأن المكان يتنفس تجشؤ يوم الجمعة المتخم بالناس والحركة الزائدة، بقايا أوراق مكرمشة وملقاة على الأرض والرصيف ملتصق بها قطعة من شريط لاصق (سلوتب)، إعلانات عن بضائع ومحال تُفتتح وعيادات أطباء كانت معلقة على الحوائط فانتُزعت ووُزِّعت على المصلين في خروجهم فرُميت، قشور بذور عباد الشمس ونوى بلح والقشرة السميكة الحمراء من الداخل للتين الشوكي، رائحة بخور ما زالت تختزنها الحوائط وفضاء الأرفف حتى تنشط الحركة بين الأرفف وعلى السلالم فتضيع، الضوء في يوم السبت يأتي من النوافذ الصغيرة العالية العديدة ساذجاً، وكأن العالم لم يُخلق إلا في يوم السبت، يبدو الضوء واثقاً من قدرته على إضاءة حتى الأماكن المظلمة بين الأرفف الذي تّضاء لها اللمبات الفلورسنت باستمرار في الأيام الأخرى من الأسبوع، أشخاص يوم السبت قليلو العدد وغرباء، أولئك الذين لم ترهم من قبل، لا يلحُّ في السؤال عن الشيخ سواهم، تقول في نفسك إنهم أتوا من أماكن بعيدة، يحملون تراب السفر

على وجوههم وإلحاح وجودهم النابض بين الأرفف كشريان مقطوع، يتأكدون منك مرة تلو الأخرى "متأكد؟! ليس موجودا؟؟ هل جاء وانصرف؟؟ هل يمكن أن يعود مرة أخرى؟؟" ومن ثم يدخلون بين رفوف الكتب ليس بغرض القراءة، يتحسسون كعوبها في لا رغبة ثم يسحبون أحدها، يؤرجحونه في أيديهم كأنهم يزنون مدى ثقله، يفتحون الكتاب من المنتصف ويتحسسون بأصابعهم الصفحة المفتوحة كأنهم يمسحون التراب من عليها أو كأن الحروف مكتوبة بطريقة برايل للعميان، بينما يختلسون النظر إليك من وقت لآخر، يملون من الانتظار فيأتون ليسألوك مرة أخرى، تنظر في أعينهم وتبتسم ولا ترد فتسري عدوى الابتسامه إليهم ولكنها معجونة بالقلق، عرفت فيما بعد أنهم يأتون لطلب قروض مادية لمساعدتهم في الزواج أو علاج أحد أفراد عائلاتهم، يكون الشيخ هو همزة الوصل بينهم وبين بعض الأغنياء الذين يأتمنونه على صدقاتهم لإخراجها، ينزلون بعد تكرار السؤال في باحة المسجد ليناموا؛ لتمرير الوقت ثم يعودون للسؤال، لا ينصرفون حتى يلتقوا بالشيخ، ينصرفون بوجوه متهللة، في الغالب لا يردُ هذا القرض، مع الشيخ دائماً مبلغ كبير من المال، ليس ملكه، إنها صدقات الموسرين التي يرسلونها له شهرياً، لا يعطيها سوى لطلبة العلم الفقراء.

يبدو يوم الأحد وكأنه اقتطع لنفسه جزءاً من الليل، يبدأ مبكراً عن أي يوم آخر، أو هكذا يبدو من شواهده، سيارات أكثر من المألوف على الرصيف المجاور للمسجد، رائحة عطور نسائية ورجالية في الهواء تشيع وتأتي من اللامكان، وبين أرفف المكتبة تتحرك بثقل رائحة بارافينية لشمع محترق، لقة الضوء بنفسه تهتز فتُضاء اللمبات الكهربائية منذ اللحظة الأولى، يتأخر فتى الكانتين في إحضار الإفطار، ساندوتشات فول وفلافل من محل قريب يستغرق الوصول إليه والعودة في كل مرة نصف ساعة، لسبب لا تعلمه لزيد نصف الساعة في يوم الأحد فقط إلى ساعة كاملة، عندما تسأله دون

أن تذكر له ملاحظة تحديد اليوم "لماذا تأخرت؟" فيجبك بخبث: "أتفرج على عصافير الكناريا في محل قريب"، فتعود لتسأله: "وهل صاحب المحل لا يفتح المحل إلا في يوم الأحد؟!"، يهرش في رأسه مبتسماً:

لا.. يفتح كل يوم لكن لا تأتيه الكناريا إلا في يوم الأحد.

في يوم الأحد كان يأتيك حلم غريب بعد الظهيرة، ربما بفعل الهضم السيئ للإفطار المتأخر، حلم واحد لا يتغيَّر، تنام جالساً على المكتب مسنداً جبهتك على مخدة قطنية صغيرة تضعها في كيس تحت قدمك، وفي الدقائق التي تنامها تحلم بذلك الحلم.

يوم الإثنين ويوم الخميس هما يوما درس الشيخ، ولكن لا يتوتر الشيخ إلا في يوم الإثنين فقط، يرسلك عبر الأرفف عدة مرات لتأتي له بالكتب التي يحتاجها في تحضير الدرس، بعد العصر يبدأ في الخروج بنفسه والتجوُّل عبر المكتبة وإحضار الكتب كأنه لا يريد أن يضيع الوقت في استدعائك، لا يذهب إلى قيلولته المعتادة عند الظهيرة ويرفض دخول الطلبة عليه، ويدق الجرس كثيراً لفتى الكانتين الذي يأتي بصينيته عليها الشراب المطلوب حسب عدد دقات الجرس تبعاً لشفرة متفق عليها بينه وبين الشيخ، دقة واحدة ليمونادة، دقتان ينسون، ثلاث دقات شاي، لا يرفض الشيخ ما في الصينية عندما تفوت إحدى دقات الجرس على فتى الكانتين ولكنه لا يشربه، يرسله إليك لتشربه بدلاً منه، يضع مصطفى فتى الكانتين الكوب الخاطئ أمامك معتذراً ويضيف دقة واحدة إلى عدد الدقات التي سمعها، ويعود بالطلب الصحيح بعد لحظات، ولكنه لا ينزل مباشرة بعدها بل يأتي للجلوس معك، يحكي لك عن عائلته وفقره وبلوغه سنَّ الثلاثين دون زواج، يحكي لك عن دورة صيانة المحمول التي يرغب في الالتحاق بها، والآمال التي يُعلِّقها على ذلك، أخبرك أنه في شهر رمضان لا يأتي إلا بعد صلاة العشاء ويسهر حتى الفجر ويأخذ أجراً مضاعفاً من الشيخ؛ لأنه يريده متيقظاً طوال

الليل وخاصة في الأيام العشر الأواخر عندما يأتي المعتكفون، أخبرك أنه يعمل بالنهار في شهر رمضان دون علم الشيخ مع سائق ميكروباص، تبَّاع يجمع الأجرة من الزبائن، يخرج من شهر رمضان بخميرة جيدة، ولكنها تذوب مع الأيام وغلاء الأسعار، يخشى أن يراه الشيخ وهو يعمل في نهار رمضان فيطرده.

- لا يعرف هذا السر إلا أنت يا أستاذ.

كان يخاطبك بأستاذ ولسبب ما كان يثق بك، ربما لأنك كنت الوحيد المتاح له، ذات مرة في يوم إثنين اعترف لك بسرِ تأخُره، في الناحية الأخرى من الشارع الخلفي كنيسة يتلكأ على الرصيف ليتفرج على الفتيات المسيحيات.

- هذه عصافير الكناريا التي تأتي يوم الأحد فقط، أوعي تقول للشيخ أحسن يطردني ويخرب بيتي.

وكنت تسأله:

الشوارع ممتلئة بالبنات يا مصطفى فلماذا بنات يوم الأحد بالذات؟

فيجيبك هازلاً:

- بنات الفرنجة أحلى، لو رأيت لبسهن وطريقتهن في المشي...

- الحرام واحد يا مصطفى في كل حال وهنَّ مصريات مثلنا.

فيقول مسرعاً بإصرار:

لا ليسوا مثلنا.. أعرفهم من بين ألف بنت، عندنا هنا مهرجانات أيضاً يوم الإثنين ويوم الخميس والجمعة، ولكن زبائن الكنيسة أفضل، هنا لا ترى إلا خيمات متحركة، والمشايخ الشباب مثلي ومثلك (كان يسمي جميع طلبة العلم مشايخ) ألا تظن أنهم يختلسون النظر، لا بد أنهم ينظرون طالما أنهم من لحم ودم.

فيما بعد ندم فتى الكانتين على هذا الحديث القصير بينكما، كلما توثقت صلتك بالشيخ كان يخشى أن تبوح له بموضوع البنات المسيحيات، الخوف

كان يبدو في نظرات عينه وابتسامته المهتزة وتعثره في المشي عندما يعود في يوم الأحد متأخراً، فيهمس لك وهو ينطرح على الكرسي زافراً في تعب:

والله والله.. الطريق هذه المرة.. الطريق مليان ناس، أمم... وكنت مغمض عيني وأنا أسير.

ولكنك لا تصدقه. ففيما يبدو أن رؤية مصطفى لبنات الفرنج كانت تقتل شهيته، يزيد نصيبك يوم الأحد والإثنين من ساندوتشات الفول والفلافل، وكأنها رشوة منه، بالرغم من أنك عندما سألته في المرة الأولى عن تلك الزيادة أخبرك بأنه يتبرع لك بنصف نصيبه فقط لأن: الفول والطعمية تتعب بطني، في يوم أحد طمأنت مصطفى بأنه ليس من عاداتك أن تشي بأحد، وأن الشيخ لو طرده لهذا السبب فقط ودون أن يرتكب شيئاً ستترك العمل تضامناً معه، بعد تلك الطمأنة البسيطة عاد نصيبك من الساندوتشات في اليومين إلى حاله الأول.

عندما كنت تدخل بين الأرفف وتشم رائحة الشموع المحترقة في يوم غير يوم الأحد كنت تعرف أن مصطفى آخر يعترف بذنوبه هناك، ويسعى لغفرانها عند الله الذي لا تعرف كيف يعبدونه، وكنت تتساءل: هل الكنيسة قريبة لتلك الدرجة من المسجد.

يوم الثلاثاء كان يوم الأحداث الاستثنائية، يسميه طلبة الجامعات "عفريت الأسبوع"؛ لأنه بمجرد أن يأتي ويمر وكأن الأسبوع كله قد مرَّ، ولكنك كنت تسميه "عفريت الأسبوع" لسبب آخر، دائماً ما كان يحدث شيء غريب في هذا اليوم، الشاب الذي أصيب بالصرع وسقط وهو يزوم عند رف كتب الرقائق، البومة الكبيرة التي دخلت المكتبة عبر الباب وظلّت ترتطم بصفوف الكتب وتسقطها حتى أمسكها الطلبة المتحمسون ودار حوار عن تحنيطها ووضعها على الأرفف فزاعة للفئران، كان يوم الثلاثاء أيضاً عندما أتى مخبر أمن الدولة إلى المكتبة واصطحب معه أحد الطلبة، ولامك الشيخ بشدة

على ذلك. وأيضاً أتى في يوم الثلاثاء ذلك الريفي الذي أوهمه أحد المارة بأن المسجد هو سفارة السعودية. فصعد إلى المكتبة من الباب الخلفي وظلَّ مصراً على تقديم أوراقه لك للحصول على فيزا، حتى علا صوتك فأحاط به الطلبة يحاولون إقناعه بأن هذا مسجد وليس سفارة. فكان يخرج برأسه من دائرة الملتحين الملتفين حوله مستنجداً بك: أنت مصري مثلي احلف لي وسأصدقك. وكنت تقسم له ضاحكاً أن جميع من في المكتبة مصريون. وأن هذا المكان مسجد، ولكنه لا يصدقك بحجة أنك خائف منهم أن يرفدوك. السلحفاة البرية الصغيرة التي أتى بها أحد رواد المكتبة وتركها، كانت في حجم فأر صغير. وتسبَّبت في موجة من الذعر لا تليق بأناس يعيشون في مدينة ساحلية، فيما بعدُ اعتاد الطلبة عليها وكانوا يضعون لها الخسَّ وقطع الخيار والخبز ويدقون على صدفتها لتختبئ عندما تمر بهم. عثروا عليها يوم الثلاثاء وضاعت يوم الخميس بعد سنة كاملة فظننت أنها سُرقت ولكنك عثرت على صدفتها تحت أحد الأرفف البعيدة منقلبة على ظهرها بعد أن فاحت رائحتها، كانت ميتة. الليلة التي قُبض عليك فيها كانت ليلة الثلاثاء أثناء انصرافك من المكتبة من الباب الخلفي للمسجد!

يوم الأربعاء يبدأ صاخباً بشكل مريب وكأنه سيستمر كذلك حتى نهايته. حول المكتب الخاص بك تتكوَّن تلال صغيرة من حقائب السفر التي يأتي بها طلبة الجامعات الذين يدرسون العلم الشرعي بجانب دراساتهم المعتادة. يأتون بكثرة ويدخلون بين الأرفف كأنهم يبحثون عن فرصهم الأخيرة. أكثر يوم على الإطلاق يستعير فيه الطلبة كتباً من المكتبة. بعد الظهيرة يختفي الطلبة ويسود الصمت حتى إنه كان يمكنك أن تسمع صوت حركة السلحفاة البرية الصغيرة واحتكاك صدفتها بالأدوار السفلى من الأرفف وتحديد مكانها بدقة. وكان ذلك الحلم الغريب يأتيك مرة أخرى مثل يوم

الأحد، ويأتيك أيضاً يوم الخميس أثناء درس الشيخ، لو كان شيطاناً من يأتيك لما جاء أثناء درس الشيخ، هكذا اعتدت أن تُطمئن نفسك..

يوم الخميس هو يوم الندم على القرارات التي لم تُتخذ في أوقاتها المناسبة، أيضاً هو وقت تذكُّر الأشياء التي لم تُفعل خلال الأسبوع بشكل مُرضٍ، إن لم يصعد إليك فتى الكانتين في نهاية اليوم ليودِّعك ويخبرك أنه: خلاص سألتحق بعمل آخر، سيترك الكانتين ويفتتح محل صيانة "محاميل"!، تتفقان سوياً على جدول الأسبوع القادم: تنفيض الأرفف من التراب وغسل قطع الموكيت في دورة مياه المسجد ومسح زعانف مراوح السقف من فضلات الذباب بخِرق مبللة بالماء والصابون، في يوم السبت عندما يعود مصطفى دون أن يُحقق تهديداته المضحكة لا يصعد إليك مباشرة لتنفيذ ما اتفقتما عليه يوم الخميس، وربما أرسل إفطارك مع أحد روَّاد المكتبة الصاعدين على السلم، يطيل بذلك الاختباء -كما يظن- من عمر لحظات الاحترام التي اكتسبها من قراره يوم الخميس، درس يوم الخميس يكون مليئاً بالأسئلة والحوارات بين الشيخ وتلاميذه، أثناء استماعك لأصواتهم عبر السماعات المبثوثة في الأركان تتملكك تلك الكآبة غير المفهومة، وتفقد أبعادك في غفواتك القليلة فتظنُّ نفسك عندما تفتح عينيك أن المكتبة تقع في الدور السفلي من المسجد.

ينتهي الدرس يوم الخميس مبكراً عن يوم الإثنين، يصعد الطلبة إليك، تذوب كتلتهم بين أرفف المكتبة، تكون حساساً لكلمات عادية لا تؤثر فيك في أحوالك العادية: حديث الطلبة عن زلزال في سنة ما.. عن غزو العراق.. عن موت أحد.. حتى الأمور الموغلة في التاريخ: الأندلس.. محاكم التفتيش.. سقوط الدولة العباسية، بعد انصراف آخر شخص منهم تُسقط سكينة الكهرباء الأساسية وتتحسَّس طريقك في الظلام حتى تصل إلى الباب، يبدو المكان بعد توقُّف أزيز اللمبات وحركة المراوح مثل كهف، عندما تخرج إلى

الشارع تلمس في لحظة نادرة شعور مصطفى عندما يأتيك كل أسبوع تقريباً ليخبرك: سأترك العمل، تتذكَّر عشاء السمك فوق السطح والحلم الغريب.

***

وكأن الحلم لا يأتيك إلا بعد صلاة الظهر بوقت القيلولة عندما ينصرف الشيخ إلى بيته القريب فلا يعود متبقياً إلا الطلبة الذين يقاومون النوم بين دفتي كتاب غير مسلٍ. الكتاب الذي يصبح النواة السفلى الصلبة لمشروع مخدة في نوم كامل رغم التحذير المكتوب المعلق في خليج بداية الأرفف بعدم النوم في المكتبة، تتركهم: لأن النوم الذي هزمهم يخوض معك معركة ضارية منذ انصراف الشيخ. ثم يتفرغ لك بمجرد أن يهزمهم جميعاً. لا يعود عنك إلا بعد أن يفوز ولو بأقل القليل منك، تلك النومة المرهقة جالساً على الكرسي.

بمجرد أن تغلق عينيك كان يجيء، متى جاء في المرة الأولى؟ ربما يوم الثلاثاء، أو الأحد. كان يجيئك في الحلم ويجلس، ليس مثل حلم، وكأنه أحد روَّاد المكتبة الدائمين، يجلس. ليس قريباً جداً كشحاذي الصدقات ولا بعيداً كزاهد فيلسوف. رغم أنه يشبه كثيراً التمثال الفرعوني الكاتب الجالس القرفصاء بعينيه السمكيتين ووضع ساقيه وانتباهه عنقه بعد أن يفتح دفتراً سميك الجلد لم تنتبه له للوهلة الأولى عندما أتى ويسألك: ماذا أكتب؟؟

كأنه جزء من روح المكان، لا ترى بيده قلماً ولا ريشة طائر مجوفة ولا أمامه دواة حبر. حتى الدفتر الذي يزعم أنه سيكتب فيه ليس قريباً بصورة تسمح له بالكتابة فيه، وكأنه سيكتب فيه بقوة التفكير، ولكن لا تفارقك عيناه وهو ينظر إليك منتظراً إجابة سؤاله: ماذا أكتب؟ عندئذ تدرك أنك تحلم، ومثل حلم تجيبه دون أن تدري كيف عرفت ذلك:

- ينبغي أن تكتب ما أحلم به؟

أعرف ذلك.. ومنذ جئت وأنا أنتظرك وما زلت أنتظرك، لتحلم إذن.

- ولكني لا أستطيع أن أحلم ما دمت تنتظر: فالانتظار جزء كبير من طبيعية الحقيبة وأنت تلوِّث حلمي بانتظارك هذا..

- إذن؟؟

- ألا يمكنك أن تكتب أنت أولاً فأحلم بما تكتبه؟!

- لا..

ينتظر، تنتظر، تحاول أن تتناسى وجوده ولكنه يعود بصوته الشبيه بقرع جرس معدني قديم صدئ فيسألك:

- هل الحلم صعب لهذه الدرجة؟

- فقط في وجودك.

- تستطيع أن تستدعي أحد أحلامك القديمة فتحلم بها لينتهي الأمر!

لا تريد أن تخبره أنك فكرت في ذلك بالفعل وفشلت، تتبيَّن موقعك منه، جالسان بوجهين متقابلين، جالس أنت على مقعدك في المكتبة وهو في المكان الذي يجب أن يكون فيه الكرسي المقابل بينما أرفف المكتبة تسبح في الضباب ولا أحد، ترى حتى جزءاً من صفحة الدفتر الخاص به، ليس دفتر حلم كما تخيلته، لا فراشات ضوء أو لون تتفلت من حدوده ولا أفواه كوابيس كئيبة، يشبه أكثر دفتر بقال صارف للسلع التموينية، تسأله:

- ألست جزءاً من حلمي؟

كلا.. أنا أكتب أحلامك.. لم تبدأ أحلامك بعدُ.

لماذا تكتب أحلامي بدلاً من أن تكتب شيئاً أهم.. على سبيل المثال تكتب خطاياي؟

- لم أجئ لأكتب ذنوبك، ولكن على أية حال: الأحلام أشد خطراً من الذنوب.

يمكنك أن تساعدني إذن لننهي موقفنا السخيف هذا، بماذا يحلم الآخرون على أي حال؟!

لا أعرف.

ربما يحلمون بحياة أفضل وأن يعمَّهم العدل، يحلمون بالضوء والشبع والنظافة، يحلمون بالموج والنساء الجميلات.

- هل كنت أحلم من قبل؟
- مؤكد (يقلب صفحات الدفتر) في طفولتك وشبابك، صفحات ممتلئة منها.
- لا أتذكر، هل تحقق أيٌّ منها؟
- ربما..

يمكنني أن أصرفك الآن بأن أفتح عينيَّ وأستيقظ...أنت مِلك ذهني. (تهدده!)

- لن أنصرف إلا بعد أن تنام وتبدأ في الحلم (يجيبك بثقة دون أن يبتسم).

تفتح عينيك بالفعل، ترى المكتبة دون ضباب وضوء النهار الموغل في وحشيته فوق الأرفف، ترى مخدتك التي تضع عليها رأسك وتنام جالساً وقت القيلولة، مخدتك الصغيرة المبللة بالعرق وبقع اللعاب، تسمع صخب المصلين بالأسفل وصيحات الصاعدين والهابطين، وتدرك، بقلب يعتصره اليأس البارد، أنه عندما تعود فتغلق عينيك ستراه، ستظل تراه، ينتظرك عبثاً أن تنام فتحلم ويكتب أحلامك. منذ أن توقفت عن أحلام الليل بدأ يأتيك في كل ساعات نومك النهارية، تعود مرهقاً كل مساء وتنام كقطعة صخر تغوص في الماء حتى ترتطم بالصباح دون حلم واحد تتذكره، بمجرد أن تغلق عينيك مرة أخرى وتشرع في النوم يأتيك: يجلس، ليس قريباً جداً ولا بعيداً، ويسألك: ماذا أكتب؟ فتغمغم بينك وبين نفسك: أنت في حلم فلا تأبه به، ولكنه يظلُّ ينظر إليك..

***

ميـــم:

وكأنني في حلم، أول خاطر جاءني وهم يُدخلون جسد أبي الملفوف في كفن أبيض من فتحة القبر الضيقة أنه لو كان لي أخ أكبر لصارت الأمور أكثر واقعية، ربما كنت بكيت في العلن أمام الناس من شدة الحزن، أو صرخت كما صرخت أمي وأختي حتى بُحَّ صوتهما، لم أدَّعِ الشجاعة أو التماسك التي تُحتِّمها عليَّ رجولتي بقدر ما تجلطت مشاعري بسبب المباغتة والحيرة، في طابور المعزين وقف إلى جانبي أشخاص مستعارون كأقرباء لا تجمعني بهم إلا علاقة الدم، متصنعين الحزن كأحسن ما يكون، لكن الفارق بين حزني وحزنهم هو تهدل الأكتاف، إنه ذلك الثقل غير المرئي الذي لا يستطيع أن يقلده الحزاني المستعارون.

تركني دون مقدمات عندما احتجت إليه -مثل سراب عندما تسعى خلفه وتقترب منه- ذلك الأخ الوهمي الذي لم يفارقني أبداً في طفولتي الخالية من المشاركة، لم يأتِ في تلك الليلة لأتبادل معه الحديث أو أغضب منه كما كان يحلو لي دائماً أن أفعل، عجزت عن استدعائه مثل جنّي فُقد مصباحه السحري، ولا حتى في كل الليالي التالية، لو ظلَّ معي ربما كنت سأصبح أكثر شجاعة عندما طلبت مني أمي ذات يوم أن أبيت في غرفة نوم أبي، فمنذ مات لم أنم نوماً كاملاً، لا في غرفتي الصيفية ولا على كنبة الصالة عندما أتى الشتاء الأول بعد موت أبي، كم كان بارداً ذلك الشتاء، قالت لي أمي ذات ليلة من لياليه الأولى وأنا أهيئ غطائي على كنبة الصالة: بدلاً من نومتك هنا في البرد نم في سرير أبيك، ولكني لم أكن أكثر شجاعة منها، منذ موت أبي لم تنم هناك وصارت نومتها المؤقتة بجانب أختي نومة دائمة، عانس وأرملة، تتحاضنان مثل صورة برج الجوزاء بينما عششت خيوط الحزن في فضاء الغرفة الباردة فصارت أقرب إلى القبر.

تسحبت إلى هناك سراً في ليلة تالية. بمجرد أن دخلت لسعتني البرودة: لماذا تكون الغرف المعبأة بالذكريات أشد برودة أو أكثر دفئاً من الحقيقة؟. أهو دفء القلب وبرودته؟. جلست على كرسي الفوتيل الذي نقلناه من غرفة الاستقبال خصيصاً ليستريح عليه أبي عندما يعود يومياً من عمله. يجلس فيخلع جواربه المتسخة ويأخذ في فرقعة أصابع قدميه واحداً تلو الآخر قائلاً إن هذا يريحه بعد وقفة اليوم الطويلة في عمله. لم أرث عن أبي سوى جبهته وأصابع طويلة لقدمين. ولكنها لا تطقطق مهما جذبتها. غلبني النوم وكأن روح أبي المشفقة داعبت عينيَّ وهدهدت روحي. صحوت فزعاً بوساوس الرائحة. كنت أمتلك دقة أنف امرأة في شهور الحمل الأولى تجاه الروائح. بعد أن مات أبي اكتسبت -غصباً- حساسيتها ووهمها.

استيقظت. ليس في غرفة أبي. بل في زنزانة المؤهلات العليا. رأيت عينيه وبيننا مسافة أكثر من نصف الزنزانة. هذا السجين الذي أتوا به إلينا لا ينام. أقسم على ذلك. لم ينم طيلة الليلة الفائتة رغم انقطاع النزيف من جروحه. يغمض عينيه كأنه نائم. ولكن أقل حركة بالزنزانة تجعله يفتحهما مرة أخرى وبسرعة كالمتأهب -وحتى دون حركة أحياناً- يفتح عينيه ويدور بهما في الوجوه كأنه يمسحها. مثل ضوء فنار يوزّع ضوءه على سفن تائهة. لا ينام. لا ينتبه لذلك إلا من يعاني من الأرق مثلي. يعود فيغلق عينيه ولكنه لا ينام.

***

كنت أستطيع الحصول على ورقة وقلم كامتياز لمساعد الطبيب. عندما سألني الطبيب عن سبب حاجتي للقلم والورقة لم أعرف كيف أجيبه. كانوا قد تركوا معه كراسة صغيرة وقلماً ليكتب فيها أصناف المضادات الحيوية والأدوية التي يحتاجها. لما طلبتهما منه سألني: ماذا ستكتب؟

في كل مكان أذهب إليه مهما كانت الظروف المحيطة بي كنت أبحث دائماً عن شيء اقرؤه وورقة وقلم لأكتب، بغضّ النظر عن فتور رغبتي في الكتابة الآن، وكيف لا تفتر عندما تعجز عن أداء واجبها، لغة متعثرة وقلم تراوغني الأفكار من تحته كأنَّ سنه مرتكز على بلية دوَّارة، أن تكتب، تبدو الحروف على الصفحة البيضاء مثل رؤوس إبر صغيرة تفجِّر كرات الماء المنضغطة أسفل جلدي المتبقية من حرائق نفسي، لماذا يأتي المعتقلون بكل هذه الجروح في الوجه والظهر، أكتب بإصبعي على الأرض، أنا حزين أنا مرهق أنا متعب أنا محبط، الكلمات البدائية مثل رسم الأطفال، بسيطة ولكنها معبرة، تعالج الأعراض الظاهرية، عندما يأتي القلم والورقة يجب أن تتوقَّف الطرق البدائية في الكتابة خاصة إذا استطعت الحصول عليهما في زنزانة يعلمون حراسها أن أول بديهيات المنع فيها الورقة والقلم، تحاول العثور على كلمات لم يهتدِ إليها البشر بعدُ في لغاتهم للتعبير عن آلام توجد في عمق لم يتألم منه البشر من قبل، ربما لأنهم لم يكونوا قد استحدثوا طرقاً للوصول إليها في طعناتهم، طوبى للصامتين، كل هؤلاء الصامتين حولك سيدخون الجنة دون أن تنقص أجورهم الشكوى والبوح، تظلُّ الجنة هي الجائزة النهائية للأكثر صمتاً.

هل يوجد في الجنة كتب؟

أدمنت القراءة منذ صغري، لم أكن جاحظ الكتب فلم يبلغ طول رفِّ مكتبتي يوماً ذلك الارتفاع الذي يمكن أن يقتل شخصاً بالغاً إذا سقط فوقه، رغم ذلك كنت أمتلك دوالي جاحظية في ساقاي، عُقد من الدم المختنق الأزرق تحتل مساحة الربلتين والفخذين أوشام ترسم خريطة وادي النيل أو شكل عظام ترقوة دجاجة تكوَّنت عبر ساعات من الوقوف الطويلة أسفل أرفف الكتب في المكتبات العامة، كل المكتبات بداية من المكتبات التي كانت الاستعارة فيها مجانية والمليئة بأطنان من الكتب عن أشياء لا

تهمني (الزراعة، البستنة، المحاسبة، كتب في الطب بلغات غير اللغة الإنجليزية، تحتل الصفحة الأولى في كل تلك الكتب غالباً، في الهامش العلوي إهداء من صاحبها الميت كتبه الورثة، بدلاً من الذهاب بها لبائعي الترمس والمسليات والبقالات صارت حسنة جارية على هؤلاء الموظفين النمطيين، إيجاد سبب لإبقائهم في وظيفة لا تتعدَّى حراسة ذلك الركام الورقي وتقشير الكوسة وتفريغ قرون البسلة الخضراء والنميمة، إن لم تكن شغوفاً بالبحث عن كنوز تاريخية وهمية أو أسرار عائلية مكتوبة بخط اليد في قصاصات ورق في طياتها فلا ترهق نفسك بالذهاب إلى هناك للاستماع إلى شكاوى الموظفين إلى بعضهم بعضاً من صعوبة الحياة.

في النهاية وصلت لإحدى قناعاتي، لا تمتلئ المكتبات العامة إلا بالكتب التي لا تُقرأ ولا توجد كتب صالحة للقراءة سوى تلك التي تُشترى، ولا أملك المال الكافي لشراء كل ما أريد أن أقرأه.

مثل كنز مخبأ اكتشفت في المدينة القريبة ذات يوم مكتبة دار النشر الشهيرة التي تسمح لروَّادها بتصفُّح الكتب قبل شرائها، كنت صغير السن حينها لدرجة أنني لم أكن أرى -أثناء سيري- في محل الزهور -بطول قامتي- أحواض السمك الزجاجية يسبح فيها السمك الملوَّن فوق أرضية من القواقع الخادعة، لا تتعثر الأسماك في قواقعها رغم صغرها كما أتعثر أنا في بلاطات الرصيف التي برزت من مكانها، لم تتخلع ولكنها برزت وما زالت راسخة، كأنهم عند بناء هذه المدينة تعجَّلوا!! وجاءوا بالناس قبل جفاف خلطة الأسمنت فساروا فوقها وأفسدوها، لم يكن بين أرفف تلك المكتبة مناضد للجلوس عليها وتصفُّح الكتب فلم تكن الكتب للاستعارة، ولكن كانت مباحة للرؤية والتصفُّح، لم تكن دور النشر قد أتقنت بعدُ حيلتها الخاصة المعروفة بتغليف الكتب، ظاهرها الحفاظ على جلد الكتاب وباطنها تفويت الفرصة على المعسرين أمثالي لتصفح الكتاب.

كل الكتب في تلك المكتبة كانت مباحة، حتى الكتب على الأرفف العالية كنت أصل إليها بسُلَّم عال متحرك، أقف بين صفوف الكتب، أقف هناك، لا حدَّ لحسرتي، حسرة ميداس الذهبي الذي لم يكن يستطيع أن يحوز من شهوته إلا اللمس، أقرأ بعض فقرات من هذا الكتاب ثم أعيده إلى مكانه، وألتمس آخر، ثم أعيده، يأتي موظف المكتبة غالباً بعد أن أكون قد قررت أن أنتهي من قراءة كتاب معين في وضع الوقوف، أضع الكتاب بسرعة في مكانه وأمضي.

ثم لم أعد أخجل، أتظاهر بأنني لا أُرى، كم مرة حلمت بأن يتركوني، ينسوني ويغلقوا الباب عليَّ، أقرأ في وضع الوقوف ولكني لا أشعر بألم ساقيَّ رغم طول المدة، لا أنتبه إلا عندما يمرُّ ذلك الموظف كل فترة كحركة بندول الساعة يوقظ الوقت ويحرِّك إحداثيات الضوء التي تخثرت في عيني، مرَّ وقت طويل، وأنا بعيد عن بيتنا وما زال أمامي سفر طويل، سيغلقون المكتبة.. تقفز عيناي بسرعة فوق الصفحات والسطور المتبقية في قراءة مبتسرة، رغم ذلك لا أنصرف إلا عند إغلاق المكتبة، أتفاجأ عند خروجي بالليل، وغالباً كان الصداع يُفتِّت رأسي في رحلة عودتي..

ذات يوم منعوني من الدخول بين أرفف الكتب، طلبوا مني أن أخبرهم عن اسم الكتاب الذي أريد شراءه وسيُحضرونه لي، أخبرني أحدهم في قلق شديد عندما لاحظ الحسرة وهي ترتسم على وجهي:

من يومين فقط ضبطنا ذلك المتشرِّد وهو يضع عشرات الكتب في دكة بنطلونه تحت القميص، ويخرج بها دون أن يدفع ثمنها، حررنا بلاغاً ضده وأبلغنا المكتب الرئيسي بالقاهرة كما تقول القوانين، ستأتي لجنة استثنائية للجرد من هناك، حتى ذلك الحين.. هناك أمر ألا يدخل أحد بين الرفوف منفرداً، ربك يستر، عُدْ بعد أسبوع..

وعدت. كان الموظف الودود قد اختفى. كلهم اختفوا وحلَّ محلهم موظفون مكفهرُّون يجلسون عند أفواه الممرات بالكراسي يراقبون حركة المتصفحين للكتب بنظرات أمنية شديدة الوطأة، إذا طال وقت تصفحك للكتاب عن الوقت المعتاد يندفع إليك ويسألك هل ستشتري هذا الكتاب أم لا؟

لم أعد بعدها إلى تلك المدينة إلا بعد سنوات، ماراً على الرصيف دون أن ألج للداخل. التقطت عيناي شكل المكتبة من الخارج (درجات السلالم المتكسرة بالخارج والواجهة الزجاجية - التي تظهر منها حوامل الكتب والفاترينة الصغيرة التي يوضع فيها إصدارات الدار الحديثة، مصيدة الحشرات الطائرة الشفافة)، كان المبنى مألوفاً كواجهة بيتنا القديم، صغيراً كما لم يبدُ لي في طفولتي ولا مراهقتي، وكما ظلَّ موجوداً في ذاكرتي، مفعماً بكل فرص السعادة الأبدية.

لماذا انفجرت فجأة رغبتي في الكتابة بعد موت أبي مباشرة؟ لم أكن أكتب قبل ذلك! وكأن رغبتي في محادثة أخ أكبر مني لم أعد أستطيع استحضاره تحوَّلت إلى رغبة في التحدث إلى شخص آخر لا أعرف من سيكون، شخص ما يشبهني. عندما عدت إلى المدينة في السنة الدراسية الجديدة كنت أشعر به، يمشي خلفي وأنا أسير في الشوارع حريصاً على ألا أنتبه له، يخفي خطواته، أراد مطلاً من نافذة ترام مار ينظر لي حزيناً على ما آلت إليه الأمور معي أو منكفئاً على نفسه في حزن شتائي على متعد محطة ينتظر، وكان ينظر إلى ناحيتي إذا توقفت عن إمعان النظر فيه، ويتنقل في وجوه الناس وأجسادهم كلما التفتُّ إليه، ولكنه يعود ويشبهني عندما أكفُّ عن النظر خلفي، كطفل عابث يلعب "الاستغماية"، مثل شبح يريدني أن أصاب بالجنون، وكأن هذا الشخص يسعى خلفي ليخبرني عن شيء سقط مني، ولكنه مستمر في السير خلفي حتى لو لم يسقط مني شيء!، وكنت أفكر، لا يشبه ذلك الشيء الذي سقط مني -أو سيسقط مني- إلا الكتابة.

***

سـيـن:

لم تكتب منذ استلمت عملك في المكتبة، وكأن البواعث على الفعل تعمل بشكل عكسي. لم تشتق للكتابة وأنت الذي كدت تنساها طيلة سنوات البحث عن عمل. تبدو لك الكتابة الآن كأصدق ما تكون، كفعل اعتراف وتطهُّر. مثل تلك اللعبة السحرية الشهيرة "التابوت ذي السيوف" لا تخدع فيها أحداً إلا نفسك، تضع جسدك في ذلك التابوت وتكون أنت أنت بذاتك الذي تغرس السيوف واحداً تلو الآخر، متحملاً قانون الاحتمالات الرهيب أن تضع أحد هذه السيوف في مقتل منك.

وبغضّ النظر عن الكتابة، ربما ماتت أيضاً رغبتك في القراءة وكأن رؤية كل هذا الكم الهائل من الكتب أصابك بالتخمة. ما الذي ستضيفه إلى العالم زيادة عما أضافته كل هذه الكتب. ثقل الأوراق الحقيقي على الرف وشكل هندسي غير مألوف لاصطياد الغبار؟ وأنت تحرس كل هذا الكم من كتب الأصولية والقوالب الفقهية الثابتة لا تملك أن تفكر في الكتابة الحرة الخالية من القيود والتابوهات. كانت ترهقك تلك الازدواجية. لا ترهق مصطفى المولع بالمسيحيات وهو يخدم في مكتبة مسجد، ولكنها ترهقك.

عندما يعاودك الشوق للكتابة وفي قصة ما ستكتبها ستحكي عن مراهق ساحلي كان يحلم بأن يسافر خلال البحر كالسندباد ويرابط عند أسوار مدينة منيعة ويتزوج من نضيرتها. استيقظ ذات صباح فوجد نفسه يعيش في مكتبة مليئة بالشعر والجلابيب القصيرة والكتب السميكة التي يخلط فيها الطلبة بين كتب الرقائق الحقيقية وكتب الفقة المختصرة فقط لقلة عدد أوراقهما، وكانت كل النضيرات في حلمه يرتدين خياماً سوداء على حد تعبير مصطفى عن زائرات المسجد.

ولكنك لم تكن تكتب ولم تكن تحلم عندما أتت أميرة حُلمك، ظهيرة يوم ما بعد أن هدأت الحركة بين الأرفف وتبقى منها ثمالة الطلبة المعتادين بين الأرفف جالسين على الأرض، سحبت درج المكتب حتى التصق ببطنك ووضعت دفترك وأمسكت بالقلم ثم غرقت في أفكارك الخاصة، هل كان يوم الثلاثاء، يوم الأحداث الاستثنائية، هل كان قدومها حدثاً استثنائياً في حياتك، لم تشعر بوجودها إلا بعدما أصبحت فوق رأسك وتنحنحت، ربما لم تسمعها من المرة الأولى، وعندما رفعت رأسك إليها دون أن تنصب ظهرك كعادتك لتدفع الدرج بصدرك فيختفي سرك الصغير (دفترك) سألتك:

أبي موجود بالداخل؟؟

أومأت برأسك فتحركت هي، هل تعرف الطريق؟! ذلك الممر الضيق الخالي من الطلبة والذي يؤدي مباشرة إلى غرفة الشيخ، أبيها، ظلّت نظراتك معلقة بالباب الذي أغلقته خلفها لفترة طويلة..

***

(فسألها سابور عما أسهرها، فشكت خشونة الفراش، فقال: إنه من حرير محشوٍ بزغب النعام؛ ونظر في جسدها، فإذا بورقة خضراء من الآس قد علقت بين عكنتين تحت صدرها، فتناولها، فسال الدم من موضع الورقة، من ترفها، فقال: بم كان أبواك يغذيانك؟ قالت: بالمخ والزبد وصفو الخمر والشهد) [حكاية النضيرة بنت الضيرن].

كان السندباد يقول في بداية كل رحلة: "فحدثتني نفسي واشتاقت إلى البحر والسفر" ولم يكن الشوق كافياً لأن يغرقه، على العكس منك، ما أوقع بك في ورطتك هو الشوق فقط دون الفعل، كان هذا ظنك في البداية، أن الطعنات النافذة لا تنفذ في الظلال ولا تقتلها، لا تكن مقتلتها إلا في الأجساد الحقيقية، ولا يستعرُ القتال إلا في الصفوف الأولى، وأن الطليعة هي التي تتحطم في بداية التصادم، لذا كنت في الخلف دائماً، صار منهج حياتك أن تكون في الخلف، صار كذلك لأنك كنت تعلم: ما أضعف عالمك أيها الساحلي، تُدفع دفعاً إلى ممارسة الحياة ومواجهة الشمس الساطعة فلا تزيد عن أن تدمع عيناك من وهجها، معجون لحمك بحب الحكايات حتى صرت كائناً مجازياً في عُرف نفسك لا تتحمَّل نفخة من حقيقة، قرصان خيالي يقتات على سفن الحقيقيين وينشب فيها كلاليبه ليستمر في الحياة.

شيء مكتمل في حياتك سوى تلك الكتب التي تملأ غرفتك، أما باقي الحياة فكلها لا تتعدَّى سطح ماء المحيط بعد غياب الحوت الجزيرة في قاع الماء، بقايا مبتسرة.

حتى علاقتك بالجنس الآخر لم تتجاوز حكايات أشرف وتثاؤبه حيث لا امرأة تخلو من الخيانة، أما في التاريخ فلطالما أثارتك تلك الحكاية عن نضيرة حتى رأيت الحقيقية في المكتبة ذات ظهيرة، فزلزلت عالمك.

النضيرة بنت الضيرن، سمَّيتها باسمها رغم أنك لم ترهما؛ لا المجازية المختبئة في بطون الكتب القديمة بلا ملامح، ولا الحقيقية التي لم ترَ منها

غير طولها، ولم تسمع سوي حروف منها (أبي موجود بالداخل؟؟)، هل كان هذا هو الشيء المشترك بينهما؟؟ التخيُّل... تتخيَّل لحماً بلورياً تجرحه ورقات الآس، عظماً غضروفياً، جلداً شفافاً ترى من خلاله مُخَّ العظام وهمس الدماء في الأوردة، تتخيَّل وتشتاق وتنشب عروقاً للحياة من عالمك المجازي في عالمك الحقيقي فأنت لم ترَ منهما شيئاً، لم تذرِ بوجودها إلا بعد أن تنحنحت فوق رأسك عدة مرات، ما الذي تعلقت به فيها، وكأنها سحبت خيطاً من عينيك إليها فلم تستحِ أن تجذبه ولو بإطراقة خجل من نظر الطلبة الذين يختلسونه إليك شذراً واستنكاراً، ما الذي جعلك تنفث الكلمات في أثرها كأنها ستتعثر بها أثناء عودتها فتفهمها، (لست مثل هؤلاء الذين تتعثرين بهم في سيرك إلى مكتبة أبيك، لست أحد الشخاليل المعلقة بالدوبار في ثوب والدك يتتبعه في زفاته أينما يكون)، أكان حبك الصامت لها اعترافاً بنُبل أبيها؟ ذلك النبل الموازي لكل حرص الآخر الموازي له في التاريخ (الضيزن) على إطعام الموازية لها (النضيرة) بالمخ والشهد وغذاء الملكات المصفى والزبد.. تكلم فما أكثر الأسئلة وما أكثر صمتك الموازي..

لو رأيتها في السنة الأولى لك معه في المكتبة ما زاد اهتمامك بها عن مجرد نظرة متعجلة تلقيها بغير اهتمام، وإشارة إلى الباب الموارب لترشدها إليه، ليست إلا إحدى الخيمات السوداء المتحركة اللاتي يتعثر بهن نظرك في دخولك وخروجك من الباب الخلفي للمسجد الذي أعطاك مفتاحه. يقفن مجموعات بعد الدرس في حديث خافت يتوقف إذا وازيتهن في مرورك، بعضهن زوجات لرجال يخرجون من الباب الأمامي للمسجد ثم يأتي كل واحد منهم إلى زوجته الواقفة تحت خيمتها السوداء. أحد ألغازك المضحكة: كيف يأتي الزوج إليها ويعرفها دون كل النساء فيصطحبها؟!

وكان ما يسعون إليه أسبوعياً في احتفال مهرجاني بأعدادهم الضخمة كان أحد مفردات يومك العادي، لا يفصلك عنه إلا الباب الموارب، باب كترهم

الفقهي مباح لك دون غيرك طيلة اليوم عدا وقت القيلولة التي ينصرف فيها إلى بيته للغذاء والنوم. ولكنك لا تلج خلاله الا حينما يناديك. حتى الدروس لا تهبط للاستماع إليه فيها، تودُّ حتى لو أوقفوا ميكروفونات الإذاعة الداخلية للمسجد. تسحب الدرج المحمَّل بأوراقك إلى صدرك وتغرق في أفكارك الخاصة أكثر مما تكتب. لا تلفت انتباهك عناوين الكتب التي يطلب منك أن تُحضرها له من فوق رفوفها. فيقرأها ثم تعيدها إلى أماكنها، لم يُثر فضولك حتى لاستنطاق آثار قراءتها كما كنت تفعل مع الكتب التي تسلفها لأصحابك. مظلم أنت حتى في النهار مثل غابة استوائية. لا مساحة واحدة للتفاهم، لا شجرة تخلو من النباتات المتسلقة التي تقفز إلى كل ما يجاورها، لا يشتبك بداخلك سوى لبلابات الرفض. لا تُروى بماء ولا تحتاج إلى جذور، وإنما هي فقط عادتك القديمة أن تشد مصراعي قلبك وتنطلق، بينما يهتف قلبك برسالته الوحيدة كجهاز الـ"أنسر ماشين "توقفت عن أن أكون أنا ولكني لن أكون أنت"

ولكنك لم تتوقف يوماً عن سؤال نفسك. أهذه هي نهاية كفاحك في البحث عن مكان لك تحت الشمس؟ وهل تقع المكتبة بكل صخبها والأقدام التي تهري جنباتها في آخر الدنيا، بلاد الواق واق كما تمثل لك سوداوية مزاجك أم كانت في بداية الدنيا واغتالك الموت فيها كما يغتال سائر المنعَّمين بها. وهل بدأ نزيفك منذ ذلك اليوم الذي ارتضيت فيه لنفسك أن تكون مجرد ظل له بين أرفف الكتب. منذ أن توقفت عن محاولاتك لتكون أنت أنت على سجية روحك الخاصة. هل ابتلعتك الثعابين وأنت لم تصعد بعدُ متراً واحداً في الهواء؟ أم رفعتك النسور حقاً كما توهَّمت وقتها إلى الدنيا الحقيقية وأتى هو فَفَزعها عن نهش جثتك المراقة الدم وأخذك فضمخك بالفورمالين وحشاك بالقطن وجعلك في متحفه الخاص؟ مجرد ظل يحب

حياة الظل ويبحث عن الظلال الشبيهة به ليعشقها ويذوب في عشقها خفية!

ولكن... حتى الظل كانت له شروط وجود في الحياة، لا يُداس على ظلِّ المُعلِّم احتراما له في الثقافة اليابانية. قرأت أيضاً عن أولئك الوثنيين الذين لا يسمحون بأي حال من الحوال أن يدوس أحد ما على ظلهم الملقى على الأرض. ولو كانوا أحباءهم أو أصدقاءهم. كانت تلك لعبتك المفضلة أثناء سيرك حين يقع ظلك عن يسارك أو يمينك، لا تسمح لأحد بأن يدوس على ظلك. وكنت تسأل نفسك.. هل من جائزة لذلك أم إنه مجرد نُبل غير مبرر؟ ألا يموت الإنسان رويداً رويداً بذلك الدوس المتكرر حتى يرقد لموتته الأخيرة؟؟ هل سأفوز بأيام إضافية فوق أيام عمري إذا لم أسمح لأحد بأن يدوس على ظلي؟! كنت تسأل نفسك.. (هل لهذا النُبل ما يبرره غير الخوف من الموت الذي تواجهه الآن بعد أن تركت ظلك وجسدك مباحين للدوس العنيف)..

ولكن أين شروط وجودك؟ أين المُعلم في خريطة الفوضى هذه. هل سمح لهم بأن يدوسوا على ظله الذي كنت جزءاً منه ليموت رويداً رويداً بهذا الدوس المتكرر. أم حاول أن يوقفهم فلم يستطع؟ لطالما أيقنت من قدرته على إعادة الأمور إلى نصابها في الوقت المناسب إن أراد. كأنه أحد المدارات. يمتلك مغناطيسيتها بالفعل. كأنه هو الحلقة المفقودة بين الوحشة والألفة. لهذا السبب كان فزعك عندما علمت في ظلمة زنزانتك من رفاق السجن الجُدد أن الضابط المرافق للقوة صفعه على وجهه أمام المسجد عندما أخذوك في المرة الأخيرة؟. وكأن الظلام تكدَّس أمام عينيك فازدادت عتمته. لم يكن إلهاً ولا تنبت الأرض تحت خطواته. كان ملوناً بالكدمات مثلك ولكن من الداخل. يختلف موضع الكدمات فيختلف نبل ألمها ويختلف المصير. لا يلوث تلك الكدمات إلا علاقته الغامضة بالمكتب. لطالما

تساءلت عن العلاقة التي تربط بين الشيخ وبين ضباط المكتب. ولم ينتهِ تساؤلك إلى أن أتى ذلك اليوم الذي رأيت فيه الذبابة في كوب الحمامة الزاجلة.

***

في كل يوم كان يأتيه الناس، لا يحمل أحد صفة استثنائية لزيارته، لا تدري كيف يحتمل الاستماع إلى كل هذا العدد، يأتون ويتزاحمون على باب غرفته قبل الدرس وبعده، صومعته، ويظلون يتقاطرون دونما انصراف حتى بعد إجابة أسئلتهم أو قضاء حوائجهم فيملؤون الممر الصغير أمام الباب، يتسمعون لكلماته الخافتة فتفعل بهم الأعاجيب، تسمع ضحكاتهم وكلامهم هم لا كلامه.

لماذا يأتي كل هؤلاء الناس؟، بعض أفراد قليلون منهم كانوا يأتون ليجالسوك. ينتظرون فراغ غرفة الشيخ من الموجودين بها حتى يحظوا بجلسة سرية، من حكاياتهم لك عرفت نوع المشكلات التي يستمع إليها الشيخ طوال الوقت، أسئلة عن حكم العمل في البنوك وتعاملات البورصة وقتل البعوض بالصواعق الكهربية، أسئلة عن حكم حلق شعر اللحية للالتحاق بعمل معين أو التجنيد الإجباري بالجيش، أناس قلقون من دماء تأتي في وقت الصلاة من أماكن متنوعة في الجسم بسبب المرض، وأشخاص يأتونه بأسئلة عن وضع ميراث معقد مليء بالأقارب من كل الدرجات ولا يرضون بأقل من أن تأتيهم ورقة بإمضاء الشيخ توزع عليهم أنصبتهم، أحد أئمة المساجد البعيدة وكان يأتيه بصفة مستمرة بورقة مليئة بالأسئلة أتى ليسأله ذات مرة عن حكم إشعال البخور في قبلة المسجد أو المسجد عموماً، شاب متوتر كان يهز ساقيه طوال فترة جلوسه معك أتى ليسأله عن حكم التصفيق باليد لاستعجال الموجودين خلف أبواب دورات المياه في المساجد والأماكن العامة، خاصة عند الازدحام، وكان أحدهم قد نهره عندما رآه يصفق، وأخبره بأن التصفيق قد جُعل للنساء فقط وليس لرجل أن يصفق وإلا عصى أمر النبي، وأسئلة لا تكاد تنتهي عن طلاقات زوجية تمّت بطرق وألفاظ مختلفة، وكان يأتيه المتعاركون ليصالحهم، بكدماتهم

وجروحهم وعداواتهم الطازجة التي تملأ السُلَّم وهم يصعدون بصيحات العداء.

لكن الصنف الأغرب على الإطلاق من الناس الذين يأتون إليه لم يكونوا يصعدون إلى المكتبة. كانوا ينتظرونه في الشارع خلف المسجد. بعيدين عن أن يراهم المارة أو يراهم أحد المصاحبين للشيخ. ينتظرونه بدأب حيث كان ولا بد أن يمرَّ يومياً ذاهباً إلى قيلولته. ينتظرونه في زاوية الشارع الخلفي للمسجد على أحد الأرصفة. يقف الواحد منهم مثل خيال مأتة حزين لا تزوره حتى العصافير التي تنقر وجهه. يسحب على وجهه بالفعل مثل قبعة قش مصراعي الغطاء القماشي لرأسه ليداري أثر الكدمات. عندما يراهم يفهم لماذا يقفون هناك... إذا كنت من رواد المكتب أو أحد المستمعين للدروس لا بد وأن تقف في هذا المكان. بعد روعة الصدمة الأولى في مكتب أمن الدولة..

لا ينادي على الشيخ. يتجه إليه الشيخ مباشرة بعد أن يتخلص من مرافقيه كأنهما على ميعاد. ربما تفحص وجهه قبل أن يتحدثا. يربط ذراعه بذراعه ويتمشيا.. نفس السيناريو يتكرر كل مرة كما حُكِيَ لك: "سيأخذه إلى منزله القريب. سيأتي له بطعام. يجعله أثناء انتظار الطعام يساعده في ترتيب مكتبته الخاصة. يطلب منه خدمة. أن يبري له القلم الرصاص الذي يضع به علامات أسفل الفقرات التي تهمه في الكتب. يحكي له سراً من أسرار ماضيه ويأتمنه عليه. يعطيه كتاباً اكتشف (بمحض الصدفة!) وجود نسختين منه في مكتبته. الواقع أنه يحتفظ بكتاب زائد دائماً لهذا الغرض عنده مكتوب عليه اسمه بخط يده. يتراجع مصراعا غطاء الوجه ليكشفا جزر الندوب والكدمات السوداء والزرقاء في أنحاء وجهه. لا ينتبه. لا ينتبه حتى والهواء يلسعها وهو يعود للشارع بعد نزوله للسلالم تاركاً الشيخ لقيلولته. يعود للحياة وقد شفيت ندوب روحه قبل ندوب وجهه"..

وكنت تتذكر -عندما يأتي الشيخ فجأة بعد عصر هذا اليوم- النصيحة التي تقول: [illegible] مص سُمَّ الثعابين من عضة أحدهم بفم ملتهب بالجراح، كان يعود إلى المكتبة في يوم كذلك اليوم وعلى وجهه أرق النهار الذي هو أشدُّ من أرق الليل، فتعلم أنه لم يوف قيلولته حقها من النوم، ترى على وجهه القلق وأحياناً الحزن، دائماً مخلوطان بالغضب اليائس، وكان يجيب زائريه مطرقاً باقتضاب شديد يحسونه فيتسحبون واحداً بعد واحد، وقد غشيتهم روح حزنه فأحزنتهم أيضاً، يتساقطون عنه مثل أوراق شجرة فاجأها الخريف ويبتعدون مع أقل نفخة هواء إلى ساحة المسجد، ثم يأتي ما لا بد منه رغم كراهيتك لذلك: ينهض فيغلق على نفسه باب غرفته الصغيرة فتختلُ الحركة اليومية للأشياء في المكتبة.

يمتدُّ الأثر السام لذلك اللقاء عند الرصيف لأيام تالية. تجده في غرفته عندما تأتي صباحاً والمكتبة مفتوحة وكأنه لم يغادر، النور مضاء وحول اللمبة ذات الفتيل المتدلية من سلك طويل في السقف تدور بضع حشرات ليلية مرهقة بفعل السهر، هل نسي إطفاءها أم إنه بالفعل سهر طيلة الليل فجاءت تلك الحشرات تؤنسه، يرجوك عندما يراك بلطف المرهق -وأنت تطل عليه من الباب الموارب تطمئنُ لأمر النور المضاء- أن تغلق عليه الباب من الخارج، لا يحتاج أن يطلب منك أن تُورِّي عند السؤال عليه، علَّمك كيفية ذلك وأخبرك أنه ليس كذباً إن لم تُقسم عليه، تشير بأصبعك الموجود مع يدك في درج المكتب أنه ليس هنا في الدرج بينما هو في الواقع في غرفته التي أغلقتها عليه منذ قليل.

ولكنك لا تحتاج لأن تكذب أو تورِّي، يقل عدد السائلين عن الشيخ رويداً رويداً، يخبرون بعضهم بعضاً في باحة المسجد بعدم وجوده فيخفت نبض الحركة المعتادة على السلالم، [illegible] يعودون [illegible] أخرى، وكأنهم يعلمون... رغم أنك تنخس [illegible] بإصبعك [illegible] في [illegible] ليس هنا.

ينظرون إلى الباب المغلق كمكان خال، ينصرفون فوراً بعد إجابتك دون كلمة واحدة ودون سؤال كأنهم يحزنون لعزلة الشيخ، يسود بين أرفف الكتب ذلك الضوء المليء بالزغب الأسود، ذلك الضوء المحير الذي لم تكن تراه إلا في تلك الأماكن التي احترقت قبل ذلك، حتى ضوضاؤهم المعتادة بين أرفف المكتبة وبالأسفل لم تعد تأتيك بنفس كثافتها الأولى.

وكان لا يديم العزلة في صومعته، كان يخرج فجأة فيستطلع أحوال الطلبة بين الأرفف ويعود بكتاب تعلم أنه لن يقرأه، لا يخرجه إلا القلق من أن يتم القبض على أحد الطلبة، ضرب طلبة المكتبة يعني أنهم متوترون، أنهم سيرسلون أحد عيونهم في الأيام التالية إلى المكتبة.

تكون هذه الزيارات حدثاً استثنائياً رغم أنها لم تكن تتخير يوم الثلاثاء لحدوثها، يأتي الأفراد المرسَلون من قبل أمن الدولة فرادى مثيرين أكبر قدر من الضجيج، لا يخلعون أحذيتهم عند دخولهم المكتبة، يأتون بها من أسفل تحت آباطهم بعد عبورهم من ساحة المسجد ثم يلبسونها أمام الباب ويدوسون بها على قطع الموكيت، يتنقلون بين الجزر الخضراء للموكيت بخطوات واسعة كأنهم يتعمدون ترك آثار أحذيتهم عليها، إمضاءات الحضور والانصراف، يأخذون اسمك وبياناتك باهتمام شديد في كل مرة، وعندما تسأله عن اسمه استئناساً يقول لك في غيظ شديد: "سعادة الباشا.. اسمي سعادة الباشا"

بعد ذلك يدخل بين الممرات ليبحث على الأرفف بدأب شديد عن كتب معينة أعطود أسماءها مسجلة في ورقة واحدة مطوية يوزِّعونها عليهم، الورقة في يده مثل شراع سفينة مهترئ بعرض البحر في يوم خمدت ريحه، يتكاسلون حتى عن نقلها إلى ورقة أخرى جديدة، يصيبها ما يصيب الأوراق من القِدم والتهرؤ بفعل الطي والفرد في كل مرة، هذه الكتب التي لا تُخرجها لأي طالب إلا بورقة مكتوبة من الشيخ، أخبرك الشيخ بمكانها بنفسه في

الشهر الأول لك في العمل، فوق الأرفف العالية بجلد مستعار حيث وضعت فيما بعد أشياءك الخفية -أوراقك: محاولاتك الأولى في العودة للكتابة، وبعض الروايات القليلة، واحتك في تلك الصحراء القاحلة من المجلدات السميكة- يأخذون ما يعثرون عليه من كتب إلى غير رجعة لمجرد الاشتباه في جزء من العنوان ويفتعلون الاصطدام بالطلبة الموجودين بين الأرفف، يأخذون أسماءهم ودفاتر دراستهم والأوراق الموجودة معهم التي يدوِّنون فيها مقتطفاتهم من الكتب، وقد يصطحبونهم معهم، وكان يأتيك خاطر أن كل هذا البحث الدائب عن شيء أو شخص مريب فقط ليدفعوا به غضب الشيخ عندما يذهب إليهم في المكتب احتجاجاً على نوع التعذيب المفرط لأحد تلامذته، خذ هذا كبش محبة بيننا، ولتعلم أننا لم نزل على هدنتنا معك.

العجيب أن الشيخ كان يعرف بمجرد وجود أحدهم بين الأرفف دون أن تخبره، يُعرف الخبر وكأنه غاز سام ينتشر في الهواء، يتسرَّب الطلبة إلى المسجد بالأسفل ويختبئون في دورات المياه، يستغرق وقتاً طويلاً باحثاً عن كتاب مريب ليأخذه إثباتاً لحضوره، تذهب إليه حيث يكون تائهاً بين أسماء الكتب على الأرفف والورقة المتهرئة في يده، تخبره أن الشيخ يريده، يتوقَّف وكأنه فوجئ، قد يَتبعك وربما مشي مباشرة دون أن يمرَّ عليه، يشير الشيخ لك بفتور وأنت تُعلِمه بأنه غادر، سيذهب إليهم على كل حال، يختفي طيلة النهار في اليوم التالي.

***

لم يكن مخبرهم يستجيب لدعوة الشيخ إلا عندما يخلو الرصيف الموجود خلف المسجد من المصفوعين والمهانين لعدة أسابيع متتالية مما ينبئ بصفاء الجو بين الطرفين، وكأنه ينتظرك بين ممرات الكتب حين تذهب إليه لتخبره بأن الشيخ يريده، يدسّ الورقة التي في يده بعناية في جيب بنطلونه الخلفي ويأتي معك إليه، تتركهما لتأتي لهما بالشاي وعصير الليمون من الكانتين بالأسفل، لم تكن تفعل ذلك إلا تحت ضغط إلحاح شديد من مصطفى الخائف، ربما كانت تلك فرصتك لأن تعرف نوع الحديث الذي يدور بينهما، ولكن هل كانا يتوقفان عن الكلام في أول دخولك؟

وكأن ما يدور بينهما لا ينتمي لأي نوع من أنواع الحديث الذي يتبادله البشر، تخمن ذلك من ركود ملامحهما، لا تعرف -عند دخولك عليهما- مَن غَيَّر تضاريس الغرفة الصغيرة لتكون مناسبة لجلستهما غير الودية، من أخلى الكرسي الوحيد الذي يُستخدم معظم الأوقات كمنضدة للكتب ليجلس عليه ذلك الذي لا يشكر لك كوب الشاي الذي تضعه أمامه، جالساً ملتصقاً بالمكتب حيث تلمح على المكتب أمامه ورقة واحدة مليئة بالأسماء، عندما رأيت تلك الأسماء فهمت لماذا لا يدور بينهما حديث، لا يدور حديث بين الحمامة الزاجلة والشخص الذي يربط الرسالة في ساقها العقيقية، لا يهمس حتى في أذنيها المغطاتين بالزغب بوجهتها، هي بوصلة نفسها صوب مربيها ونائر الحَبِّ لها.

كان مجرد شك تأكدت منه بعد أحد هذه اللقاءات، دخلت بعد انصراف مخبر أمن الدولة لتحمل الكوب الفارغ الذي لم يكن هذه المرة فارغاً، كان ممتلئاً لأكثر من منسوب النصف وفي السائل الداكن لمحت ذبابة، تخيلت السيناريو، سقطت ذبابة في كوب المخبر ربما بعد رشفتين أو أكثر فلم يطلب أحدهما -لا مخبر أمن الدولة ولا الشيخ المبتسم بخفوت (بشماتة!)- تغيير الكوب، تخيَّلت الحوار الدائر بين عينيهما الصامتتين، ذلك الحدث

الاستثنائي، خارج نطاق الحدود المرسومة لتعاملهما، مستمران (الشيخ يملي الأسماء والآخر يسجلها بعناية) ثم تسقط الذبابة، تجاهد للحظة في السائل الساخن لتنجو ثم تقتلها الحرارة قبل الغرق، هناك ذبابة في كوب الشاي: هكذا تستنجد عينا المخبر بعيني الشيخ في تردُّدهما بين الورقة والسائل الملوث بكائن مقرف، فتجيبه عينا الشيخ في هدوء مستفز: أعرف، أراها، هذا جزء من شخصية الغرفة كما ترى.. الذباب، يأتي رغم السلك الحاجز على النافذة الموجودة خلفي التي لا تُفتح إلا نادراً، ورغم المبيد الذي يُرشُّ في ممرات المكتبة؛ منعاً أن يضع فضلاته السوداء على كعوب الكتب فيفسد شكلها، لذا تجدني دائماً أضع قطعة الزجاج الدائرية تلك على كوب عصير الليمون الخاص بي، هكذا، يتمم بأصابعه على قطعة الزجاج الدائرية على فوهة الكوب بالفعل، وكأن ذلك الحوار الصامت دار بينهما بالفعل.

غير حديث العيون لا شيء خارج السياق المعتاد، لا تشكو الحمامة الزاجلة لأن (الكومبارس) -الديكور البشري- لا يهرش ولو مصَّ البرغوث كل دمه أثناء التصوير، لا يُفسد الشريط بسبب ذلك ويُعرِّض نفسه لغضب المخرج، يرسم الامتعاض على وجهه من وقت لآخر أملاً في أن يطلب له الشيخ كوباً آخر، يبخل الشيخ بلحظة إنسانية كتلك، يتركه يتلمظ وكأنه يود أن يُعَرِّفه:

لست ضيفي هنا على أية حال كما أننا لا نكون ضيوفكم عندما نذهب إليكم أو تأتون لتأخذونا من بيوتنا في زيارات الفجر، حتى ذلك الشخص الأخير الذي جاء عندكم منذ أشهر فصفعتموه فقط لأنه قال اسمه لضابطكم الصغير مفرطاً: "ما اسمك؟ فلان، اسمك بالكامل، يخبره باسمه الثنائي، يترك الضابط المحقق القلم من يده كأنه يتأهب ويسأله: قل اسمك بالكامل، يخبره باسمه الثلاثي، كان كافيا في البداية أن يخبره به ولكن كائن الكبرياء الذي تشكَّل في الفراغ بينهما لم يعد يكفيه ولا حتى للجد

العاشر، مجرد رفرفة سريعة من يد الضابط وصوت فرقعة مدوية في الغرفة وتحرك المقعدين الذي يحجز بينهما المكتب في وقت واحد للخلف، المقعد الخشبي والآخر الوثير ذو النجمة الذي يظل يدور حول نفسه، لسعت الصفعة المُهينة كل أعصاب الشاب لتشدَّ كل عظامه وعضلات جسده لتنثره من فوق الكرسي ليجد نفسه بكل قوة الإهانة يتبادل شرر النظرات الحارقة مع الضابط الذي التقط مع وقوفه الطبنجة الراسية في درجه المفتوح ككائن أسود حديدي قاتل، ليردَّ على الاعتداء المتوقع من الشاب الغاضب، لم يضع الشاب المصفوع يده على مكان الصفعة، لم تخرج كلمة غضب من فمه، دخلا منطقة صمت مريبة تتدلى من فضائها كخفافيش كل كائنات الشر، لم يخرجهما منها إلا أمين الشرطة الذي سمع صوت الصفعة وحركة الكرسيين فاندفع داخلاً ليكبِّل ذراعي المضروب لا الضارب، العاجز لا المتأهِّب بسبابته فوق زناد المسدس ناسياً أنه لم يسحب إبرة الأمان، وكأن حركة التكبيل قد كسرت ختم الصمت من فوق فم الشاب المصفوع، فاندفعت من فمه دفقة من التهديدات الملتاثة المجنونة، أخذوه خارج مكتب الضابط الصغير في الممر، وأتوا له بزجاجة من البيبس البارد، تركوه يمصُّ ورم إهانته مع رشفات الشراب البارد على كرسي، ثم استدعوه ليُتم التحقيق مع ضابط صغير أخر بعد أن صرفوا الأول، لم يحتجزوه، تركوه لينصرف، كان ذلك اعتذارهم له، أما المشروب البارد فعند خروجه أخبره ذلك الجالس في استقبال القادمين وهو يعطيه بطاقته الشخصية، أخبره وهو في تلك الحالة الفاصلة بين الابتسام والانفجار ضحكاً: ادفع ثمن المشروب البارد للسوبر ماركت الموجود في أول الشارع..

وكان يخبر نفسه بأسى -الشيخ- كلما رأى أحد خيالات المأتة الحزينة على الرصيف ينتظره وهو يخفي أثر الكدمات على وجهه: حتى ثمن زجاجة الشراب البارد لا يُكلِّفون أنفسهم بدفع ثمنها، هكذا الأمر إذن، ثمن

الضمادات عليك وكأن حماقاتنا وانفلات أعصابنا ظاهرة طبيعية كصفع المطر لوجهك وذر الريح للتراب في عينيك، حادثة عارضة ليس مسؤولاً عنها إنسان من لحم وعظم كان ممسكاً بقبضة طبنجته منذ قليل مستعداً لارتكاب الحماقة الأكبر، وكان قبل أن يحكي له ذلك الشاب والذي كان أحد تلاميذه تلك الحكاية يستفسر منهم عن سبب الكدمات عالماً بأنه لا يمكن أن تنفلت الأعصاب دون سبب، يستجوبهم بلطف عن السبب، كيف دار الحوار؟ ماذا حدث؟ كيف وصل الأمر إلى الحافة؟ ثم لم يعد يسأل بعدها، فقط يخبرهم: لتصبروا عسى الله أن يُزيلهم ويستبدلهم.

يسترجع الشيخ ذكريات تلك الحكاية التي سمعها في حينها وهو ينظر للكوب ذي الذبابة، يستمتع بنظرات الاستغاثة في عيني مخبر أمن الدولة المتلمس لأقل من واجب الضيافة، منتظراً دون جدوى حتى انتهى اللقاء الثنائي السري، فانطلق منصرفاً إلى حال سبيله، يمر بك وأنت جالس على مكتبك مروراً صافعاً، تعلم بحدسك أن شيئاً ما قد حدث، كان هذا دافعك لتذهب إلى صومعة الشيخ مباشرة بعد خروج الحمامة الزاجلة لتستنطق الآثار، وأنت واقف أمام المكتب تقلب نظرك بين الذبابة الميتة في قاع الكوب وعيني الشيخ، وقبل أن تسأل لماذا لم يطلب له كوباً آخر؟؟ أجابك:

- لا عليك.. ثأر قديم أوفيه أولاً بأول..

قال ذلك وابتسم ابتسامة واسعة أكبر من تلك الخافتة التي اعتدتها منه..

وقبل أن تغادر صومعته بصينية الشاي، تتفاجأ أنت بالسؤال وهو يخرج من فمك قبل أن يتفاجأ هو نفسه، مثل عطسة مفاجئة لم تتمالكها، تسأل بكلمة واحدة بينما تتفجر مضامينها من عينيك:

- لماذا؟

(لماذا يأتي؟ لماذا تعطيه أسماء طلابك؟ لماذا يكون هنا وهم أعداؤكم تكرهونهم ويكرهونكم؟؟ لماذا تربط في ساق الحمامة الزاجلة ولو اسم واحد

من تلاميذك وأنت تعلم يقيناً أنهم سيأتون به، وقد يفعلون معه عاجلاً أو آجلاً ما تداويه في بيتك؟).

ولم تعد لتجلس لأنه طلب ذلك منك شفاهةً أو بلغة العيون، عدت لتجلس عناداً أشبه بعناد الأطفال على المقعد الذي ظلَّ محتفظا بدفء ذلك الذي كان جالساً عليه منذ قليل: ستخبرني بكل ما أودُّ معرفته، لا تتغيَّر ابتسامته، تظلُّ مفرودة على وجهه مثل جناحي الذبابة الميتة في قاع الكوب الذي ظلَّ في يدك رغم جلوسك، يخبرك بحكاية الصفعة وزجاجة الشراب البارد، يخبرك بكل بساطة بما كان يؤرقك ويدفع بشكوكك إلى ذروتها:

- تلك الأسماء التي رأيتها في الورقة هي أسماء الطلبة الذين يأتون باستمرار إلى المكتبة.

يرى تعكُّر عينيك فيبتسم ويخبرك:

- ليس سراً، أنا فقط أنزع سُمَّهم، أُطعمهم القش فيشبعون سريعاً، يريدون أن يملؤوا أوراقهم وأنا أساعدهم، كل من يُكتَب اسمه في تلك الورقة يعلم أنهم سيأتون إليه، يذهبون ويأخذون البعض منهم، يكونون مستعدين حينذاك، يُخبِّئون الكتب والأشياء المهمة وينتظرونهم في أيام خروجهم دون فزع، فيما مضى كانوا يأتون بزفَّة حقيقية، يُحطِّمون الأبواب ويبقرون المراتب، الآن خرج العدد عن سيطرتهم، نحن وهم في شهر عسل الله وحده يعلم إلى متى سيستمر، الهدوء الذي يسبق العاصفة..

تستزيد من التفاصيل، تسأله فيبتسم لفضولك، ينصحك، لا تحاول أن تعرف، لن يعصروا الإسفنجة ما لم تمتلئ بالماء، ولم تكن المرة الأخيرة التي يسوق إليك هذا التشبيه، وما من مرة إلا ويغزو الخوف قلبك عندما يقولها، كيف يعصرون إسفنجة؟!

ولكنه لم يكن يعلم، هم يتوارثون تلك الهدنة معه دون رغبة منهم، ماذا كان يمثل لهم في المكتب غير قطعة اكسسوار قديمة في عالم نمطي، هل كان

الشيخ يعرف؟؟ملوا الانتظار والترقب، ملوا من إرسال الحمامات الزاجلة إليه فيعطيهم أسماء مكررة. وكان الملل يتثاءب حتى العاصمة، يتثاءب وتخرج له أذرع صائدة عشوائية كأذرع أخطبوط لا يُعرف لها رأس، اعتقالات عشوائية من محطات الباص وسيارات الأجرة ومن أمام فتحات الخروج في المترو، اعتقال لمجرد الشك، ولم تكن مزحة ولا خرافة، يمكنك أن تسير في أي مدينة غريبة دون بطاقة هويتك، لا تتحسَّس وجودها في جيب قميصك قبل خروجك بل تتحسَّس الشعرات النابتة على ذقنك فهي الخطر الوحيد ألا تعود لأهلك مرة أخرى...

وكنت تعلم بعد هذه الجلسة المنفردة بينكما أنهم لن يلبثوا حتى يأتوا إليك، لن يستثنوك لمجرد أنك لم تُرَبِّ شعر ذقنك.. لم تتوقَّع أن يكون بهذه السرعة. لعله كان مللاً أو مجرد استنفاد للفرص المتاحة؟، كان اسمك الذي يرصع ظهر الكشف المليء بالأسماء التي يملها الشيخ على حمامتهم الزاجلة. لا يسألك من يأتي في كل مرة عن اسمك عبثاً، تُرى، ما كان نوع الأسئلة التي تدور في أذهانهم عنك: هل ما زال تمثال (الكاتب الجالس القرفصاء) موجوداً هناك بجانب الباب؟؟ لم يترك العمل؟ ما سبب استمراره؟ كان هذا نشع سقف عالمك المؤمن، أول خيط تنسل في ثوب لامبالاتك، ولم يكن ما بعده هطولاً مؤذياً أو عرياً ضاغطاً فاضحاً، بل كان بداية الفوضى وفقط، ذات يوم جاءتك الورقة الشهيرة من مكتب أمن الدولة "يُرجى حضورك على وجه السرعة للمثول....."

***

ميـــم:

لو لم يقبضوا عليَّ في هذه الأيام كانت ستكون السنة الأخيرة لي في الجامعة. بعدها سأواجه منحدر العالم عارياً بعد كل هذه السنوات من الصعود المخادع في التعليم الحكومي، بعد يوم من طلبي لها أعطاني الطبيب قلمه وبضع ورقات من كراسته ثم سألني للمرة الثانية:

- هل ستذاكر؟

- لا.. ولكني سأكتب.

- شيء خارج الدراسة؟ هززت رأسي.

لمدة ساعة اختليت بنفسي والأوراق دون كلمة زائدة ثم أعطيته ما كتبته لقرأه بتمعُّن واندهاش شديدين، شرحت له موضحاً:

- قصة، أنا أكتب أدباً، قصة قصيرة، رواية.

- منذ متى وأنت تكتب؟

- منذ طفولتي، هواية قديمة.

أعطاني الأوراق ولم يُعلِّق، ربما لم يقرأها للنهاية، قلت في نفسي يحب ذلك النوع من القراءات، حاولت أن أنسى بقدر ما أهمل هو أن يمتدح محاولاتي الكتابية.

فيما بعدُ تبيَّنت خطئي، بشكل عارض ولكنه متعمِّد أثار الموضوع مرة أخرى، كيف يكون الأمر عارضاً ومتعمداً في الوقت ذاته؟ (الإجابة: تبيت الأمر حتى يأتي وقته المناسب، تحين الفرصة ليتنفس ما كتمه بين أهداب خياشيمه براحة).. قال من بين خياشيمه:

- لتأخذه إلى أحد المشايخ ليخبرك برأيه فيه؟

لم أُحر جوابا عليه، ربما غضبت منه حتى، قلت في نفسي: وما الذي يمكن أن يقوله الشيخ عن كتاب في الأدب؟

استمرَّ قائلاً:

كيف بدأ الأمر معك؟ أعني الالتزام؟

كان ذلك شبيهاً بأن يسألك البائع عن مقياس جسدك قبل أن يذهب عند الرف ويأتي لك بتشكيلة تناسبك. أجبته:

ليست بداية مميزة. أنت تعلم ذلك النوع من الناس الذين يبحثون دائماً عن المثالية، الذين يحفظون أول أربع صفحات من القرآن، يجيدون أول ثلاث حركات من لعبة الجودو، الذين قاموا برفع الأثقال بحماس أول خمس أيام ثم ملوا. فكرت ذات يوم في دراسة التجويد. بحثت عمن يعلمني كأن كل مشاكلي مع العالم انتهت فلم يعد إلا أن أتعلم التجويد. كنت مستعداً أن أدفع مالاً في المقابل. ولكن يوجد من كان يُقدِّم ذلك مجاناً. ذهبت بين مجموعة من الدارسين في مثل سني إلى بيت الشيخ ولكني لم أتعلم التجويد فقط. تعلَّمت الفقه والتوحيد... كان الشخص الذي يُدرِّس لي أكبر مني بسنتين فقط. درست على يديه بدايات علوم الأدوات، علم اللغة وأصول الفقة وعلم مصطلح الحديث والمنطق. ذات يوم سألني: ما مدى حبك للقراءة؟. قلت: أنسى كل شيء حولي عندما أقرأ. أعطاني مفتاح مكتبته الخاصة فوق سطح بيته، غرفة ملينة بالكتب تعطيك إحساس الجاحظ عندما وقعت فوقه صفوف الكتب، كانت هذه المكتبة الصغيرة بيتي الثاني حتى إنني بكيت فيها موت أبي للمرة الأولى والأخيرة..

طأطأ رأسه لحظات احتراماً لذكرى موت أبي ثم سألني:

- ما علاقتك بالإخوة في بلدتك؟

- جيدة للغاية، ويقرأون قصصي.

- من أين أنت؟

ذكرت له اسم قريتي الصغيرة، فقال لي بعد صمت قليل إنه لم يسمع بها، ثم قال كمن يريد أن ينهي الحوار:

- في النهاية لا أستطيع أن أخبرك إن كان الأخوة عندكم متفتحين للغاية أم إنهم يجاملونك، ولكني سأخبرك بنصيحتي سواء أردتها أم لا، لا تضيع عمرك فيما لا ينفع، وإن كانت هذه الموهبة لا دواء لها فاطلب نصيحة شيخ فيما تكتبه أولاً بأول.

***

ســـين:

لم تطلب نصيحة الشيخ بالمرة الأولى التي طلبوك فيها قبل أن تذهب إلى مكتب أمن الدولة، لم تخبره حتى قبل أن تفعل وكدت ألا تخبره بعد أن ذهبت وعُدْت من عندهم، كانت مجرَّد ورقة أرسلوها (يُرجى حضورك على وجه السرعة للمثول)، لم يُسلِّمها لك من سلَّمها في المكتبة كأنهم ينفون علاقة المكتبة والشيخ باستدعائك، لم يرسلوها إلى بيتك، لم يصافحك حتى ذلك الذي قابلك في الشارع خلف المسجد متجهماً وأعطاها لك! فقط.. أعطاها لك، ليست مطوية حفاظاً على سرية المحتوى، ليست مختومة أو منتهية بإمضاء فورمة مخيف وانحناءات حادة ضجرة، مجرد ورقة مهملة لم يُكلفوا أنفسهم باصطناع أي طقس من طقوس الإخافة فيها عدا الجملة المبهمة، ورغم ذلك يعلمون، ستذهب إليهم، غداً أو بعد غد، يمتصُ رأسك كل الخواطر السوداء السابحة فوق فراش نومك، ويمضغها على مهل الوقت الطويل للأرق في ليلتك الأولى بعد أن أعطاها لك رجلهم العابس، الذهاب أم التجاهل، ليسا طريقين، كان أحدهما هوة مظلمة مميتة والآخر سُلَّم زلق متداعٍ إليها، لا تختلف النهاية ولكن تختلف حالة جسدك الذي ستصل به.

فتحت الورقة المطوية مئات المرات، تستيقظ من النوم وتقرأ ثم تعود للنوم، "يُرجى حضورك على وجه السرعة للمثول"!، جملة مبتورة، (للمثول أمامنا.. أمامي.. أمام من يهمه الأمر.. أمام من كتب الكلمات وجعل نهايتها مبتورة.. أمام من أمر بكتابتها بتلك الطريقة!)، ربما يوزِّعون عليهم تلك الجمل المبتورة أيضاً في أوراق مهترئة ليكتبوها عند الحاجة مثل نماذج البرقيات المختزلة في السنترالات، مطلوب إحضاره فوراً مع إخافته، إحضار فوري + إخافة، أي شيء صبياني يصلح مع سمعة المكتب المخيفة، الشارع

الهادئ الذي لا يُسمح بمرور سيارات النقل العامة أمام المدخل المؤطَّر من الناحيتين بإصيصات الزرع، الرجل الجالس وحده الذي أخذ منك بطاقتك ووضعها في درج مكتبه الوحيد بعد أن سجَّل بياناتها في دفتر أمامه (سحب الدرج إليه فتحركت مع سحبته عشرات البطاقات الملقاة فيه فاطمئنَّ قلبك قليلاً، لست وحدك إذاً؛ فالقفص مليء بالطيور الداجنة الجاهزة للذبح). ولكن أين أصحاب هذه البطاقات كلها، الغرفة الواسعة التي وضعوك فيها كانت مليئة بالكراسي كأنه مأتم فارغ، الباب مغلق والأقدام المتلصصة التي تجعلك تتأهَّب وأكرة الباب التي تدور وكأن الباب سيُفتح ثم تعود لحالها وتختفي الأقدام المتلصصة كأن عشرات الأشخاص يضلون الطريق إلى غرفة استقبالهم، ثم يعودون في اللحظة الأخيرة، كان يمكنك أن تغمض عينيك وتتخيَّل أنك لست موجوداً، وكأنهم نسوك، لا يُبرِّر هذا الإهمال الطويل إلا النسيان، يُسوِّونك على نار هادئة، ولكن.. أين بقية الطيور الداجنة في القفص، وكأن تلك البطاقات هي تذكارات من صائد وحوش برية (أسنان، فرو. ذيول)، لم تكن تعرف، يأخذونها من الملتحين في المواصلات العامة، قرصة أذن، إما أن تجيء لتأخذ بطاقتك وتضع نفسك على أرففهم في ملفاتهم أو تعود لصوابك وتذهب لإخراج غيرها بوجه أبيض بعد أن تُحرِّر محضراً بأي سبب في قسم الشرطة لضياع بطاقتك المغتصبة، بدل فاقد.. بدل تالف، أن تفقد بطاقتك بدلاً من أن تُفقد أنت...

من الذي أخبرك بسرِّ تلك البطاقات الحبيسة في الدرج، لم يكن بالتأكيد ذلك الضابط الذي حقَّق معك، لم يسِر الحوار بينكما بصورة ودية على أية حال، نهاية صبرك الطويل في غرفة كراسي المأتم، عدة أسئلة بعد بياناتك الشخصية وطبيعة عملك بالمكتبة ثم وجدت نفسك أمام عرضهم المغري، قال لك الضابط المتجشئ: "ستكون حمامتنا الزاجلة الخفية".

- نريد أسماء كل من يتردَّدون على المكتبة.

قلت لنفسك في يأس شديد حينذاك: "وقعت بين شقّي رحى، حرب خفية لا تعنيك قيد أنملة. مجرد عابر سبيل بين صفَّيْن متناحرين، ولم تصدِّق نفسك عندما رأيت الطريق مرة أخرى بعد أن حرَّرت بطاقتك من الدرج.

ولم يكن باب غرفة الشيخ عندما عدت إلى المكتبة مغلقاً، ولا مفتوحاً على اتساعه. ظللت تنظر إليه دون أن تصل إلى قرار، وكأنَّ تأمُّل الأبواب صار قدرك، كنت تتأمَّل بابهم من الداخل بأمل الخروج، وتتأمل الآن باب الشيخ من الخارج بخيار الدخول. هل ستخبره أم ستنطوي على سِرِّك الصغير؟ لم يكن بين البابين في ذلك الوقت فارق كبير بالنسبة لك، كلاهما فم مفتوح على اتساع قدرته على الفتح. كلاهما باب سحري لعنكبوت متربِّص ينتظر أن تهزَّ خيوطه ليخرج إليك من العدم ويلتهمك، وما زلت أبيض نقياً لم يتغيَّر فيك سوى أن الخوف قد لوَّثك للأبد، هل كان يشمُّ رائحة عرق فزعك التي لم تزل عالقة في ملابسك منذ الأمس؟

لم تخلع ملابسك حتى، نِمْت بها، جاءتك رسالة على التليفون في جزء من الليل فأيقظتك من نوم متقطع: "أهلا بك.. أنا نيل السمالوطي، تمَّ تغيير رقمي إلى.... عرفت من الرسالة أن اليوم هو يوم الخميس وأنه أرسلها وهو جالس مع شلة فوق السطح وأن غداً الجمعة، ومع ذلك ذهبت في ميعادك اليومي إلى المكتبة في الصباح، لم تر الشيخ منذ استأذنته بالأمس فسألك: "خيراً؟"، فأجبته "لا شيء.. خير"، لم يتغيَّر شيء سوى أن عالمك انقلب رأساً على عقب، فصرت تتلمَّس بعضاً من ترتيبه عند عنكبوت الباب السحري، ولم يخرج لك العنكبوت بغتة ليسحبك إلى عشه بل دخلت بنفسك إليه، في صومعته، في يوم إجازتك الأسبوعية، يشيعك باندهاش نظراته حتى جلست إلى الكرسي المجاور لمكتبه، ينتظرك بصبر حتى ألقيت حمولة خوفك

إلى الفضاء بينكما، وكان هو من أخبرك عن سر البطاقات الحبيسة في الدرج.

مبتسماً أخبرك بأول نبوآته: "لن يضايقونك بعد الآن، لا تُعرهم انتباهك". كان ذلك أول قدرته على إعادة الأمور إلى نصابها في الوقت المناسب بالنسبة إليك، أول صفات مداريته. تنفست بعمق خفية حينذاك، لم تدْرِ أنها ليست سوى رغبتك الجارفة في تصديقه، تناسيت عمداً أن الضيرن كان واثقاً من متانة أسواره حتى دهمته الخيانة الأولى..

***

ولكن أين هي في كل هذه الفوضى؟ ابنته النضيرة ذات الخيمة السوداء، لا يبتسم وجهه إلا حين تأتي، يبتسم وجهه ووجهك، مرات أقل من القليلة ولكنها نقش على قلبك الذي استعصى عليه نقش الفرحة، يطلب الأب فور دخولها كوباً من الشاي وكوباً من الليموناده، يأتي بهما مصطفى ويضع الصينية أمام الباب على الأرض ويدقه وينصرف، يخرج الأب ويأخذ الصينية، ينغلق الباب مرة أخرى، الباب الصموت يصبح ثالثهما كالعادة، تخرج النضيرة بعد قليل أو كثير ويخرج معها أبوها ليوصلها، ينبثقان من خلف رف (فتح الباري للعسقلاني)، يتقدَّمها الأب، يمران بك ويلقي عليك الأب تحية باسمة، لا تنهض من جلستك عند مرورهما عليك، تظل على مكتبك الصغير متشاغلاً بشيء ما، وبَّخك ذات مرة على الوقوف من باب الاحترام فلم تعد تقف لمروره. تُغيِّبهما السلالم، عندما تكون المكتبة خالية من الناس بعد انصرافهما تنهض بسرعة إلى صومعة الشيخ كأنك ستأتي بالكوبين الفارغين، تذهب إلى حيث كانا منذ دقائق، تظلُّ واقفاً للحظات تتأمل عناصر الغرفة الصغيرة، وكأنك تلملم بقايا إشعاع جلستهما القصيرة، تستنطق مفرداتها المشبعة بكهرباء وجودها، النضيرة، ليس ثمة ورق آس ولا زغب من ريش النعام، فقط.. كل مرة كوب الشاي على الأرض، وكوب الليموناده على المكتب، لا تتبدَّل الأماكن وكأنها بيادق في لعبة شطرنج هبط على طرفيها نوم أهل الكهف، كوب الشاي ليس فيه حتى الحثالة الأخيرة، وكوب الليموناده مليء حتى منتصفه ومعرضاً على فوهته بالقلم الرصاص فوق قطعة الزجاج الدائرية كما هي عادة الشيخ في أكواب شرابه، لمن الليموناده ولمن الشاي؟؟، هذا السؤال الذي يأتي خلفه سؤال آخر مهم... هل تجلس مكانه كما ينبغي لأميرة صغيرة في حضور أبيها الملك ويجلس هو على الأرض تفكهاً، أم إنها على غير عادة كل النضيرات في مخيلتك تشرب الشاي، تشربه حتى الثمالة المُرة فتنتابها القشعريرة من

مرارتها وترتعد وهي تزمُّ فمها؟ لا تنسَ أن الشيخ طلب أثناء وجودها معه أكثر من مرة أسبريناً، ولم يكن من عادته الصداع، لا يطلبه إلا في وجودها، ما سبب صداعها؟ ما سبب مجيئها من الأصل؟، لماذا لا تلتقي أباها في البيت؟ البيت الذي تعلم أن توصيلها إليه لا يستغرق كل هذا الوقت، ولكن في كل مرة يستغرق وقتاً مختلفاً عن سابقه طولاً وقصراً؟؟

لم يكن لعودته ميعاد.. تعود إلى مكتبك بسرعة مخافة أن يراك، وفي إحدى هذه المرات بعدما أتى من توصيلها نادى عليك من خلال الباب الموارب، فظننت أنه يريد كتاباً من على أحد الأرفف، طلب منك الجلوس، قال لك بعد حوار لطيف وسؤال عن عائلتك:

- نريد أن نُزوِّجك.

وكان يبتسم دون أن ينظر إليك...

***

لماذا لا تتحدَّث الآن عن الذين شوَّهوا صورة العالم لديك، كيف أخذوك وعذَّبوك، كيف وضعوا الكهرباء على أعضائك الحساسة ومنعوك من النوم لأيام حتى صارت الأصداء والحركات تجرجر ألماً في أذنيك وعينيك، كيف استباحوا عُري جسدك حتى أصبح العري هو الوضع الدائم لك، كيف هشَّموا نظارتك أول ما فعلوا فصارت أضغاث الضربات ضربات كاملة العنفوان على جسدك. كيف مرَّروا في أطراف جسدك العارية فولتات لا يتحمَّلها جسد إنسان حتى شعرت بجمجمتك تجف وتتشقق، كيف حمَّموك بالبول والبراز. وأطفئوا سجائرهم على أشد أمورك حساسية.. ثم يأتون بالأوراق بعد كل مرة (وقِّع هنا!).

هل أخبرك أنا عن كل تلك الأمور الأخرى، الذكريات التي كانت مخدرك، كهفك الذي تنزوي فيه لحظة أن تقع عليك الضربات، والذي تنزوي فيه الآن لئلا تتحدث. ما أهمية كل ما ستذكره مقابل ضربة واحدة أو صفعة تلقيتها مقهوراً ولم تستطع الرد عليها، ما فائدة كل الذكريات السعيدة إذا كانت قد طارت عن خلايا جسدك المشحونة بها، طارت كعصافير مفزوعة إلى أجواز الفضاء وهربت، ما فائدة كل فرح العالم إن غُمِستَ آخر عهدك من الدنيا في جهنمهم، ما أثر ذلك في طريق حياتك الطويل المعبأ بالشقاء إلا كذلك الأثر على الكوبين الذي كنت تدخل كل مرة لتراه بعد انصراف الشيخ مع ابنته النضيرة، تتفحَّص حوافَّ الكوبين وكأنك تريد أن تُخمِّن أيهما خاص بها وأيهما خاص بأبيها لتتبع حدوده على الزجاج تتبعا عُذرياً دون أن تلمسه -الأثر الباهت لشفتيها- كما تتبعت وصف النضيرة في كتب التاريخ فعشقتها.

دعك منها، لم تكن أكثر من ظلٍ لأبيها هناك في الأسفل كما كنت أنت ظلاً له في الأعلى، ظل له في مصلى النساء كما كنت أنت ظلاً له بين رفوف المكتبة، تسمع شكاوى النساء وتحلها وتستعين بأبيها عند عجزها، تحب الظلالُ

الظلالَ الشبيهة بها، ولكن، تُرى، كم ظل له؟. كم ظل له خارج وادي الأفاعي وظل بخارجه، هل عاش مثلك في وادي الأفاعي، هل مرَّ عليه ونجح في تسلُّقه، وما ثمن نجاته منه؟؟ هل -الأفاعي- يتركونهم مغناطيسات لاستقطابكم بدلاً من أن تتوهوا عنهم؟ هل هي قوانين الحياة، أن يكونوا هم فتكونوا حولهم فتأتي الأفاعي فتأخذكم دون عناء البحث؟؟

تكلم تكلم وكفَّ عن الابتعاد عن مواطن الوجع، لا تنسَ أصول اللعبة: ثمة سيف مغروس هو وجعك وآخر لم يُغرس بعد هو سؤال مني، وكلاهما يسببان الألم في الانتزاع والغرس، وما أنا إلا غارس للسيوف في ممرات التابوت السحري الثابتة، لا تنسَ، أنت الذي تضع جسدك، تأتي به إلى تلك الممرات، ثم تتألم الآن من غرس سيوفي ولم تحن لحظتك الأخيرة بعد!، فلنجعلها ألماً واحداً مميتاً عند تلك اللحظة ولننتهِ، وكفَّ عن تسلية نفسك والتبرير لذاتك، وحدثني عما يشغلني أنا لا عما يخفف عنك أنت..

حدثني عن هواجسك كيف استحالت إلى قوة في ساعة الحسم فاغتالوك غيظاً منهم، عن دهشتك المشروعة من تلوُّث عالمهم، دعك منها ومن تلك الأخرى التي أتت بها لك لتتزوجها فلا يختلف جسد عن جسد، أيها الواهم ولو كن نساء، كلهن يذهبن للكنيف كما تذهب أنت، حتى النضيرة صاحبة اللحم البلوري..

لم يكن يقصدها، بمجرد أن قال الشيخ جملته المبهمة وفي اللحظة التالية وقبل أن تذوب ابتسامته من فوق شفتيه عرفت أنها ليست ابنته التي يريد أن يُزوِّجها لك..

الحكاية واحدة لا تتغيَّر إلا تفاصيل صغيرة ولا يختلف إلا الاهتمام، وسبب الاهتمام أنها كانت صديقة مقربة لابنة الشيخ، زميلة في الجامعة، ابنة بقال يرفض أبوها تديُّنها ونقابها وذهابها إلى المسجد لحضور الدرس، يرفض أيضاً رفضها لمن يأتون للزواج منها، ومما زاد الطين بلة أن أتاه أحد أفراد أمن

الدولة وهدَّده: سنأخذك أنت إن لم تتوقَّف ابنتك عن الذهاب إلى تلك المساجد المشبوهة، ترتعد ساقا البقل المسكين ويرشوه بعلب السجائر المجانية، ويعده أن يشكم جموح ابنته. يشعل النار في نقابها فترفض الخروج حتى يشتري لها آخر. يرصدها عائدة من الخارج بعد غياب طويل فيصعد خلفها حيث يسمع المارون في الشارع بعد قليل من صعوده صراخها الذي تعجز عن كتمانه تحت وطأة ضربات أبيها. لا تستطيع الأم الواقفة خلف الباب أن تتدخل ولا الأبناء الذكور الذين يتركون البيت ساعة ضرب أختهم عجزاً وغضباً، تتغيَّب عن المسجد لأيام كثيرة بعد أن يضربها أبوها ثم تذهب خفية. تأخذها النضيرة خلف الستار الموجود في مصلى النساء لتري آثار الضرب تحت ثيابها، آثار أصابع زرقاء وحمراء حسب قِدم الضربات. تُخبرها: تحمَّلي فلن يطول الأمر حتى نجد لك حلاً. أمامها لا تبكي. لا تبكي النضيرة أثناء تماسكها الظاهري طيلة تفحُّصها لها وحديثهما معا إلا بعد أن تخلو بأبيها الشيخ، يُربِّت على كتفها ويدقُّ الجرس لمصطفى ليأتي له بكوب الشاي والأسبرين بينما (الكلام/ النهنهة) لا يهدأ إلا اللحظة التي يفتح فيها أبوها الباب ليتناول الصينية من أمامه (صداع. مشاكل لا تنقطع. لم أعد أتحمَّل)، هي الغربة عندما تشعر أن الأكتاف التي تصطدم بك في الاتجاه المخالف في كل لحظة تمر عليك في حيتك أكثر بكثير جداً من كل الأيدي التي تُربت على كتفك من الخلف بود.

يضعان خطط الإنقاذ سوياً، أكثر من خمس مرات يرسلون من يطلب يدها من أبيها، وما الحل إن لم يكن في إرسال الرجال بإيعاز من الشيخ فيرفضهم الأب المتوجِّس واحداً تلو الآخر لنفس العيب: لا يمتلك أبوها قوة التأثير إلا على نوع واحد من الرجال، وكلهم يحملون اللحية التي يخشاها الأب، ليس إلا مصطفى فتى الكانتين، المتقلِّب البصاص (الذي يقف على ناصية الكنيسة كل أحد ليشاهد القادمات للصلاة -كان الشيخ يعرف إذاً رغم حذر

مصطفى).. ليس إلا هو، سين، كان هو بطلها المكتشف، الشصُ المعلق في خيطها لاصطياد سمكتها المفضلة المعذبة في المقلاة، تُرى، ما كان باعث الشيخ وابنته النضيرة على ترشيحك للزواج من تلك الفتاة المغلوبة على أمرها، أخبرك الشيخ أنه ترشيح ابنته النضيرة، تُخبر أباها برجاء من عثر على حل أخير، هو إنسان مثقف، يعيش تحت مظلتنا، ضبطته مرة يكتب شيئاً في درج المكتب على ورقة، أخبره الشيخ مبتسماً باكتشاف ابنته النضيرة لسره الصغير، أما (الميزة الكبرى/ الأرنب) الذي يدَّخره الساحر لنهاية فقرته: خال من العلامة القاتلة التي يتوجَّس منها الأب والتي يخشى أن تستمر ابنته بسببها في الحياة التي يرفضها والتي يخشى أن يظلَّ مخبرو أمن الدولة مستمرين في مطاردتهم له حتى بعد زواجها.

يُنهي الشيخ الحكاية بعرض:

- أعرض عليك أن تتزوَّج إحدى بناتي (تلك الاستعارة التي ارتعد قلبك لها حينها، وخفضت عينيك خشية أن تفضحك نظراتهما)، الخيار لك في النهاية ولكن لتعلم أنه لا عيب في البنت المسكينة ليجعلني أدلسها عليك، رأيتها بنفسي ولم يصفها لي أحد، وتستطيع أن تذهب وتراها بنفسك، كانت تأتي إلى هنا في بداية ما أتت مكشوفة الوجه واستوقفتني مرات لتسألني أمام باب المسجد، لا أغشك، لولا غيرة أم البنات لأخذتها لنفسي (ابتسامة واسعة) تستحق بعد كل هذا الكفاح أن تعيش الحياة التي تريدها..

صمتُ مدوٍّ، جالس في نفس المكان الذي كانت تجلس فيه النضيرة منذ قليل، تبحث في الأرض بعينيك المطرقتين، كأنك تبحث عن قطرة واحدة من دموعها التي أراقتها هنا منذ دقائق، هل جفَّت بتلك السرعة أم كانت مجرد غرغرة للعيون ضخَّمت من مفعولها العدسة المقعرة الأبوية، ما الذي يظنه هؤلاء الناس؟ ليست الانتماءات ملابس تُرتدى وتُخلع، لا تدعك مصباح جسدك السحري فتنبت لك علامات انتماءات تضعك على رفوفهم، هل

ترضى تلك الفتاة (جان دارك المعذبة) أن تتزوَّج بك هكذا، بذلك الشيء الذي كنت تسميه أيها الشيخ -بماذا كنت تسميه؟- أها.. لامبالاتي، ريش الطيور المائية، ولكني أبشرك. لو حبستموني في قمقمكم ملايين القرون فلن يتجسَّد لكم دخان جسدي المائع يوماً كما تشتهون أن يكون، لن أقول "شبيك لبيك". سأقول: (ما هذه الحياة التي تعيشونها؟ كيف تعيشونها؟) وسأظل أكررها حتى تعيدوني إلى القمقم مرة أخرى، وتضعوا سدادتها وترموني في البحر المظلم... لن أربّي شعر وجهي كما تفعلون، ولا أريد زوجة تتعوَّذ من الشيطان الرجيم كلما نظرت إلى وجهي الأملس..

- سأفكِّر.. يلزمني وقت للتفكير.

يتنهد، كأنه لم يتوقَّع إجابتك:

- حسناً.. سأنتظر ردَّك.. لا تتردَّد حالما تصل لقرار. لنبحث عن حلول أخرى ولا نتوقف عندك.

لا تنهض، لا يلتقط الآخر كتاباً من الكتب أمامه ليفتحه كما هي عادته عندما يريد إنهاء الحوار، خيط الكلام ما زال متصلاً تلوكانه دون حماس، دون كلمات فعلية، يغرق كل منكما في أفكاره الخاصة، منذ يومين تقول لك والدتك أريد أن أفرح بك قبل موتي، وكأن قلبها يستطلع سفن الفرح قبل أن يبزغ شراعها فوق الماء من الشواطيء البعيدة.

- ما الذي ستفعلونه إذا رفضت؟

- سنبحث عن آخر (يجيب على الفور).

- ولو لم تجدوا؟

- الله المستعان.. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها..

- وما إثم ذلك إن خلعت النقاب كما يريد أبوها؟

أجابك بضيق:

- بالله عليك كيف تقول هذا الكلام؟ كانت تأتي إلى هنا بوجهها دون أن لغطيه ثم أرادت أن تكون هكذا، لم يجبرها أحد منا على ذلك، ما إثم السائق عندما يختصر الطريق من طريق آخر يعرفه رغم هتاف الركاب (حسبُك ضللت)؟ ما الفارق بين وضعية الإنسان العطِش عندما ينحني ليشرب من ماء النهر، وأن تكون هناك فوق رأسه يد تغمسه فيه فتخنقه؟؟

***

كم مرة استعدت كلماته وأنت في زنزانتك؟ وكم مرة سألت نفسك ذات السؤال: هل كنت مخيراً في اختيار طريقك مثل تلك الفتاة المسكينة أم دُفعت إليه دفعاً، هل انحنيت لتشرب أم كانت هناك فوق رأسك تلك اليد التي أنبأك عنها الشيخ استعارة، ولكن ما لم تشك فيه قيد أنملة أن اليد الأخيرة كانت حقيقة راسخة فوق رأسك عندما فكرت -للمرة الألف في كلماته تلك عن اليد والغمس- وكأنها نبوءة، هل هو جزء آخر من أجزاء النبوة الخمسين غير الرؤيا الصادقة التي تأتي كفلق الصبح: مصادفات الكلام؟، تصل إلى حكمة الدنيا: النهايات نمطية مهما كان نُبل البدايات، النهاية كما أخبروك عنها، وحذَّروك منها، نيل السمالوطي وأشرف وأستاذ كامل الحذر وحتي صديق طفولتك، النهاية لا تتغيَّر، مجازاً أو في الحقيقة، نحمل فقط أجزاءها عن الآخرين فتكتمل بنا ونلتهي بها، وننقذ الآخرين من لعنة النمطية، وكأن الماء الذي تكلم عنه الشيخ في أيامك الخوالي تشبيهاً هو نفسه الماء الذي يغمسون رأسك فيه الآن، وهو هو نفس الماء الذي غُمست فيه ألف رأس قبلك، لم يريقوه رغم نتن رائحته، يحمل ذوب أفكار كل الذين غُمست رؤوسهم فيه فتجسدت -وكأنها بحبر سري- ساعة الغمس الخانقة رؤى واضحة وضوح تلك النقطة في القرص الدوار لعداد الكهرباء، تروح وتجيء، تبطئ وتسرع، ولكنها مستمرة في الحركة بجبروت المُسلمات، يتسع مدار الأشياء وربما انكسر من مكان لا تراه، ولم تكن تدرك حينها: هل انكسر المدار أم اتسع؟؟، وكيف ترى أو تدرك وكل قوة عينيك مبذولة في رؤية واحدة لا تتزحزح عنها، الشيخ الجالس على مقعده خلف الباب ينتظر إجابتك، هل ستذهب لترى تلك الفتاة وتطلب يدها أم تبحث عن غيرك؟

وكان ذلك الطبيب يخبرك -عندما زرته بعد أن خرجت من زنزانتك- أنها هلاوس تنشأ من نقص الأكسجين في الدماغ، سألك أولاً: كم مرة غطسوا رأسك في الماء ليجبروك على الاعتراف بالتفجير؟ فأجبته: ليس أقل من ثلاث

مرات، وفي كل مرة يزداد زمنها وغُشمها، فيعود ويسألك بعد أن يُسجِّل شيئاً في ورقة أمامه: وماذا كنت ترى تحت الماء؟ فتجيبه شارداً متسائلاً: خيالات.. خيالات، وكيف تجيبه بما كنت تراه حقيقة؟، وما تراه كان محض ذكريات حيوات أخرى تسعى لاحتلال ذاكرتك، وكأن الخنق تحت الماء ليس مجرد تعذيب وقتل إن لزم الأمر بل طريقة للالتفاف حول وعيك وإقناع عقلك بما تنكره. رأيت نفسك تعد قنبلة كلها أسلاك وزجاجات بسوائل ملوَّنة تغلي، رأيت نفسك مرة أخرى تضعها في شنطة سيارة تقودها إلى مدخل الكنيسة رغم تدجُّجه بالعسكر والسلاح، ترى نفسك -حتى- أشلاء لا تزال تسكنها الحياة فوق أسقف الأبنية المجاورة أربعة عشر جزءاً مثل أوزوريس بعد غضبة ست إله الشر، وفي نهاية كل رؤية خادعة كان يأتيك الشيخ فيها جالساً وهو يقول جملته: "ما الفارق بين وضعية الإنسان العطِش عندما ينحني ليشرب من ماء النهر، وأن تكون هناك فوق رأسه يد تغمسه فيه فتخنقه" فتعود إليك مقاومتك وذاكرتك، وكان الطبيب ما زال جالساً منصتاً إليك ليخبرك -أيضاً بثقة- بأنها هلاوس تنتج من نقص الأكسجين في الدماغ.

ولكنك لم ترَ نفسك تخرج من زنزانتك كما في نهاية كل مرة كانوا يأخذونك فيها، تقف على بسطة السلم قبل أن تدخل إلى شقتك وتخلع كل ملابسك وتضعها فوق بعضها على الأرض توطئة لتعبئها في كيس؛ خوفاً من تسرُّب البراغيث التي التقطها من أرضية الزنزانة إلى فرش بيتك، زوجتك وابنك واقفان على السلم من فوق بعيداً عنك يبتسمان، تضع بشكيراً على خاصرتك ثم تُسقط الشيء الأخير الذي يُغطي عورتك، ستأخذ دشاً دافئاً، لن تنادي على زوجتك هذه المرة لتطلب منها أن تدخل لتدعك الأماكن البعيدة من ظهرك باللوفة الخشنة، تشفق عليها من رؤية مواضع الوسم بالكهرباء في جسدك، ربما غِبْت في النوم لأيام بعد أن تغتسل، تصحو لتأكل

وتصلي الفروض الفائتة ومن ثم تعود للنوم، لم ترَ نفسك تخرج ذات نهار، وتذهب لذلك الطبيب؛ فالذهاب إلى الأطباء ترف لمن هم في واديك، لم ترَ كل ذلك ولكنك رأيته يخبرك بذلك بثقة: "هي هلاوس تنتج من نقص الأكسجين عند الخنق".. لا تتذكر لقاء بينك وبين الطبيب، لا في عيادته الخاصة ولا في أي مكان آخر، ولكنك تراه جالساً على الكرسي الدوار خلف مكتبة بالقلم المتأهب في يده على الروشتة الفارغة وأنت ثاوٍ على سرير الكشف عنده، ليس بعد انتظار طويل بالخارج تتبادل النكات مع الممرض، ثم تكتشف أنه: (الحوار بينك وبين الطبيب) كان ولم يكن، حدث في عالم أوهامك، تكتشف ذلك ساعة تخرج برأسك من تحت الماء الزنخ بحلاوة الروح عندما توشك على الخفوت، بعد الخفوت، قبل أن تحتويها أجنحة الظلمة الأزلية، تهزم تلك اليد الجلمودية الثاوية فوق رأسك، وربما لم تكن حلاوة روحك أنت التي هزمتها بل عِرقاً خادعاً خائناً في قلب ذلك الذي يحاول خنقك لتعترف أو تموت خنقاً، عرقاً سرسب نقطة من الدم الذي لم يتلوَّث بغشاوة القوة إلى يده فشعر بالرأس يلين ويضعف، وساعة تخرج برأسك ويضيع من رأسك أثر الهلاوس، ساعة تعود لتتنفس هواء الدنيا الملوَّث بالواقع بعيداً عن حياة الخياشيم تكتشف، أن حوارك مع الطبيب محض وهم، وأنك ما زلت داخل الأسوار المقيتة، وأنك لم تعد إلى بيتك ولم تذهب إلى الطبيب، وأن الهلاوس ليست هلاوس ماضٍ بل هلاوس مستقبل لم يكن بعدُ، وعلى إثر ذلك كنت تشعر بالبول يسيل متدفقاً بين فخذيك فزعاً.. كان فزعك الأخير.. كانت قلعتك الأخيرة تلك التي انهارت.

***

وعندما كانوا يعيدونك إلى الزنزانة بعد كل مرة يضعون فيها رأسك في الماء لا تتذكر إلا حدثاً واحداً من حياتك، كيف سارت الأمور بينك وبين الشيخ بعد حديثكما عنها، بعد موافقتك المبتسرة في نفس الجلسة أن تذهب وتراها،

كتب لك عنوانها على ورقة صغيرة في نهاية يوم عمل بعد أن رتَّب عبر ابنته النضيرة لزيارتك إليهم، وكأن تلك كانت قشة موافقتك التي تعلق بها كالغريق فوضع لك على الورقة عنوانَ مينائها البعيد: عنوان وميعاد. الميعاد كان عصر الغد، والعنوان كان يستغرق للوصول إليه -من مكان بيتك- سفر نصف ساعة في المواصلات العامة، ورغم ذلك صحوت مبكراً بتعوُّد طالب الوظيفة القديم، تستحضر نيَّتك المبيتة، تستوثق من متانة عقدة حبل سفينتك قبل أن تطوح بها الرياح إلى عمق البحر على غفلة منك، تتأكَّد من رسوخها بسلاسل الهلب الثقيل في الناحية الأخرى، وكأنك تراجع معلومات دراستك الجامعية قبل مقابلة وظيفية مهمة، وأنت تزرر أزرار قميصك وتشد على رباط حذائك، بينما لسانك يلوك الكلمات في حمَّى تفكيرك:

الزواج قسمة ونصيب، ستذهب لتراها ولن تعجبك ومن ثم سترفض وتعود إلى قواعدك الأولى، تعود إلى أوهامك وإلى نضيرتك دون أن يتهموك باللامبالاة لمأساة الفتاة المعذبة، دون أن تُغضب الشيخ ودون أن تتسبَّب في إحراجهم.

ولكنك تعود فتفكر في عائلة الفتاة، كيف ينتظرونك هناك؟ كيف أخبرتهم الفتاة المسكينة بمجيئك؟ بماذا أخبرتهم؟ زميلي في الجامعة؟ صديق شقيق صاحبتي؟ ولكنك مثلها، تذهب إلى هناك دون خريطة وصول، لم تصطحب معك أحداً من أقارب الدرجة الأولى أو صديقاً لصيقاً كما هو المتبع في الطقوس والأعراف السائدة؟ لم تخبرهم في البيت عند خروجك، ما أغرب ذلك ولكنك أحببته، بل تعمَّدت أيضاً أن تسير بعض الطريق على قدميك لتستنطق علاماته، قطط تتشاجر على أكوام القمامة وكلاب تهرول بأقدام لينة خلف بعضها، أصحاب محالّ وصنايعية يحتسون القهوة في أكواب زجاجية أمام محالِّهم وأيديهم متسخة، ربات بيوت يتهامسن في آبار السلالم

ويختلسن النظر إليك عند مرورك، كل شيء كان مختلفاً ذلك اليوم، لا علامات تعرف منها مصير رحلتك، كل مرة تذهب فيها للتقديم في وظيفة كنت ترى العلامات، في ذلك اليوم كل شيء كان ناصع البياض، هل أصبحت شخصاً جديداً أم إن هذه لم تكن رؤية عينيك أنت بل رؤية شيخ البحر فوق كتفيك، كثيراً ما سألت نفسك وأنت تقرأ الحكاية لماذا لم يتعثر السندباد طالما كان شيخ البحر فوق كتفيه راسخاً هناك يأمره ويصفعه: اذهب هنا، لا هناك، هل امتلك شيخ البحر ببيولوجته العجيبة تلك ميزة أن ينسخ رؤيته الخاصة على عين الضحية التي يصعد فوق أكتافها؛ لكيلا تتعثر به ونسي السندباد أن يذكرها؟

أسفل البيت -كما أخبرك الشيخ- محل البقالة الخاص بأبيها، كان مغلقاً فخمَّنت أنه ينتظرك، صعد لأعلى ليتجهز لاستقبالك، خاب ظنك بالتأكيد عند صعودك، لم تضغط على زر جرس الباب؛ لأن الباب كان مفتوحاً على اتساعه، صفَّقت بيدك عدة مرات حتى انتبهوا إليك، أخبرك أخوها معتذراً أن الأب مريض ملازم لفراشه، لم تطلب رؤيته على فراش مرضه حتى لا يصير الودُّ بينكما أكثر من أن يتحمَّل رفضك المستقبلي لابنتهم، لم تطلب رؤيتها أيضاً، وإن أردت ذلك لتنهي تمثيليتك سريعاً وتنصرف قبل أن تعصف ريح مفاجئة بنوافذ قلبك الرطب فتفتحها، لم يلتزموا بالبروتوكول المعروف المعتاد، لم تدخل العروس بالشاي أو المشروب الملوَّن البارد، كانت تلك أمها تجرجر قدمها بصعوبة ويفوح الود من وجهها، فاستقبلها الابن قرب الباب ليأخذ منها الصينية المنقوشة برسوم فرعونية لم تفارق بصرك حتى دخلت هي فارغة اليد، زوجتك المستقبلية، بخطوات كخطوات الرجال، واسعة ولا أثر فيها للخجل أو التردد، هل تتذكر؟ قلت لنفسك لحظتها: ها هي قد كفتك مؤنة ادِّعاء أنها لم تعجبك، لن تتزوَّج رجلاً على أية حال، كان هذا قبل أن ترفع نقابها الأسود وترى وجهها فتقرر: لن يكون

هذا لقاءً أخيراً، ولم تكن تلك رؤية شيخ البحر المنسوخة فوق عينيك، غادرك البياض وعادت إليك رؤيتك محتشدة بالدلالات والتنبيهات، أشد حتى من رؤيتك العادية التي كنت تجاهد لاستعادتها، جاهدت لتطفو فوق بحر البياض هذا الذي غرقت فيه فإذا بك تشهق ناجياً فترى -رؤية واثقة رغم أنها كالحلم- متجاوزاً كتلة اللحم والعظم وغلاف الجلد لترى -خلف ذلك البلور الذي يسمى وجهها- روحاً حبيسة مثل رعَّاش ماء ضعيف يتشمم هواء الحرية خلف فخ من الزجاج، أهذا هو الحب من النظرة الأولى أم إنه فعل الغربة في الوجوه؟ بنظرة واحدة قلت في نفسك هامساً: تلك نضيرتك الخاصة لا الأخرى، هذه لم يطعمها أبوها كما تمنَّيت الشهد والمخ وغذاء الملكات لترى من خلالها كبلور، ولكنك ترى من خلالها بالفعل كبلور، ترى كل كدمات روحها، تتجاوز بصيرتك المفاجئة تلك جدران الغرفة المحيطة بكما فترى (ليس الطوب والأسمنت وقطع القماش الرثة التي غطوا بها شروخ الحائط وقالوا لنفسهم خداعاً إنها ستائر، ديكورات الود التي أحاطوك بها ليحبسوا رؤيتك) ترى أيضاً الأب الذي لم يكن مريضاً في غرفته كما أخبروك بل رافضاً، رافضاً بعنف مجيئك ووجودك رغم تكالب أكبر أبنائه الذكور والأم عليه، ليتحوَّل زعيقه إلى همس، وتتحوَّل رغبته في ترك البيت لهم إلى اختباء منك وادِّعاء للمرض بعد أن فتح الباب فعلياً، وأوشك على المغادرة، فأبصر ظلك المتلصِّص وأنت تصعد السلالم فعاد، لقد رفضك أبوها ابتداءً دون أن يراك.

ولم يبتسم الشيخ عندما حكيت له بعد عودتك مباشرة إليه من هناك، بل صار يؤكد لك بِصَمته الواجم رؤيتك الثانية عن الأب وتصنُّعه للمرض ورفضه لك حتى قبل أن يراك، الأب يرفض أن تتزوَّج البنت إلا بعد أن تتخلص تماماً من حياتها القديمة، البنت عرفت ذلك من أبيها وربما أخبرت النضيرة فأخبرت النضيرة أباها الجالس أمامك الآن يؤكد شكوكك تلك

بنظرة يأس باسمة، كان الأمر يستحق المحاولة على أية حال، غزوة فاشلة، تُرى، ما مقدار الوقت الذي استغرقته من هناك في العودة إلى المسجد فتصعد للمكتبة، هل كان مقداراً كافياً ليسري الخبر إليه عبر النضيرتين؟، ليفتح باب مكتبته وهو يتوقَّع أنك هناك فيناديك، لم تعد إلى بيتك لتخلو بفرحتك وتزفَّ الخبر إلى أهلك لتكتمل الطقوس للنهاية، ثمة ما يكدر فرحتك رغم موافقتهم المبدئية الخالية من وجود أبيها، تُرى بماذا أخبرت النضيرة أباها الشيخ: انقطع الشصُّ وسقطت السمكة في المقلاة مرة أخرى، ولكن توجد مشكلة إضافية لم يعرفوها إلا بعد أن حكيت للشيخ، ما زال الشص معلقاً في فم السمكة، يتعذَّب وتتعذَّب به السمكة، اشتبك قدر الفتاة المعذبة وأمين المكتبة منذ ذلك اليوم، يتعذَّب وتتعذَّب به السمكة!!، دون أن يدري الشص أنه شص والسمكة أنها سمكة، اختلط الأمر عليكما فصار العذاب متبادلاً منذ ذلك الحين، في كل خطوات استكمال عرسكما المتعثر بمباركة الأم وأكبر الأبناء الذكور، تبصر هي العذاب في عينك بينما يرفضك الأب ويرفض أن يستقبلك في زياراتك القليلة متحملاً حتى يتم أمركما للنهاية، وتبصر أنت العذاب في عينها وهي تتحمل مرة بعد مرة رفض الأب استكمال حاجيات عرسها.

متذكراً، في تلك الليلة البعيدة بعد أن عُدْت من غزوتك الفاشلة الأولى لبيت زوجتك، الشيخ وهو يسألك وأنتما تهبطان درجات سلم المكتبة بعد حديثكما الطويل بشجونه المؤرقة، ولم يتقاطع ميعاد رحيلكما بعد يوم العمل إلا ذلك اليوم، هل انتظرته أم انتظرك هو؟، لا تتذكر، أمطرت السماء مطراً دافئاً دافقاً بينما أنتما واقفان على عتبة المسجد تتحدثان فأرسل لك أحد أبنائه ليجلب لك مظلته الخاصة من بيته القريب، فظللت واقفاً على الرصيف تنتظر كما طلب منك، لا تشعر ببرد الجو المصاحب للمطر، مسربلاً في دفء ابتسامته عندما سألك عن قرارك بعد اكتشافك

لتمثيليتهما المتقنة (هو وابنته النضيرة) وبعد رفض أبيها المستتر، قلت واثقاً لأول مرة في حياتك من شيء ترغب فيه:

سأتزوجها، سأتزوجها وإن وقف العالم كله ضدنا.

***

(وإذا هو بعشرة طيور قد أقبلوا من جهة البر وهم يقصدون ذلك القصر وتلك البحيرة، فعرف حسن أنهم يقصدون تلك البحيرة: ليشربوا من مائها، فاستتر منهم خوفاً أن ينظروه فيفروا منه، ثم إنهم نزلوا على شجرة عظيمة مليحة وأداروا حولها، فنظر منهم طيراً عظيماً مليحاً وهو أحسن ما فيهم والبقية محتاطون به وهم في خدمته، فتعجب حسن من ذلك وصار ذلك الطير ينفر التسعة بمنقاره ويتعاظم عليهم، وهم يهربون منه، وحسن واقف عليهم من بعيد، ثم إنهم جلسوا على السرير وشق كل طير منهم جلده بمخالبه وخرج منه فغدا هو ثوب من ريش وقد خرج من الثياب عشر بنات أبكار يفضحن بحسنهن بهجة الأقمار فلما تعرَّين من ثيابهنَّ نزلن كلهن في البحيرة واغتسلن) (ألف ليلة وليلة)

ولم تُعد للشيخ مظلة المطر التي أعارها لك في تلك الليلة المطيرة، ليس تكاسلاً ولا نسياناً ولا كما يفعل المهووسون من قبيل التبرُّك بآثار الصالحين والمشايخ، ظلَّت معك لتنتقل إلى بيت عُرسك ولا تدري زوجتك سرَّ حرصك عليها عندما تُغيبها عمليات التنظيف اليومية عن عينك فتسأل عنها بقلق، لا تدري أنت نفسك سرَّ حرصك لتخبرها به فتُسكت بعضاً من إلحاحها الباسم وغيرتها أن تكون بقايا ذكريات من امرأة أخرى، وما إذاً تفسير احتفاظك بمظلة لا تصطحبها معك في أيام المطر، سُلب منك شيء فسلبته شيئاً والحرب سِجال؟، مرة أخرى تستلهم حكايات ألف ليلة وليلة، حسن وزوجته من الجن الطيار التي خلعت ثوب الريش الخاص بها على شاطئ بحيرة لتستحمَّ فعشقها حسن وسرق ثوب الريش الخاص بها ليمنعها من أن تعود لأهلها وتزوَّجها..

كأن المظلة هي ثوب الريش الخاص بك، ظللت محتفظاً بها حريصاً على ألا تفتحها منذ ذلك اليوم وكأنه كان يمكنك أن تتصيَّد يوماً ذا مطر فتفتح

المظلة وتمشي تحتها فتعود إلى كامل حياتك السابقة القديمة، كنت تنتظر حتى تستوثق من متانة عالمك الجديد فتعيدها إلى الشيخ معتذراً بالنسيان:
- خذ مظلتك (خذ ثوب الريش، لن أطير، لن أهرب).
وكيف يمكنك أن تستوثق من متانة عالمك الجديد وأنت لم تنسَ القديم بعد، تسع عشرة رسالة من أ.نيل السمالوطي خلال سنتين تصلك على تليفونك ترتعش خفقات قلبك حنيناً لكل رسالة منها رغم ثقتك من ميكانيكيتها، رغم ثقتك أن أ.نيل لا يمسح رقماً من هاتفه بسبب أو بغير سبب، كان من المستحيل أن تعود لصديق طفولتك ولكنك كنت واثقاً من أنك ستعود إلى شلة السطح مرة أخرى، سيعود كوب الشاي الفارغ الخاص بك إلى مكانه بغرفة إذاعة أكواب الشاي التي يقدمها أشرف، لا تعرف الطريقة التي سيحدث بها ذلك، ربما ستلتقي بأحدهم صدفة في شارع فيحتضنك ويسألك عن غيابك الطويل ويأخذ عليك وعداً موثقاً بألا تتخلَّف عن اجتماع يوم الخميس القادم، قد يتصل بك أ.نيل السمالوطي ذات أمسية يوم خميس والرقم يعبر أمامه من وإلى التليفون فيتبادلون التليفون بينهم باسِمين مصرّين على أن يُحدثوك بأنفسهم، سيناريوهات عدة دارت في رأسك لم يكن من بينها أبدا احتكاك كتفين في اصطدام عابر، ولم يكن هذا احتكاك كتفين بقدر ما كان تجاذب كتلتين تآلفتا، ملتفتاً في دهشة إلى هذا الذي صدمك بكتفه عند الباب الرئيس، آخر مكان تتوقَّع أن تراه فيه، لا يمكن أن تخطئ ملامحه، أستاذ أشرف من شلة السطح، وأين؟؟ في المكتبة، من فرط دهشتك نسيت إلى أين كنت ذاهباً، نسيت كل شيء عدا طقوس الاحتفال الصاخبة التي لفتت إليكما أنظار الطلبة، فجذبته إلى مكتبك وأجلسته..
- أستاذ أشرف، لا تتصوَّر مدى فرحتي بهذه المفاجأة غير المتوقعة، أنت نوَّرت المكتبة.

ولكن يبدو أنه لم يتفاجأ بك كما تفاجأت به، وكأنه أتى خصيصى لرؤيتك. ورغم ذلك كان يتلفت حوله أكثر مما ينظر إليك:

- أنت موظف هنا؟

- نعم، طبعاً، أعمل هنا منذ تركتكم تقريباً، ظننت أنك جئت هنا لرؤيتي.

- لا لا.. جئت أستعير كتاباً.

قالها وهو يبتسم، لن يخبرك، أتى هنا باحثاً عن شخص ما ولكنه لن يخبرك، ليس لسرية ما أتى لأجله بل لأنه أشرف، لم يتعوَّد أشرف أن يكشف عن أسراره كلها دفعة واحدة، خاصة إذا كان الطرف الآخر امرأة، يقول إنه بذلك يحتفظ بسحره الجاذب للنساء ويفعل ذلك أيضاً مع الرجال -دون أن يضع يديه في جيوبه مثلما كنت تفعل- ليدرِّب مشاعره.

برغم غموض حضوره وانصرافه العاصف المفاجئ دون أن يُتمَّ كوب الشاي التي قدَّمته له إلا أن روحاً دافئةً اجتاحتك طيلة فترة ما بعد العصر، لم تنم قيلولتك كما اعتدت جالساً فلم يأتك كاتب الحلم كعادته، وبدلاً من ذلك أخذت تدندن بلحن ما استيقظ بداخلك من أغاني إذاعة أكواب الشاي حتى أغلقت المكتبة، شط اسكندرية، فكروني، رق الحبيب، بعيد عنك حياتي عذاب...

كانت زوجتك تحبُّ الأغاني التي تتذكرها لا تلك التي تسمعها، يتعكَّر وجهها بسرعة فائقة بمجرد أن تضع شيئاً منها على برنامج الموسيقى في الكمبيوتر لتسمعه، ولكنها في الوقت ذاته إذا دندنت بنفس الأغاني بينك وبين نفسك تنصت لك مستمتعة، مع الوقت وصلت معها إلى قناعة، أنها تحب الأغاني ولكنها تخاف من ذنب سماعها، هذا سبب كافٍ في رأيك لتدخل الجنة..

ما المانع أن تعود بعد كل هذا الانقطاع غير المسبب إلى شلة السطح، خاصة إذا كان السبب سيُعرف عن طريق أشرف في نهاية الأسبوع، اليوم هو يوم الإثنين، لديك وقت كاف لتتحدث مع الشيخ في أن تسند إغلاق المكتبة إلى

مصطفى يوم الخميس، لن يمانع ولكن المشكلة ليست في الشيخ أو المكتبة بقدر ما هي في الحاجز النفسي لثلاث سنوات من الغياب، بماذا ستخبرهم؟، ها أنا ذا ما زلت كما أنا لم أتغيَّر، عبرت خلال كل هذه اللحى ووصلت إلى شاطئ النجاة ولم أصبح مثلهم، أستمع معكم إلى الأغاني والتواشيح وحكايات أشرف الجنسية الكاذبة، ربما ستحكي لهم أيضاً عن تلك الحوارات العابرة الباسمة التي كانت تدور بينك وبين زوجتك في كل مرة تراك فيها تهمُّ بوضع معجون الحلاقة على وجهك.

- ألن تتركها هذه المرة؟

- لماذا؟ هل أتت بك واسطة لإنقاذها من البتر.

- لا ولكنها لم تغضبك في شيء حتى تبترها، هل تعلم أن دينها في الشرع بدية رجل كامل؟

- قرأت ذلك ذات مرة، وبتلك الطريقة سأساوي رجلين عندك إذا تركتها.

- تساوي ألف رجل إذا فعلت. تقول ذلك وهي لا تستطيع أن تمنع الفرحة من عينيها.

بسبب هذا الحديث المتكرر بدأت تحلق ذقنك خلسة في صباحات الأيام التي لا تستيقظ فيها معك مبكراً، للمرة الأولى تقوم بذلك في صباح يوم الخميس، للمرة الأولى أيضاً منذ تزوجتما تخبرها بأنك قد تتأخَّر حتى بعد منتصف الليل فلا تنتظرك على العشاء، كانت تريد أن تستجوبك عن المكان الذي ستقضي فيه ليلتك، ولكنها انصرفت قبل أن تُمرر الموس على وجهك كأنها لا تريد أن تشهد حدوث مذبحة مؤلمة، ارتديت ملابسك سريعاً، وبمجرد أن فتحت الباب وقبل أن تخرج ناديتها وسألتها عن مكان مظلة المطر، لم يكن في الجو مطر ولكنها لم تسألك وهي تحضرها لك، لقد زادت أمورك الغريبة إلى حد عدم السؤال عنها.

في المكتبة خبَّأت المظلة أسفل المكتب الخاص بك حتى تقرر ماذا ستفعل بها، كنت تنوي أن تجعل عودتك إلى شلة السطح مفاجأة، ستكون هناك قبل أن يكتمل النصاب القانوني لعدد المجتمعين، قبل أن يبدأ أشرف في الكلام، متحملاً وحدك العبء الكامل لتبرير غيابك الطويل دون تدخُّل. رتَّبت أمر إغلاق المكتبة مع مصطفى بعد أن أخبرت الشيخ، ثم جاءك الاتصال من نيل السمالوطي..

كيف حالك؟، صوته هادئ تقريري كأنك لم تغب عنهم إلا أيام، سيمرُّ عليك في سيدي بشر، اخرج إلى الكورنيش وسألتقطك بتاكس، لك الاختيار في الوقت الذي تريده ولكن قبل صلاة العشاء بالتأكيد، الساعة السابعة بالضبط؟ حسناً..

الاتصال أربكك، لم يتبقَّ من الصورة الذهنية التي كوَّنتها عن مفاجأتك إلا شظايا، تحوَّلت إلى شعور شخص محتجز في تاكس سيمرُّ ليأخذك في ميعاد محدد كسيارة سجن وكأن هناك من أوصى بتسليمك، وبعد أن ضمَّكما التاكس لم يتغيَّر شعورك كثيراً، كان جالساً بجانب السائق ليرشده إلى الطريق، استدار وبرز قليلاً فوق مقعده ومدَّ يده إليك، مصافحة تقليدية مثلما صافحك الجميع فوق السطح عندما وصلتما، وماذا كنت تتوقَّع؟ في لحظة جلوسك شعرت بالغربة الفائقة، سادت خلفية من المضغ والنهش، وجبة أسماك مُعدَّة كالأيام الخوالي وإن افتقدت دفئها، استثنوك من دفع جزء من ثمنها ترحيباً بك. وكالعادة لم يشترك أ.كامل، ولكنك شعرت أن لعدم اشتراكه سبباً آخر، أكواب الشاي وتليفون أشرف الصادح من فوق الأكواب الفارغة، كل الطقوس لم تتغيَّر ولكنها كانت طقوساً مجوَّفة، لحظات مكررة دون روح، كأنهم انبعثوا من التاريخ ليجبروك على اعتراف معين ثم يعودوا، وكنت تنظر إلى الأرض كثيراً، تنظر وكأنك تبحث عن علامة

واحدة على أنهم لم يكونوا هنا، لا الخميس السابق ولا أي خميس منذ فارقتهم، ولكنك لم تجد.

أكثر من سبع ساعات متواصلة ولم يتطرّق الحديث إلى غيبتك أو عودتك، ولكنها لم تكن طريقة لتجاهلك بقدر ما كانت طريقة لدفعك إلى الاعتراف، لم ينصرف الثنائي أ.كامل وأ.نيل عند منتصف الليل كما تعوَّدا، استمرَّ الحديث بعيداً عنك حتى قاربت الليلة على الانتهاء، حينئذ وبشكل عارض أخرج أشرف من محفظته الجلدية صورة فوتوغرافية ملونة وأعطاها لك ثم سألك:

- هل رأيت هذا الشخص من قبل؟

الصورة لشخص ملتحٍ، ربما رأيته من قبل في المكتبة ولكنها لعنة نمطية الرؤية، الهنود يشبهون شخصاً واحداً هندياً، اليابانيون يشبهون شخصاً واحداً يابانياً، والملتحون يشبهون شخصاً واحداً ملتحياً.

- لا لا... لا أتذكره.

قال في استنكار:

- إنه من رواد المكتبة؟

لم تحاول أن تعتصر ذهنك، كأنه جزء من اللعبة، تعيد له الصورة فيظل ممسكاً بها في يده.

- لم أره من قبل، ماذا بينكما؟، دَيْن أم خصومة؟

- لا لا.

النفي صدر من اثنين في وقت واحد، أشرف وأ.نيل السمالوطي، وزّعت بينهما النظرات المتسائلة، حتى أ.كامل تململ في جلسته ونظر للناحية البعيدة من السور كأنه ينفي صلته بالموضوع، أما المحمدي فنظر إلى الاثنين كأنه يلومهما على تسرعهما، حسني الوحيد الذي لم يتفاعل وظلَّ منصتاً إلى أم كلثوم، لقد اتخذ كل واحد منهم موضعه في اللعبة، إن كان

أحد فهم سيفسر لك ما يحدث فسيكون المحمدي ولا أحد غيره، إليه وجِّهت سؤالك:

- ما الذي يحدث يا أ. محمدي؟؟

- هذا الرجل في الصورة تم اغتصاب زوجته يا....

كان المتحدث أ.نيل، بلهجة تودُّد لم تسمعها منه من قبل، قاطعه أشرف بصوت عال في استنكار.

- أستاذ نيل، لو سمحت، لا يصح.

لم يبدُ على أستاذ نيل أنه تضايق من المقاطعة، ولكنه لم يصحح خطأه، ترك بداية حديثه إلى طرف آخر من الموضوع:

- هناك بلاغ مقدم في النيابة وتقرير طبي من هذا الشخص في الصورة..

قاطعه أشرف في تذمُّر:

- ملفَّق.. تقرير طبي ملفَّق.

صاح أ.نيل غاضباً هذه المرة:

لا يا أشرف، هذه ليست الأصول، تكلم أنت يا أشرف.. لن أتكلم.

ولم يتكلم أشرف ولا نيل، كان أنت من تكلم:

- ما علاقتي بالأمر؟ ما المطلوب مني؟

قال أشرف:

المطلوب منك أن تكلم شيخكم ليفاوض هذا الرجل للتنازل عن البلاغ المقدم، سنعطيه كل ما يريده من مال.

- المال مقابل اغتصاب زوجته؟

افهمني يا "سين"، لم يغتصب أحد زوجة هذا الرجل، كل ما في الأمر أن هؤلاء الناس الذين تعيش بينهم "مرضى نفسيين"، عندهم عقد اضطهاد.

الجزء الأول من جملتك ربما يكون صحيحاً فأنا لا أعلم عن قضيتك شيئاً، ولكن الجزء الثاني عن أن كل هؤلاء الناس "مرضى نفسيين" غير

صحيح، وأنا متأكد من ذلك لأني أعيش بينهم كما قلت أنت منذ قليل، أما عن موضوع التفاوض فأنا أرفضه تماماً حتى لو رضي به الشيخ، وأنا أشكُّ في ذلك، ليس هناك مال يعوِّض امرأة ولا زوجها عن هذا الفعل الهمجي.

المال يُعوِّض عن كل شيء حتى القتل، وهو شيء يسمُّونه الدية أيها المثقف.

- طيب طيب، إذا أردت أن تضع نفسك تحت شريعتهم فاحكم أولاً على ذلك الرجل الآخر الذي اغتصب تلك المرأة بالرجم إن كان متزوجاً.

نظر أشرف حوله، إلى أ.نيل، والمحمدي، كأنه يُشهدهم على كلامك، ويستنجد بهم ضدك، أيكون أشرف هو الفاعل، لا معنى لكل هذا الدفاع والاستماتة إلا أن يكون هو الفاعل، ما العلاقة بينه وبين ذلك الملتحي، ما الذي أتى بزوجته في طريق أشرف؟

- ألم أقل لكم، ألم أقل لكم، سيدافع عنهم.

- أستاذ أشرف، اهدأ قليلاً ودعنا نفكر، لماذا تحوَّل موضوعك إلى مشكلة عامة، لماذا تضع هؤلاء الناس المحترمين أستاذ نيل والمحمدي وحسني وأستاذ كامل في صف المغتصب أياً كانت علاقته بك، ولماذا تضع رواد المكتبة التي أعمل بها في صف هذا الزوج مهما كان صادقاً أو كاذباً.

- هي مشكلة عامة بالفعل يا حضرة المحترم، والمعنى في أنك لا ترى ذلك أنك صرت تشبههم. أنك ملتحٍ ولكن لحيتك داخل فمك، تظهر فقط إن تكلمت بهذا الكلام الفارغ..

- وما العيب في أن أكون ملتحياً؟ هذه حرية شخصية.

فعلاً فعلاً، وحقي الشخصي أيضاً أن تُظهر لي نفسك، ألا تكون مجرد طابور خامس لهؤلاء الناس بيننا.

- أستاذ أشرف.. لا أسمح لك.

قمت من مكانك منتفضاً في استياء، قام أشرف، قام الجميع عدا حسني الذي ظلّ مطرقاً حزيناً، حاولوا أن يجلسوك، كلمات عن التفاهم بالعقل، الصداقة القديمة بيننا، كلماتهم ومواساتهم كانت مثل خيوط عنكبوت تسقط فوقك بلطف وأنت تسير في ممر مظلم. ممر الاعتراف بأن مشروع العودة إلى شلة فوق السطح ضاع للأبد ولم يبقَ لك إلا أن تستأذن في المغادرة..

وأنت تنزل درجات السلم تعثَّرت، تذكَّرت حينها، هذه أول مرة تنزل فيها هذا السلم وحدك، تُرى هل كان سبب تعثرك الظلام أم الوحدة؟؟؟

***

ولم تشعر بضياع المظلة إلا وأنت تهيأ للنوم، لم تتذكّر أين نسيتها، في التاكسي أم فوق السطح، مفزوعاً اتصلت على أستاذ نيل فلم يرد، لا بد أنه نائم، بعد ثوانٍ اتصل بك ففتحت عليه في لهفة:

- آسف أستاذ نيل، أعرف أن الوقت متأخر، ولكني فقط أريد أن أسألك عن شيء ضاع مني ونحن معاً.

- لا عليك، خير؟

- المظلة التي كنت أحملها.

- المظلة البيضاء؟

- بالضبط هي.

- لا أتذكر بالضبط، ربما رأيتها فوق السطح قبل أن ننصرف.

- أرجوك يا أستاذ نيل، هذه المظلة هدية من شخص عزيز جداً على نفسي، تذكار مهم، أرجو أن تتصل بأشرف وتسأله عنها.

- غداً صباحاً إن شاء الله، أقصد بعد صلاة الجمعة فنحن الآن في الصباح بالفعل.

- عاجز عن الشكر، سؤال آخر.

- تفضَّل.

- ما صلة أشرف بذلك الرجل المغتصب؟

- لم يعد لسؤالك ضرورة الآن، كان حرياً بك أن تسأل منذ البداية قبل أن تتطوَّر الأمور، ولكن لإشباع فضولك ليس إلا سأخبرك، إنه أخوه الكبير.

لا تتذكر، هل أغلق للخرس الذي هبط عليك حينها فلم تردَّ عليه أم كان أنت الذي أغلق.

ولم يرد عليك أ.نيل، لا بعد صلاة الجمعة ولا في أي يوم جمعة بعدها، وإن كنت تعلم أنهم لن يجدوا تلك المظلة مهما بحثوا عنها فلا تعلم سبب هذا

الجفاء، الجفاء الذي ظلَّ يقود غضبك فيما بعد كلما عرفت جزءاً من القصة الحقيقية للحادثة..

في صباح السبت التالي ألقى شخص ما شيئاً كان من الصلابة بحيث اخترق زجاج أحد نوافذ المكتبة المطلة على الشارع الخلفي فحطَّمه، بعد أن لملمت شظايا الزجاج من الأرض ومن فوق كعوب الكتب العالية اجتهدت في البحث عن الشيء الذي حطَّم الزجاج فلم تعثر عليه. ربما لو كان مصطفى موجوداً معك حينها لوجد ذلك الشيء على الفور. وربما كان ذلك هو قدر تلك الحكاية، الوتد الذي غُرس في ظهر الجزيرة السمكة فتحرّكت بعد سنوات الغفوة، النار التي أُشعلت فشعرت بحرارتها من تحت طبقات التراب، وكان أول الناجين مصطفى وكنت أنت أول الغافلين، في المساء وجدت مصطفى أمام بابك يطرقه.

لم تسأله -كيف عرف مصطفى طريق مسكنك؟- كان يتثاءب في العين السحرية عندما نظرت فيها، متربا ويبدو عليه التعب، والأهم من كل شيء مستعداً لأن يحكي، ويا ليته ما حكى.

سألته بمجرد أن عزلتكما الغرفة المغلقة خارج حدود فضول زوجتك والشراب البارد الذي لم يُزد عرق وجه مصطفى إلا تصبُّباً.

- أين كنت اليوم؟

هل أجابك على الفور -في ذلك اليوم البعيد- (أين كان؟)، أم متراخياً في اعترافه المُعدِّ سلفاً والتي كانت الإجابة جزءاً منه، مقدماً لك على طبق من فضة جسد الحكاية التي اجتهدت في تخمينها بعد لقاء السطح، سرُّ الاستدعاء اليومي لمصطفى في صومعة الشيخ، لم يكن إلا عقرب الثواني في ساعة الألم اليومية له، يدقُّ الشيخ الجرس -ليس دقة واحدة أو دقتين بل ولولة متصلة- ليخبره بأنه يريده أن يصعد إليه بسرعة، دون الصينية، وما أشدَّ ذلك على مصطفى، يأتي إليه متذمراً عكر الوجه، فيخلو بالشيخ دقائق

ثم يخرج منطلقاً، ويعود من الخارج بعد ساعتين أو ثلاثة مرهقاً كما جاءك في ذلك اليوم، وكأنه حُمِّل هموم الدنيا كلها في ذلك المشوار البسيط.

حكى لك مصطفى المرهق وهو جالس في غرفة الاستقبال عن سر ذلك المشوار الذي كاد أن يكون يومياً، والذي لم يكن الهدف منه إلا البحث عن أحد تلامذة الشيخ المقرَّبين، إمام مسجد بعيد من المساجد التي تقع في حي من أحياء شرق المدينة. حكى لك كيف أن هذا الطالب قبل عملك في المكتبة لم يكن يغادر أسفل رفِّي الرقائق والسِّيَر وكان يُصدِّق كل ما يقرأه بسذاجة طفل خرج إلى العالم لتوِّه، لعله سقط في كتاب ما هناك ولم يستطع الخروج منه، المناقشات التي كانت تثور بينه وبين الشيخ في أثناء الدرس كانت لا تنمُّ عن الشاب الخجول الذي لم يزل مصراً على تقبيل يد الشيخ في كل مرة بعد الدرس رغم أسئلته المحرجة والتي تدور كلها حول نقطة واحدة، كيف سنصل بالدين إلى الناس إذا ظللنا في المساجد ولم نذهب إليهم، ثم بدأ يختفي عن الدرس ومن المكتبة لأيام كثيرة، تصل الأخبار إلى الشيخ أنه يستوقف المتبرِّجات ويعظ الناس في ضواحي المدينة والمواصلات العامة والشوارع النائية ومواقف الباص، يدور على أكشاك بيع الجرائد والبقالات ليخبرهم أن بيع المجلات بالصور العارية حرام، وأن بيع السجائر والمسكرات محرمة، ويدور في المكتبات العامة ليُظلِّل بقلم على الصور العارية ووجوه النساء التي هي عورة، كل هذا جعل رائحته تصل إلى أنوف ضباط أمن الدولة قبل مخبريهم، ورغم أنهم كانوا لا يتوقفون عن زيارته ليلاً والقبض عليه واصطحابه معهم وضربه بشدة إن لزم الأمر فلم يكن يأتي لينتظر الشيخ على الرصيف، وفي المرات القليلة التي يلمحه فيها الشيخ بين المزدحمين عليه بعد الدرس يؤخِّره عمداً ويظلُّ ممسكاً بيده حتى تقلَّ كثافة الناس حولهما، يتحسَّس الكدمات على وجهه بأصابعه في لوم شديد فيبتسم الآخر مطأطئ الرأس، لم يكن وجهه يخلو في أي وقت من

كدمات، وكان اللقب الذي أطلقه عليه الطلبة قد انتشر، "أبو ذر": لأنه يتمثل بشخصية أبي ذر الغفاري الصحابي المجاهد المعذَّب في دعوته، بعد سنة كاملة من انقطاعه عن الدروس عثر على بغيته وهدوء نفسه، أو لعله قرر أن يهرب من تساؤلاته، انضمَّ لجماعة التبليغ والدعوة، يتركون بيوتهم وزوجاتهم انقطاعاً إلى الله ويطوفون في القرى البعيدة والبلدان لدعوة الناس. لم ينسَهُ الشيخ، أرسل له مع مصطفى كتباً كثيرة، أرسل له دعوة عُمرة مدفوعة التكاليف للسفر إلى الأراضي المقدسة فرفضها، ربما أراد له أن يخرج من الكتاب الذي سقط فيه بعد أن يرى كيف يُغيِّر التاريخ الأماكن. لم يأذنوا له، كان أهم فرد في المجموعة، أيقونتهم، يسمونه فيما بينهم دينامو الرحلة، يستبقونه في مسجد البلدة التي ينزلون فيها، يصلي ويدعو حتى يعودوا من جولتهم وكان نجاحهم ومدى استجابة الناس لهم متوقِّف على إخلاصه هو في الدعاء.. وفي إحدى تلك الرحلات حدث ما حدث له..

في غيابه ذهبت حملة أمن الدولة لاعتقاله، الضابط المرافق للحملة الذي علمت أنه الأخ الأكبر لأشرف، أخبرته المرأة من خلف الباب (زوجي مسافر وليس هنا، فسألها أين أبناؤك؟ فأجابته: ليس لي أبناء، أنا عقيم).

أحياناً يكون بين الإخلاص والحماقة جملة واحدة، جملة من كلمتين، أنا عقيم، يجعلها الضابط تُقسم على الأمرين (غياب زوجها وعدم وجود أولاد بسبب العقم)، ومن ثم يجعلها تفتح الباب لهم، فقط لنطمئن إلى غياب زوجك؛ لأن لدينا أوامر مشددة بالتفتيش: يُخبرها، تفتح الباب ولا يُغلق إلا وقد احتوى فراغ الصالة على الضحية والملثم الغاشم، خمسة عشر من عسكرهم الشهم يحتلون السلالم ويتبادلون الابتسامات عند سماعهم صراخ المرأة وصوت تكسُّر الأشياء، مزَّق الضابط البعض من كل شيء فيها (ملابسها، شعر رأسها، جلدها)، محاولاً الوصول إلى بؤرتها المشتهاة مثل

ديك شرس ينبش الأرض بمخالبه بحثاً عن حبة قمح عفنة، لم ينله غير خدش بسيط دامٍ في رأسه وهي تدافعه فانطلق هادراً، بخيبة أمله وربما أيضاً بخيبة تماسُك شهوته حتى النهاية، يكسر الأطباق الخزفية والأكواب الزجاجية الملونة أرضاً ويدوسها بحذائه المؤمن حتى يفتتها، لم تمنعه، نجت بنفسها خلف باب آخر من أبواب الغرف وتركته يُفرغ باقي ثورته في الجمادات، ولم تفتح الباب هذه المرة بعد انصرافهم رغم كل التطمينات من حشد الجيران الذين ظهروا من تحت أنقاض نفوسهم بعد انصراف العساكر وضابطهم المبلل، اضطروا إلى كسر الباب عليها بعد أن طرقوا عليه وتكلموا عبره لفترة طويلة.

وكما لم تفتح الباب إلا بكسره لم تفتح أيضاً صدفتها التي اختبأت فيها بعد بابها لأحد ممن حملها أو ألقى عليها بعضاً من ثيابه لترتديها، لم تُجب على سؤال واحد من أسئلتهم، لم تحكِ لأحد، لم تأبه أو تستجب لسلسلة الوجوه التي تتابعت على عينيها بإشارة تعرُّف واحدة (لا لوجه زوجها عندما اتصلوا به فأتى، ولا لوجوه الأطباء الذين أثبتوا واقع حالتها عندما حملها إليهم متتبعاً نصائح من حوله في غشاوة حزنة وغضبه، ولا لوجوه فريق الممرضات الشفوقات في المستشفى العقلية التي ظلّت فيها طيلة شهرين متتابعين بعدما يئس منها ونصحه الأطباء بإلحاقها بها)، انكسر غلافها الخارجي ونفذت الشظايا إلى فسيولوجية أعضائها، فأوقفت أيضاً تتابع الصور في عينيها، مثل تلك الساعات التي تُشرخ فتتوقف عقاربها على وقت الانفجار ساعة الانفجار.

ربما كانت تتحدَّث مع الموتى الذين احترفت تغسيلهم دون أجر بعد أن خرجت من مستشفاها، مع أزواج العصافير المغردة التي كان يُحضرها لها زوجها تباعاً، يضعها في القفص المعلَّق في البلكون فتموت بعد أيام كأنها تهبط بهم إلى جُبِّ أحزانها المفزعة المسممة فتخنقهم الرائحة، هم أموات

أيضاً. وهي ميتة، يختفي أثر الكدمات من جسدها وتنمو جزر الشعر الممزق في رأسها... أيضاً يظلُّ الشعر لفترة من الوقت بعد موت صاحبه حياً ينمو.. ليس من ضمن الأموات الذين حكت لهم على أية حال الميت الحي الذي كانت تُطعمه وتغسل ملابسه، الميت الحي الذي احتمل فيما مضى عُقْم رحمها على أمل بفرج قريب فصار لزاماً عليه الآن أن يحتمل عقم روحها دون أمل على الدوام. بينما يحاول أن يُخمد من فعل تلك الرحى البشرية الدائرة بالأفكار الجهنمية للانتقام، بعد البلاغ الذي قدَّمه تلقى تهديدات إن لم يسوِّ الموضوع ويرضَ بتعويض مالي قبل وصول القضية للمحكمة، رفض ببسالة ولم يشهد معه غير عسكري واحد من أولئك العساكر. نُقل غريمه إلى الخدمة في مكان ناءٍ، كان ذلك عقابه، ربما فكَّر في تتبُّعه إلى هناك، لن يكون المتهم الأول في قتله إن فعل، قد يكون الأخير إن استطاع وفعل!، إن استطاع أن يتماسك أنفاسه وعرق وجهه ودوار رأسه عند صعود درجات السلم القليلة بفعل مرضه المزمن، ربما سينتظر ضعف أولاد عدوِّه حتى يكبروا لذلك السن الذي يمشون فيه فيذبحهم في أحد الشوارع المظلمة، لا يزيد صمته ومرور الأيام عليه لهب حقده ولا كزيز أسنانه عند رؤيته في الشارع لأحد ممن يحمل شارة الشرطة إلا حدة واشتعالاً.

حكى لك مصطفى كيف كان يعثر عليه في كل مرة حاملاً له رسالة الشيخ بأن يأتي إليه، أرسله إليه مرة بعد مرة فلم يُجبه:

بعد ما حدث لزوجته لم يعد يبيت في بيته معظم الأيام، وإنما في المساجد، يقول لي الشيخ ابحث عنه في المساجد يا مصطفى، بحثت عنه في كل المساجد القريبة من عمله وبيته، وعندما وجدته وأبلغته رسالة الشيخ إليه لم يستجب ولم يأتِ، ولكن الشيخ لا يتوقَّف عن إرسالي، أدور في كل الشوارع مثل مكوك ماكينة الخياطة، كل يوم في هذا الحال حتى تعبت، أنا متعب، وليت الأمر اقتصر على التعب، لم تبلغ الأمور هذه الدرجة من

السوء من قبل، لي أكثر من عشر سنوات مع الشيخ ولم أره متوتراً كما أراه الآن، لم أفكر جاداً في ترك العمل كما أفكر الآن، وحتى موضوع الرسائل التي نجدها في صندوق التبرعات وأحذية المصلين موضوع يحدث لأول مرة.

- أي رسائل؟

- الرسائل التي تُهدِّد بحرق المكتبة.

بدا متعباً أكثر مما جاءك، عازماً على أن تسأله فيما بعد عن تلك الرسائل، ودَّعته حتى مدخل الشارع، ولم يكن يوم الخميس ليخبرك مرة أخرى أنه يفكر جدياً في ترك العمل.

***

ولكنه لم يترك العمل. استطاع مصطفى ذات يوم أن يأتي بأبي ذر بعد أن رجاه للمرة العشرين وزاد في رجائه أن جذب يده وكاد أن يُقبّلها، في ذلك اليوم الذي لن تنساه صعد السلم جرياً ومرَّ عليك دون أن يُلقي السلام ودون أن يطرق الباب على الشيخ مقتحماً غرفته، وأخبره بأنفاس متقطعة جعل همس صوته مسموعاً بوضوح عندك:

- ينتظرك في أول الشارع الخلفي، رفض أن يصعد معي.

يهبط الشيخ وراء مصطفى بسرعة لا تليق بسنه ولا وقاره المعتاد. لا تلحق بهما ولكن فيما بعد يحكي لك مصطفى الذي سبقه وكالستار الذي يتوقف لينزاح عن مشهد أول في مسرحية درامية حزينة بتنحى جانباً ليراه الشيخ:

"أبو ذر!!"

يناديه الشيخ مندهشاً وكأنه لم يره منذ استلمت قدماه أول الشارع خارجاً من باب المسجد الخلفي. وكأن نوبة الحزن التي انغمس فيها منذ وقعت عيناه على هيكل جسده المشع لا تكاد تخنقه، لا يجيبه، لم يبتسم كما اعتاد أن يبتسم له.. بماذا سيخبره، أنه لا علاقة لتهوُّره في الدعوة بما فعله ضابط أمن الدولة بزوجته، كان ذلك قدراً كما يجمع القدر الحيوان المفترس مع ضحية ضعيفة. لا بد أن الشيخ أقام حوارات بينه وبين نفسه مرات ومرات وهو في المكتبة ينتظر أن ينجح مصطفى في العودة به، ولكنه الآن بعدما رأى وجهه يعلم أنه حتى المبيت في بيوت الله في الأرض لم يردَّ إليه جزءاً من فتات نفسه المتناثرة فكيف تردها كلماته، حول عينيه هالات من الأرق الأسود، وشرارات من الإعياء على وجهه الخالي من التعبيرات كأنه فرغ لتوّه من نوبة قيء عنيفة...

يأخذه الشيخ تحت إبطه وكأنه يتسمَّع لنبض الثورة تحت جلده من خلال جلده، لا يأمل أن يعيده لخط البداية بل فقط يأمل منه ألا يُسرع، أن يرفق بمرضه، يخبرك مصطفى بأسى: لم تنفكَّ عقدة لسان أبي ذر ولا عينه،

ى الشيخ لم يتكلم إلا قليلاً، تُرى، ما الحجج التي ساقها الشيخ إلى شبحه حواراته المتخيلة ليطفئ غضبه مرة بعد مرة، ربما زاد منها في خلوته حتى م يعد يتذكرها، والآن يقلل منها لئلا يكفر به وبالعالم وبثبات الأشياء في دارها، دفع "أبو ذر" يد الشيخ هذه المرة الأخيرة الحقيقية. وكأنه كان حاضراً كل تلك المرات الوهمية حتى سئم منه، سابق خطوات الشيخ وذاب في الزحام..

بقي الشيخ مذهولاً ينظر في أثره، نفس ذلك الذهول الذي عاد به إلى المكتبة، لم يذهب إلى قيلولته، كان هذا أول أوان فقدان السيطرة، لن يأتي مهما أرسل له مصطفى ولكنه لن يتوقف عن إرساله برغم ذلك، لم يأتِ. يتلمَّس رؤيته في درسي الاثنين والخميس فلا يراه، يعلم الشيخ أن الأمر ينمو، يقلُّ عدد الذين يأتون وينتظرونه هناك على رصيف الموجوعين، انتهت صلاحية دوائه فاستحال سُماً، يحتشد الغضب ولا ينفئ فيشعر بضغطته في العيون التي تُحدثه، يستنطقها فتهرب منه أرضاً ثم لا يعد يرى أجسادها، وكأنهم ينفضُّون من حوله، يمتلئون بغاز الغضب الذي هو أكثر خفة وطيشاً من غاز الهيليوم، فينطلقون إلى سماء الفزع الواسعة الخطرة...

***

كثيراً ما كنت تسأل نفسك في زنزانتك، أكان لهذا الحادث علاقة ببداية الأمر، بعيداً عن المسار الذي تركزت فيه أسئلة المحققين وجهودهم، أغبياؤهم وأذكياؤهم، بعيداً عن سؤال قد يكون سأله أحدهم لك بصورة عابرة فنفيت معرفتك بالموضوع، وكأن من الطبيعي أن يدفع التطرف في الفكر لوضع القنبلة أكثر مما يدفع الاغتصاب، وكأن الانتهاك وضع طبيعي يدفع للانزواء أكثر مما يدفع للهجوم والانتقام.

لماذا يُصرون على تسمية الزنازين بتلك الأسماء الغريبة المضادة تماماً لمعناها، "أم السعد" "أم الهنا" "ليلة الدخلة" "شهر العسل"، لماذا كانوا

يُجبروننا على أن نختار لأنفسنا من أسماء النساء ما نشاء شرط أن ينادونا بها فنستجيب، ومن يرفض ذلك يضربونه حتى يُغشى عليه، وحتى طرق التعذيب يسمونها بمسميات أوضاع الجماع المختلفة ويطلبون منا أن نختار منها.

ولم تحصل على إجابتك إلا في الأيام الأخيرة لك في الزنزانة، كأن الإجابات الشافية رهينة بمغادرة الدنيا. ولا تعلم ما الذي جعلهم يتركونك في مكتب التحقيق، مغشياً عليك من شدة الضرب، لماذا لم يحملوك كعادتهم إلى زنزانتك حتى تستيقظ، لم يضعوا على وجهك بعضاً من الماء لتفيق فيستمروا، تركوك بعد أن اضطرتك ضرباتهم إلى زاوية الحائط البعيدة، فصار جناحا الحائطين بمثابة اليد التي تلقَّفت إغماءتك، أُغشي عليك ثم استيقظت، لا تعلم كم من الوقت بين الحدثين ولكن ذاكرة أعضائك المتألمة كانت لا تزال متيقظة، فتحرَّكت بغريزتها بمجرد أن عاد الوعي إليها لتواصل فعل الانزواء المختزن فيها بعضها إلى بعض وغرس جسدك في الحائط، ولكنهم كانوا بعيدين عنك بطول الغرفة، لم ينتبهوا لك، يدخنون سجائرهم، هذا ما التقطه أنفك لا عيناك فلم تكن لتفتحهما حتى تستجمع نفسك من جديد، سمعتهم يتحدثون عن شخص ما (زميلهم؟ مرؤوسهم؟) تلك العينة القديمة والذين خسرهم المكتب بخروجهم على المعاش، بينما لا تتعدى موهبتهم أنهم كانوا يستطيعون أن يواصلوا ضرب المعتقلين بأيديهم نهاراً متكاملاً دون أن يُرهقوا أو ترتعش أيديهم بفعل السن، ذكروا لدهشتك اسما (ليس اسما كما توقعت من تلك الأسماء التي تخز الأذن بوقعها المؤذي، ليس عشماوي أو عتريس، كان اسم شخص عادي) تحدثوا بإسهاب عن ارتعاش الأيدي الذي يأتي قبل سنِّ المعاش بسنوات وكأنه نتيجة طبيعية لضرب البشر، ذكروا السنَّ الذي يحدث عنده عادةً ذلك الارتعاش، كدت أن تستيقظ لتخبرهم أن جدك مات في سنِّ الثمانين دون أن ترتعش

يداه، وأن أباك تجاوز عمر زميلهم (بطلهم!!!) ولم ترتعش يداه، وأن ارتعاش الأيدي ليس إلا عارضاً استثنائياً لمخالفتهم طبائع البشر، كما تسقط أسنان أفراد القبائل الآكلة للحوم البشر في سن مبكرة، ولكنك لم تستيقظ ولم تتكلم.

وكنت قبل هذا الحوار تستطيع أن تفكر في جلاديك باعتبارهم أشخاصاً مثلك، يلملمون أطراف ثيابهم عليهم عند التبول مخافة النجاسة، يرفعون أبناءهم وأحفادهم عالياً عندما يُهرعون إليهم شوقاً، يبكون بأعين مغمضة إذا حلموا بكوابيسهم الخاصة، ويضحكون إذا انزلق أحد الأشخاص أمامهم في طين الشارع، يشعرون ببدايات الفصول من تغيُّر رائحة الهواء ولون السماء وحرارة الجو عندما يفجؤهم ذلك في الصباح عند خروجهم لأعمالهم، لا من أوراق النتيجة المعلقة على حوائط المكاتب، وكل ما في الأمر أنهم مضطرون لفعل ذلك لكسب عيشهم، ولكنهم لم يكونوا كذلك كما لم يكن ضحاياهم كذلك، ليسوا بشراً كما أنك لم تعد بشراً أيضاً، كانوا مشوَّهين بنفس الدرجة وليسوا إخوتك رغم ذلك التشابه، يتآكل حجرا الرحي بمعدل ثابت بغضّ النظر عن الحجر الذي يدور، وأن الأصلح للعالم هو أن تفنيا سوياً، الجلاد والضحية، ليظهر من تحت ركام العالم النمطيون الملوثون بالخوف، فيمارسون حياتهم كما ينبغي أن تكون، النمطيون الذي ينتمي إليهم مصطفى.

***

غادر مصطفى في يوم ثلاثاء ولم يعد في اليوم التالي ولا في الأيام التي جاءت بعدها، لم يعد ليودّعك أو ليودّع الشيخ وكأنه مجرد عابر سبيل لا أكثر، رغم برودة الأيام التي تنتحر ببطء بين أرفف المكتبة إلا أنك شعرت بالحزن لفراقه. ما علاقتك بمصطفى غير زيارته الوحيدة إلى شقتك -فلم تودّعه حينها عندما غادر بقبلة على الكتف- ومئات من أكواب الشاي التي حملها إليك -فلم تشكره إثر أي من أكواب الشاي التي كان يضعها أمامك- أو تُعلمه عندما كان يأتي ليجلس معك أنك تحبه في الله، وحتى عندما كنت تفعل -في لحظات حبور نادرة- لا يُحر رداً عليك ولا حتى بنظرة امتنان تعبر في سواد عينه كضربة من جناح خفاش، وإنما هي ابتسامة عابثة وكأنه يودُ أن يصيح فيك أن تخرج من تلك الطقوس. مثل متنكرين في حفل صاخب نسي أحدهما ملامسة القناع لوجهه، فقرر أنه أحد الحقيقيين.

حتى بعد مرور أيام كافية ليبأس من عودته مرة أخرى بدا الشيخ عازفاً عن إحضار شاب آخر ليحلّ محلّ مصطفى في الكانتين، ولو وصل الأمر إلى أن يتقاسم بعض مهامه معك، ولكنك لم تسمح له بذلك.

بحكم التعوُّد ظلّ الشيخ مُصِراً على أن يضغط على الجرس من وقت لآخر نسياناً أو لعله يستحضر عفريت مصطفى الغائب. عندما كانت دقات الجرس تدوي أحياناً في الكانتين المغلق ثم تسمع خطوات على السلالم كنت تنحني برأسك وأنت جالس على الكرسي متوقعاً أن ترى مصطفى يصعد بصينيته المعتادة، تم إلغاء أمر المشاريب المجانية لطلبة المكتبة بصورة إجبارية، ولكنك لم تستطع البقاء دونها، ذات يوم قمت بشراء غلاية ماء تعمل بالكهرباء وكنت تصنع لنفسك ما ترغب فيه، وللشيخ ما يريده حسب الدقات، تضع الكوب المليء أمامه وهو شارد الذهن في كتاب ما في يده وقد لا يرفع رأسه فتنصرف، وبعد أن تجلس على مكتبك تنتظره -الشيخ- في ابتسامة حزينة عندما يفتح الباب حاملاً الكوب بين يده مشيراً لك بإيماءة:

هل عاد مصطَفى؟ فتهز رأسك أن لا، فيعود ويغيب وجهه عنك خلف الباب، ولكن لا يغيب عنك إيحاء الحزن المعلق في فضاء المكان من إطلالة وجهه التي لم تستغرق دقيقة.

***

وللمرة الثانية خلال شهر يتحطَّم زجاج نفس النافذة الخلفية للمكتبة، ولكنك في هذه المرة عثرت على الشيء الذي تسبَّب في ذلك، رسالة همجية تحملها حمامة زاجلة من الطوب الأصم، نصف قالب طوب يملأ كف اليد وورقة مثبتة فيه بخيط ملفوف عدة مرات، مكتوب فيها (سنحرقها، أخلوا المكتبة). في زوايا الورقة الأربعة مرسوم صلبان بشكل استعراضي.

تأمَّل الشيخ الرسالة التي حملتها إليه على الفور مع قلقك الشديد:

أيكون أحد رواد الكنيسة؟

- لا يضع القاتل إمضاءه على جسد الضحية.

بعثر عدة أوراق أمامه حتى عثر على ورقتين أعطاهما لك. تهديدات أخرى بحرق المكتبة مع نفس الصلبان، ليس نفس الخط.

- لماذا لم تبلغ الشرطة؟

وتقوم الشرطة بإبلاغ أمن الدولة ليقوموا بإغلاق المكتبة وإيقاف دروس المسجد. وتكون قد حققت غرض الشخص الذي أرسل صبياً ليقوم بذلك، هاتان الرسالتان وجدهما الطلبة في صندوق التبرعات. وفي حذاء طالب دائم يعلم أنه سيحملها إلى هنا.

- وماذا ستفعل؟

لا شيء، سنقوم بإصلاح النافذة مرة أخرى وشراء طفايتي حريق إضافيتين.

لا شيء إذاً، تستدير لتغادر ولكنه يناديك:

- إجلس أريد أن أتحدث معك.

جلست..

- كيف حال أولادك؟ (كان يقصد زوجتك).

- لم أندم بعدُ على الزواج منها.

- كيف الحال بينكما؟ حدِّثني عن المناقشات والكلام، النصائح الاختلاف.

- هناك اختلاف بالطبع، ولكننا لا نصل لحد الضجر من بعضنا.

هل تعرف، في العالم الذي أعيش فيه أندم على قرارات كثيرة اتخذتها في وقت معين كانت فيه الأمور توحي بصحتها، اكتشافك لهذا الخطأ يضعك أمام خيارين، إما أن تخبر الآخرين فتمنع مفاسد آتية أو تصمت وليس كل الصمت حينها من خرس الشياطين.

اطمئن.. لا أريدك أن تفكّر في زواجي من هذه الزاوية إطلاقاً.

لم أقصد زواجك، قصدت الندم، زواجك هو أحد الأمور التي تمنّيت أن أتحمّل مسؤوليتها من البداية، ولكنك سبقتني (ظلّ صامتا لحظة ولم تتكلم فقال بلهجة مختلفة) أرجو أن تتحمّل غموضي، وتشتت كلماتي هذا اليوم.

سأحاول، ولكني لن أستطيع أن أمنع عقلي من التأويل.

كما تشاء، هل اتصل بك مصطفى أو أخبرك بسبب تركه للعمل في المكتبة؟

أجبني بصدق، كم مرة هممت أن تأتي إلى هنا لتسألني عن سرّ ترك مصطفى للعمل؟

- ثلاث مرات أو أكثر.

- ولماذا تراجعت؟

- لأن مصطفى لم يخبرني بأنه سيغادر قبل أن يغادر، إذاً هو لا يهتم لي كما كنت أظن، وأنت لم تخبرني، بالتالي هذا أمر لا يخصني. ظل صامتا يقلب القلم الرصاص بين اصابعه ثم قال:

- أتذكر أول مجيئك إلى هنا، كنت تبدو متعباً بشكل غريب، أعترف لك بأنني لم أتوقف عن مراقبة وجهك منذ ذلك اليوم، لم تتغير كثيراً بعد كل هذا الوقت، أعرف هذا الشكل: لأني كنت أنظر إلى المرآة كثيراً في شبابي، وكأنك لا تنام جيداً، وكأنك تفكر في أجوبة لأسئلة كثيرة.

- لا أنام بالفعل.. لست أول من يخبرني بذلك. قلت محاولاً أن تبتسم.

- لماذا؟

حكيت له باختصار عن كاتب الحلم وسؤاله الوحيد: ماذا أكتب؟. استمع لتفاصيل حلمك المتكرر حتى النهاية دون أن يقاطعك ثم قال:

- هناك حديث ثابت عن النبي أن لا يتحدث أحدكم بتلاعب الشيطان به في منامه.

- هذا باعتبار أنه شيطان يتلاعب بعقلي؟ قلت في غضب.

- ربما، ولكن تقبَّل تفسيري بلا غضب، يمكنك أن تتجاوزه بأنه أتى من باب التعوُّد المهني، لو صُرِع شخص ما أمام رجل دين وطبيب سيختلف تفسيرهما وتصرُّف كل منهما.

- وهذا الذي أراه في نومي، يحتاج رجل دين أم طبيباً؟

- لو ذهبت للطبيب سيعطيك بعضاً من مضاد الاكتئاب، منوِّم جيد. أما أنا فسأنصحك أن تتوضَّأ قبل النوم وتقرأ المعوذتين وترقد على جنبك الأيمن. نحن نعالج الأعراض ليس إلا.. كُلٌّ حسب قناعاته.

ولكنك وجدت العلاج وتعرفه، ألم تقل لي منذ ثوانٍ إن وجهك في شبابك كان يشبه وجهي الآن؟

يمكنني أن أخبرك مباشرة، ولكن كجزء من غموض اليوم وإعطاء عقلك فرصة لتأويل المسائل، وبما أنك مولع بالحكايات سأحكي لك شيئاً قد يجعلنا نقف على أرض مشتركة أو لنقل محايدة.

- ما هو؟

حكاية عن شاب في بداية حياته المهنية، سنفترض أنه مهندس، نال شهادته العليا رغم فقره وكان ناجحاً، ناجحاً لدرجة أنهم كانوا يرسلونه لخارج البلاد في مهام للعمل تتطلب شخصاً مثله، هذه المهام كانت تدرُّ عليه مالاً لا يستطيع أن ينفقه ولا يستطيع أن يتوقَّف عن كسبه بتلك الطريقة

التي يضيع بها عمره دون جدوى. وكما نصحه الجميع، ضع لك زوجة في بيت تغلقه عليها عندما تسافر وعندما تعود تجد شخصاً يخدمك وتفرغ فيه أحزانك غير المسببة، ولكنه لا يفعل، رغم شهادة الجميع له بعدم الانحراف لم يتزوج. بلغ أربعين سنة ولم يتزوَّج، ومع ذلك كان يحافظ على الصلاة، ذات يوم يذهب للصلاة في مسجد بأحد البلاد التي يسافر إليها بانتظام، بعد الصلاة يجد شيخاً شهيراً -كما يقول الإعلان المعلق على أسطوانات المسجد- يعطي درساً للمصلين، ولأنه ليس على عجلة من أمره ظلَّ جالساً يستمع، لا يتذكَّر بالضبط ما كان موضوع الدرس، لا يتذكَّر سوى أن قنبلة يدوية منزوعة الفتيل سقطت من جزء مفتوح في سقف المسجد تماماً أمام الشيخ وهو يُدرِّس للناس وانفجرت، لا يتذكَّر، فشل في الهروب قبل انفجار القنبلة: لأن المفاجأة جندلته أم لأن هروب الناس فوق انبطاحه منعه من ذلك، كل الكدمات التي حصل عليها كانت نتيجة دوس أقدام الناس وسقوطهم عليه، وعندما أفاق قام يمشي على قدميه، ظلَّ الذهول مستولياً عليه حتى وصل إلى فندقه، خاصة عندما علم أن الشيخ رغم ما حدث قد نجا من الانفجار.. في غرفته بالفندق بدأ يستعيد لحظة الانفجار مرة بعد مرة، تفاصيل لم ينتبه لها بالوهلة الأولى وتفاصيل يحلم بها إذا غلبه النوم فتوقظه كوابيس اللحظة التي عاشها، عندما تنفجر قنبلة في مكان ضيِّق تنزع الهواء من الجو حولك، تنزع أنفاسك من أنفك وفمك، تنزع الجملة التي تريد أن تكون آخر جملة يسمعها منك العالم، تضعك في حالة من عدم التوازن والصمم، تضعك في حالة من اليأس أن تعود لحالتك الطبيعية مرة أخرى، الانفجار يُظهر معدنك في لحظة، معدن كل أيامك السابقة، وفي الأيام التالية يدور هذا السؤال في عقلك آلاف المرات: ما الذي كنت أفعله في نفسي قبل ذلك؟؟ ستحاول بعد هذا الاكتشاف أن تكون شخصاً آخر، الشخص الذي أردت أن تكونه لحظة الانفجار، ولأن القنبلة عندما تنفجر

تُسقط الثوابت ولا تعيد بناءها فستبحث عن أقرب الأشياء ثباتاً لتكون مثله، باحثاً عن أقرب الأشخاص إليك، ليس لحظة التفجير فقط بل كل اللحظات القريبة، استيقظ الشاب الأربعيني عدة مرات في الليل وفي الليالي التالية، ينظر إلى وجهه في المرآة، في إحدى تلك المرات يقرر أنه سيصبح مثل الشيخ، هكذا سيكون راضياً عن نفسه عندما يموت في المرة القادمة الحقيقية..

مندهشاً صحت:

- لم يسأل نفسه ما الذي أتى بالقنبلة إلى صحن المسجد؟ ما الشيء الذي يقوله الشيخ وجعل القنبلة تأتي إليه؟

تظل الحقيقة نسبية طيلة حياتك الهادئة، الجانب الذي ستكون فيه لحظة التفجير سيكشف لك جزءاً من الحقيقة المطلقة، الزيف من عدمه، كان إلى جانبه لحظة الانفجار رجل عجوز بحث أول ما بحث عندما أفاق عن الشيخ الذي نجا بدوره، معظم الحاضرين الذين هربوا لم يهربوا للخارج بل ناحية الشيخ، أحد الذين فزعوا ناحيته التقط القنبلة بيده وحاول أن يقذفها إلى جانب خالٍ بعيد من المسجد.. لم يكن هذا زيفاً..

- ربما كان هوساً.

ربما... ولكن الهوس لا يأتي من فراغ.. القنبلة لا تأتي دائماً من الجانب الخاطئ؛ لأنه خاطئ يتعمد الخطأ، بل لأن الجانب الصحيح الذي تلقى القنبلة على ماندته عاجز عن بيان وجهة نظره، ربما من قلة العدد أو عجز اللغة أو طبيعة التاريخ، ولكن النهاية واحدة، يصبح الجانبان في الوقت الحاسم، لحظة إلقاء القنبلة، على حق كلاهما، كل ما في الأمر أنك ستختار حينها إلى أي جانب ستكون حسب طبيعة شخصيتك، المهم، نعود إلى حكاية صاحبنا، عادت البعثة التي كان بصحبتها إلى بلاده ولم يعد هو، أرسل معهم استقالة غير مسببة، ظلّ هناك بجانب الشيخ طيلة خمس سنوات يتعلّم

منه حتى قامت الحكومة بترحيله إجبارياً. فيكفيها المشاكل التي يثيرها مواطنوها من المحيطين بالشيخ. عندما عاد لم يبحث عن عمل، بحث عن مسجد ليعطي فيه دروسه، عن طلبة علم، كتب كتباً لا يتعدى سُمكها عدة أوراق كانت في ظنِّه مهمة. ولكن أهميتها لم تصعد به شبراً واحداً في الهواء ليراه الناس خارج مسجده، ورغم أن كل الذين ذهبوا بعد ذلك إلى شيخه من بلاده ليتلقوا منه العلم كان يُعيدهم إليه. ولكنه ظلَّ مع ذلك أقل مما كان يرغب في أن يكونه، أقل مما تمنَّى أن يصنعه، وكان يشعر باللاجدوى عندما يعطي دروسه لطلبة قد لا يأتون في اليوم التالي؛ لأنه ليس لديه ما يُقدِّمه لهم. لا الكتب ولا الأمان من الخوف، يشعر باليأس، يشعر أن الأمر يمكن أن يظل كذلك للنهاية، ولكن حكايته لم تنتهِ بعد. أتى إلى مسجده ذات يوم زائر عجيب، أحد أثرياء فترة الانفتاح الاقتصادي. شخص لا علاقة له بالعلم الشرعي وإن لم يخلُ من الهواجس، رجل يعمل ليل نهار طوال أيام الأسبوع ثم يطلب من سائقه في يوم الجمعة أن يذهب به للصلاة كل فرض في مكان مختلف ببلد مختلف عن كل أسبوع، بعد كل صلاة كان يسأل سؤالاً واحداً لا يتغيَّر، سؤال كالذبابة في رأسه، لا يجد لها مسلكاً لتطير بعيداً، ولا يستطيع أن يقتلها بالمهدئات الإيمانية، القليل أجابه عن سؤاله ولم يشفِ صدره، والبعض قال له لا أعلم، أما الكثير لولا سنُّه وثراؤه لطردوه خارج المسجد، وكأنه لا يجب أن يسأل هذا السؤال. ذات يوم ذهب به السائق إلى مسجد صاحب حكايتنا، بعد الصلاة سأله نفس سؤاله، سؤال من كلمات لا تزيد على أصابع اليد ولكن استغرقت الإجابة عنه ساعتين كاملتين من الشرح، ثم طلب الثريُّ من الشيخ أن يكتب له إجابة سؤاله في أوراق يحتفظ بها معه، ثم وبعد أن أخذ الأوراق ومثل عفريت المصباح السحري وضع شيكاً موقعاً بإمضائه، طالباً منه أن يضع المبلغ الذي يرغب فيه ثم انصرف..

مرَّ أسبوع كامل والرجل الثري يتفقَّد رصيده في البنك كل يوم فيجده هو هو لم يتغير، وبعد نهاية الأسبوع ذهب إليه وبعد أن صلَّى خلفه سأله: لماذا لم تصرف الشيك؟ فأجابه: وماذا أفعل بالمال؟ نظر الرجل الثري حوله وقال تبني مسجداً غير هذا، مسجداً أكبر وفي مكان أفضل، هات الشيك، وأخذ منه الشيك وانصرف، وبعد سنة كاملة عاد واصطحبه معه ليريه الحلم الذي ظلَّ يراود الشيخ الشاب طيلة سنتين كاملتين بعد عودته من سفره، مسجد ضخم في مكان راق وفوقه مكتبة مليئة بالكتب...

- حقق الشيخ كل أمانيه في الحياة.

- لا.. اكتشف أن الجزء الأصعب في حكايته لم يأت بعدُ..

- كيف؟؟؟

- هل جربت من قبل أن تبحث عن إبرة في كومة من القش؟

- كنت لسنوات أبحث عن عمل، هذا أشد صعوبة. تبتسم.

- الحقيقة أنني كنت أسأل نفسي سؤالاً عندما أسمع ذلك التشبيه العجيب للباحثين عن الأشياء المستحيلة، الإبرة في كومة من القش. هل يجوز شرعاً أن أضيع وقتي في البحث عن إبرة ضائعة في كومة من القش، بينما من الممكن أن أذهب إلى بائع الخردوات لأشتري دستة كاملة بجنيهات؟!

- تحتاج ذلك أحياناً من باب إثبات المهارة.

أو أن تكون هذه الإبرة هي الإبرة الأخيرة على وجه الأرض، هناك صعوبة أخرى في حالتي من البحث، أن الإبرة لن يُعثر عليها إلا عندما يكتمل النصاب القانوني لكومة القش فوقها.

- لا أفهمك.

كل شيء له زمن لينضج، مثل بيضة الذهب مع الدجاجة، كل يوم بيضة واحدة، تخيَّل.. عندما أكون هنا وأغمض عيني وأسمع أصوات الطلبة أسأل نفسي: هل يوجد بين كل هؤلاء الذين أسمع أصواتهم طلبة علم حقيقيون؟

هل اكتمل النصاب القانوني لكومة القش حتى أبدأ في البحث عن الإبرة الضائعة مني؟

- مهمة صعبة وعبثية.

- صعبة جداً ولكنها ليست عبثية.. يتنهد.

- طيلة حياتي كنت أبحث عن تلك الإبرة، وجدتها مرة بعد مرة، أجمع القش ثم أبحث تحته، لم أيأس مرة واحدة، ولكن قد يأتي الطبيب فيخبرك ذات يوم: أنت مصاب بحمَّى القش نتيجة البحث الطويل!

- أصابك المرض؟؟

- تقريباً.

- مِن البحث؟

لا.. لنقل إنها الشيخوخة قبل سنِّ التقاعد القانوني، الشيب قبل الأوان، من الفزع وحبس الأنفاس، تصوَّر أنني امارس هذا الجنون يومياً، وأثناء البحث ألقى أحدهم عود ثقاب مشتعلاً أو جاءت ريح شديدة ماذا ستفعل، ستعود إلى نقطة الصفر بعد أن تحرق يدك في إطفاء النار أو تمتلئ عيناك بالتراب وأنت تُعيد القش إلى مكانه في العاصفة، ما زلت لم تفهمني؟

لا.. بدأت أفهمك الآن.

الوضع يصبح أكثر صعوبة كل يوم، كومة القش تصبح أكبر وأكبر، والحرائق لا تنطفئ بسهولة، تحرق أصابعك وتخنق صدرك وتشوِّش رؤيتك، حتى ملابسك تشعر بأنها منقوعة في الدخان، كل من يحيطون بك يهربون منك.....

غرق الشيخ في الصمت بعد جملته الأخيرة، غرقت أنت في أفكارك، أي عالم هذا ارتضى الشيخ أن يعيش فيه؛ لبقاء ملايين الكلمات فوق الأرفف، وكنت تسأل نفسك وتودُّ أن تسأله، قبل أن تدبَّ الفوضى الحقيقية، أي عالم كنت تريد صناعته في تلك الفوضى، مستمر بإصرار وكأنه لا يملك الخيار في

أن يملّ أو يثور أو يسقط تعباً، وكأنه يسير تحت أحد تلك النواقيس الحديدية التي كانوا يضعونها فوق صنادي اللؤلؤ فتختزن قدراً من الهواء لتنفسهم وتحمي أجسادهم من أطنان ضغط الماء فوقهم، وكنت تراقب وتنتظر، ينفد الهواء أو ينهار معدن الناقوس، فيصاب بالشروخ ليتبلل بما يُغرق الجميع من حوله، تراهن عليه، سيغضب الآن، حتى في تلك المرات التي يذهب إليهم في المكتب ويعود من عندهم بأثر من الإجهاد في صوته فيلغي الدرس ويطلب منك أن تخبر الآخرين بأنه في درج مكتبك، هل كانوا يعلمون -من الناحيتين- بمقدار الجهد الذي يبذله ليحجز الفوضى خلف سدودها، وكأن هدنتهم استكمال لقوة الضربة القاضية وهدنته استكمال للقدرة على تلقي الضربات من وضع الوقوف دون إهانة السقوط المدوية..
مستمراً في الكلام بعد دقائق صمته الطويلة، مرتفعاً فوق صوت أفكارك المدوّية:

هل تعلم ما هو الضروري لتكوين طالب علم حقيقي، فضلاً عن العثور على بداياته بين كومات القش الموجودة هناك، بين الأرفف، (أخذ يعدُّ على أصابعه) الإخلاص والموهبة والخلو من آفات الخوف، لم يأخذ سيدنا نوح معه في السفينة حيواناً مريضاً أو خائفاً، الفزع إن انتشر يمكن أن يقلب السفينة رأساً على عقب، حتى ترف الانتقاء ليس موجوداً، ماذا تتوقع من كل هذه الكراريس والأقلام والساعات المهدرة بين الأرفف، إما إخلاص مع موهبة ناقصة أو موهبة مبشِّرة مع عزيمة ناقصة، ثم تأتي تلك الريح أو عود الثقاب فتضيع منك حتى أنصاف الحلول التي تقبَّلتها على مضض، الخوف، أنت في صراع مع عدو أحمق لا يلتزم بالقواعد رغم أنها مُجحفة لك...
لماذا لا تترك النار مشتعلة لتحرق أصابع الذي أشعلها بدلاً من أن تحرق أصابعك أنت بها؟

كل الاحتمالات مفزعة، النار التي تشتعل لا تكتفي باليابس، أنت موجود في فنائهم الخلفي وهم موجودون في كل فناءاتك وفي عقر دارك، والعمر أقصر من أن تنتظر أن يعالج الوضع نفسه بنفسه.

ما زلت خائفاً من القنبلة.

- لست مضطراً للإجابة عليك ولن أكذب، الخوف لمن هو في مثل سني ترف، نوع من التصابي، ولكن الخوف من ضياع مجهودك في لحظة واحدة أكبر..

إذا كان الله قد أرسل الرجل الثريَّ في يوم ما من الماضي ليتمم مهمتك فلماذا أنت قلق الآن؛

لو رأيت مثل ما رأيت لعلمت أن التأييد السماوي لا يكون إلا في مراحل قليلة خلال الطريق، رغم أنك في اختبار دائم لا ينقطع. والنهايات ليست رهينة بأدائك الكلي، قد تأتي النهاية لحظة من لحظات الخذلان فينتهي كل شيء.

تنهَّد، كأنه تضايق، يريد أن ينهي الموضوع، قلت بسرعة:

إذا كنت خائفاً من القنبلة فلماذا تستدعي أشباح العداوات القديمة في تدريسك؟

ظلَّ صامتاً ينظر إليك وكأنه فوجئ. فأتممت وجهة نظرك قائلاً:

الاختلافات والخلافات، قرأت ذلك في كتب التاريخ وفي تاريخ المذاهب، لم تزدهر المذاهب المختلفة إلا في فترة قوة مذهب واحد مخالف.

- قوة الدولة أم قوة المذهب؟

- هناك ارتباط دائم بين الاثنين، قوة الدولة تعني شيخوخة المذهب الذي تحتضنه، عجزه عن القيام بدوره في إقناع الخواص من الناس، بينما ينتشر بين العوام بقوة السيف والذهب والخرافات..

وما تفسيرك لهذا؟ أعني ازدهار المذاهب المخالفة في فترات قوة المذهب الواحد؟

- بسبب الظلم، وربما لأنه عندما تكون قوياً تكون أكثر غفلة، لا يتصارع إلا الضعفاء عندما يكونون ضعفاء جميعاً.

- أو لعلها طبيعة التدافع التي وضعها الله في غريزة الخلق.

- مؤكد.

- ولكننا لا نستدعي الأشباح القديمة.. العداوات لم تمُتْ قط، كل ما في الأمر أننا نخفي أظافرنا عندما نتصافح، لكن عندما يوجد الظلام أو الضعف سيستأسد المذهب الآخر كما قلت أنت.

- وما الحل؟

أن نقتل كل رجال الدين، الديانات الثلاثة، كل المذاهب، ويعمَّ الشرك هذا العالم ثم لن يلبث أن يتعارك البشر على آلهة من حجر وطين ونبات، انظر حولك يا "سين".. البشر يموتون كل يوم بلا سبب. (كان يبتسم!).

- هل يعطيهم الاختلاف سبباً جيداً للموت؟!

- وأسباب عديدة للحياة أيضاً.

قال فجأة:

- بالمناسبة، ألا تثير كل هذه الكتب شهيَّتك للقراءة؟

أنا أقرأ بالفعل، ولكن القراءات التي أُفضِّلها ليست من نوعية قراءاتكم، أقرأ الحكايات.

لا فارق، كل هذه الكتب نوع من الحكي البطيء؛ لوصول الإنسان إلى الفهم المتكامل لطبيعة وجوده في هذه الكون.

لا بد أنك يائس للغاية حتى تفكر في أمين المكتبة أن يصبح طالب علم عندك. (تبتسم فيبتسم).

- لا أخفي عنك، فعلاً يائس!

أنا لا أقرأ إلا للمتعة وليس للتدريس، لدرجة أنني أسأل نفسي أحياناً سؤالاً؟

- ما هو؟

- هل ستوجد كتب في الجنة؟

- إجابة عن سؤالك، وبصورة مطلقة.. لو اشتهيتها ستكون موجودة، ولكن.. بعد الوصول إلى الحقيقة في النهاية لماذا نحتاج الكتب؟ لماذا يحتاج الطالب كتبه بعد أن ينال شهادة نجاحه؟

كان الليل قد أتى، سرقكما الوقت، ليل شبيه بتلك الليلة التي تركك فيها أمام المسجد حتى أرسل لك مظلته، رعدة خفيفة سرت فيك كالكهرباء عندما خرجت من الباب الخلفي بعد أن أغلقت المكتبة ولكن لا مطر، نظرت في السماء وتلمَّست رذاذ قطرات خفية على راحة يدك، لا مطر.

***

ميـــم:

رغم عزلة الجدران إلا أننا كنا نعرف متى كانت السماء تمطر خارجها، بطرق مختلفة في كل مرة، الصوت أو الرائحة أو الملابس المبللة للعساكر في خروجهم ودخولهم، لا شيء يمكن أن يصيبك بالحزن في زنزانة بقدر معرفتك أن السماء تمطر بالخارج وأنت لا تشعر بذلك، ولا شيء يجعلك تتذكر أحباءك لدرجة البكاء إلا أن ينادي عليك أحد المسجونين معك باسم غير اسمك بطريقة مألوفة، وكأن غياب عقله مع من فارقهم بالخارج سبق ذاكرة لسانه فناداك بأحد أسمائهم، كثيراً ما كان أحدهم يخبرني: أنت تشبه ابن عمي، أنت تشبه جاراً لي أو زميلي في العمل، لم يقل لي أحد من هؤلاء أبداً إنني أشبه ابنه أو أخاه إلا بعد أن تتوثق العلاقة بيننا، كنت متأكداً أنني لا أشبه أحداً ممن يخبرونني عنهم، إن ادّعاء الشبه نوع من أمراض السجن.

الشيء الآخر الذي لاحظته عن ذلك السجين الغريب بالإضافة إلى أرقه المتواصل أنه يعرف أسماء معظم المعتقلين -الدائمين معنا والمؤقتين- وبناديهم بها، كان من المستحيل أن يعرفها جميعاً؛ لأنهم أتوا بنا من مناطق مختلفة كثيرة، تعمَّدت أن أنادي بعضهم بهذه الأسماء فوجدت أن تخميني صحيح، كانوا لا ينتبهون لنداءاتي على الفور، ثم يبتسمون لي مخبرين إياي بأسمائهم الصحيحة، أحد الذين كانوا معه في زنزانته الأولى قال لي إنهم كسروا نظارته في أول يوم عند اعتقاله لذلك فهو لا يري جيداً من دونها، الغريب أنه كان لا ينسى أبداً تلك الأسماء الخاطئة المرادفة أو يخطئ فيها وكأنها تمثل أشخاصاً حقيقيين عنده!!، لم يلاحظ ذلك سواي، ذلك لأننا فقدنا الاهتمام المتبادل بيننا بعد ثلاثة أيام بالضبط، اكتشفت في اليوم الرابع أن الجميع يبتسمون في خلسات من أنفسهم عندما يجلسون فرادى.

يبتسمون دون مواقف معينة تستدعي ذلك الابتسام، أنا أيضاً كنت أبتسم مثلهم، فقدت مع مرور الوقت القدرة على القلق من الأشياء التي كنت قلقاً منها في بداية الأمر، سنتي الدراسية التي على وشك أن تضيع مني، أختي وأمي، كل الخيوط التي كانت تربطني بالخارج ذبلت بمجرد أن توقفت عن أن أرويها بالقلق. صحوت ذات صباح يوم لأكتشف أنني أبتسم رغم العذاب الذي أعايشه في كل لحظة. حتى حواراتي مع الطبيب عن جدوى كتاباتي الأدبية لم تكن لتصيبني بالحزن. حتى جروح المعتقلين وتغيُّرات الضوء على الجدران التي تُنذر بانتهاء يوم آخر من حياتي، وحده ذلك السجين كان قادراً على ذلك، على إصابتي بالحزن غير المفهوم. عندما يخطئ في أسماء المساجين الآخرين معنا كنت أصاب بنوبة حزن شديدة.

حتى ماء المطر الذي كان يلوّن الأيام ويحمله الحراس قسراً فوق ملابسهم في دخولهم وخروجهم ودوا لو جففوه قبل مجيئهم ليتفادوا الكلام مع المعتقلين. فكثيراً ما كان أحدنا (أكثرنا جرأة) يتعلق بحديد شباك الباب المصفح ويسأل: "الدنيا بتشتي بره يا دفعة؟"، فيجيبه في خشونة: "خليك في حالك يا مسجون" لم يكن مسموحاً للحراس بالتحدث إلينا في أي شيء.

أنماً كنت أحب أن يأتوا بمعتقلين جدد من الخارج، ليس لأني -مثل الجميع- لديَّ سؤال فأطرحه عليه، ولكني كنت أحب التفافنا حوله بمجرد دخوله، أقترب منه أقصى ما يمكنني ودون أن ينتبه أحد أشم الرائحة العالقة بملابسه، كل الروائح داخل السجن كانت متشابهة حتى ملابس الحراس الذين يدخلون ويخرجون، أما عندما كانوا يأتون بمعتقلين جُدد يبدو الأمر وكأن رائحة الهواء بالخارج قد علقت بملابسهم وستظلُّ عالقة بهم حتى تتخللهم رائحة السجن، أشمها فثير حنيني، رائحة الشوارع والبحر والكورنيش، رائحة القهوة والأطعمة الجاهزة واليود والملح والطحالب التي طبخها الماء الساخن من حرارة الشمس، رائحة الشمس والفضاء الحر الذي

تنطلق فيه الحواس، كانوا يضعونهم في اليوم الأول لمجيئهم بزنزانة واحدة صغيرة في نهاية الممر يسمونها زنزانة "أم السعد"، أما نحن فكنا نسميها "زنزانة الضيافة"، كنوع من التعذيب لا يسمحون لأحد منا بالتحدث إليهم، يتركونهم في جحيم الاحتمالات، تستنزف صبرهم الجميل قطرة قطرة حتى لا يتبقى في قيعان النفوس إلا الثمالة المُرة لجنون الرغبة في معرفة القادم المجهول المفزع، الشيء الذي لن أستطيع أن أنساه أنهم كانوا بمجرد خلوّ الممرات من قرقعة الأحذية يسود طنين أشبه بطنين النحل، نبدأ في نتبادل الأخبار معهم، وكانوا هم الأكثر شوقاً منا بمعرفة الأخبار، يتعلقون بحديد شباك باب الزنزانة العالي ويحنون رؤوسهم وكأنهم يمررون الكلام أو يهمسون عبر الجدران المشتركة ولا يسألون إلا السؤال الواحد المعتاد.. ليس عن شكل العذاب الذي ينتظرهم، ليس عن الوقت الذي سيستغرقونه في الحبس، بل عنها، يسألون أول ما يسألون عنها، كان علينا في كل مرة أن نجيب عن سؤال واحد متكرر لدرجة مزعجة: "هل من ضمن طرق التعذيب أنهم يحلقون اللحى بدايةً كنوع من الإذلال؟ هل يحلقون اللحى غصباً كما سمعنا"؟؟، سمعوا ذلك من العساكر الذين أتوا بهم وهم يهددونهم، لا يُعرف الصاحب الأول للشائعة ولكنها انتشرت كالحقيقة، انتشرت ليس خوفاً من الفعل ذاته بقدر الخوف مما سيليه إن كانت هذه هي البداية، أو ربما خوفاً من الفعل ذاته.. كان هذا هو السؤال على الحقيقة: "هل ينتفون الريش، هل ينزعون شاراتنا ويدهسونها تحت أقدامهم، علامات تعارفنا بعضنا ببعض فنصبح غرباء، هل يحلقون قناعات حياتنا عنوة؟؟"

فيما بيننا وعندما لا يكون بيننا وافد جديد لم نكن نتحدث كثيراً، ليس نفوراً ناتجاً من الرغبة في الوحدة والانكفاء، أو بفعل ظلام الزنزانة التي يتعطّل الضوء فيها باستمرار، بل بسبب الشائعة اللطيفة التي خرج بها سجناء الزنزانة عن سبب الانقطاع المتكرر للضوء: أن لمبات السقف

موصلة على دائرة كاميرا للتجسُّس علينا، وهي السبب في تعطُّل الإضاءة بشكل مستمر، ولم نكن نتبادل الأحاديث كنوع من الحذر الاحتياطي إلا عندما ينطفئ النور.

ولكن لماذا يتكبَّدون تلك المشقة في تتبُّع أحوال المعتقلين السرية، الجروح التي يعالجها الطبيب بمساعدتي تؤكد أن المحققين يفرطون المعلومات منهم كما تُفرط حبات الفاصوليا الجافة من أغلفتها، حتى ذلك السجين الغريب رغم إصابته لم يتوقفوا عن أخذه وإضافة كدمات جديدة إلى جسده، زُرقة الكدمات على جسده كانت مؤلمة للعين لدرجة أنني لم أكن أقترب منه كثيراً، أقوم بوضع المطهر على جروحه بقطنة مبللة وأفرد دهان الكدمات بحركات دائرية هينة من أصبعين كما علمني الطبيب، وعندما أعود إلى زاويتي في الزنزانة كنت أغمض عينيَّ فأظل أرى جروحاً ودماً متجلطاً وعلامات وسم بالكهرباء على الجلد وكدمات زرقاء.

فقدت رغبتي في الكتابة بشكل نهائي، عندما كنت أتذكَّر أنني قرأت من قبل عن معتقلين أتموا كتابة كتب بأكملها خلف الأسوار، وكيف أن الفكرة تصبح أكثر قوة كلما حبستها كنت أسأل نفسي كيف تمكنوا من فعل ذلك؟، تبقَّى معي بعض من الأوراق الفارغة الخاصة بالطبيب ولكني لم أكن أنوي أن أعيدها له، كنت أخشى سؤاله: لماذا تعيدها؟، كان رأي الطبيب أن الكتابة الأدبية نوع من الكذب المنمَّق، حتى لو كنا أحياناً في نقاشنا نتجاهل ذلك الرأي الأول كان يقول إن شخصاً مثلي لا يمكن أن يستمر بالكتابة في الأدب؛ لأنه نوع من الترف غير المتاح لنا، من ناحية أن الأدب صفة إضافية لا يمكن اكتسابها إلا باعتراف المجتمع الذي أجاهد في الأصل -بكل لحظة من عمري- لإثبات أني مواطن كامل لدرجة أن أدوس أحياناً على حقوقي كآدمي، ومن ناحية أخرى أن مجتمع الأدباء الشبهين بي لن يقبلوا بي، لا أفكاري ولا شكلي، لا ظاهري ولا باطني، وكل محاولاتي في إقناعهم ستكون

أشبه بمحاولة صديق لي كان يحاول أن يكتب كتاباً عن اللحية يعتمد كله على فكرة تأثير الملابس الفلكلورية في سلوك الشعوب، مع الوقت سأجد نفسي منبوذاً من الطرفين، مضطراً لأن أنحاز في وقت من الأوقات، حينذاك سأشعر بمدى الغربة التي وضعت نفسي فيها..

***

سـين:

ظلّ هذا الحوار الأخير معلّق بينك وبين الشيخ كأنه كان ولم يكن، كحوار دار بين موجة بحر وصدفة لؤلؤ ألقت فيها حبات رمل فانطوت عليها متألمة، بعد هذا الحوار قرّرت أن تترك لحيتك تنمو، قرّرت أن تندسّ بين الزحام، ترتدي طاقية الإخفاء لتحصل على جزء من الفهم، أهو سرار متأخر اتخذته منذ لقائك الأخير بشلة السطح، أم شيء دفعت ثمنه ولم تحصل عليه؟ تم إدراج اسمك بالفعل في قوائم الاعتقال الدورية، ولعلها كانت ضربة خفية من الأخ الأكبر لأشرف؛ لرفضك دور الوسيط بينه وبين الشيخ في قضيته.

لو كان أشرف يعلم ما كنت تمثله للشيخ لما أتعب نفسه معك، تُرى، ما الذي كنت تمثله له غير أن كنت المفتاح الصغير لخربطة كتزه الهائل؟، تثقل حركته مع تراكم الأيام فيرسلك بين الأرفف، وكأنه يُدرّبك!، تحفظ مثل تضاريس كفك ممر الفقه وممر الحديث وممر التاريخ والسير وممر الثقافة العامة والموسوعات العلمية وممر الوعظ والرقائق وممر شروحات المتون، صامتة تلك الكتب التي كان يستعيرها ويستدعيك لتعيدها، تعود صفحاتها بيضاء كما هي وكأن حتى عيناه لم تمسّها بالرؤية، تستنطق آثار الصفحات (بقعة باهتة، ثنية من الثنيات في جانب الصفحة، خط تحت كلمة من قلمه الرصاص الذي لا يفارق يده طالما كان باقياً على مكتبه)، تعود الكتب من معظم مستعيريها ملينة بفوضى من الآثار الهمجية، تكاد الصفحات التي انثُكت زبادة عن اللازم تنفتح من تلقاء نفسها إذا تركت الصفحات تسترخي بين دفتيها في كفّ يدك، أما كتبه فلا شيء يبوح لك به وكأنها خرجت من المطبعة لتوّها، ودائماً كنت تسأل نفسك نفس السؤال وأنت تعيد الكتاب إلى مكانة فوق الرف: ما الذي كنت تريد أن تستنطق الكتب عنه؟ خريطة الوصول إلى كنز قلبه، طريقة الوصول إليه لتكون أحد حواريه؟؟

لم تكن أحد حواريه أبداً، أولئك الوقورون الذين يأتونه لمرة واحدة في الشهر يختلف ميعادها كل مرة، ولكنك تعلم مجيئها من الطقوس التي تسبقها، ليس يوم الاثنين ولا الخميس، أي يوم آخر غير هذين اليومين، في الصباح يأتي بكيس القهوة ويضعه أمامك مبتسماً طالباً منك أن تعطيه لمصطفى فتى الكانتين، لا ترسله إليه على الفور فيظلُّ الكيس أمامك ينثر رائحته في المكان، لا ترسله إلا بعد أن يبدأوا في المجيء فرداً فرداً، يوارب الباب عندئذ ويتبادلون الضحكات الخافتة، وعندما يكتمل عددهم يطلب منك أن تُغلق الباب عليهم من الخارج، وكأن الباب أحدهم!، الباب الذي يشي بنحنحته الخافتة وسعاله في كل وقت لا يتسلل منه حرف للخارج رغم أذنيك المشرعتين، في أي شيء يتحدثون، هل يتحدثون في السياسة التي يمنع الشيخ التحدُّث فيها في دروسه، معظمهم كما علمت رجال أعمال وأغنياء بالوراثة يديرون عقارات ومشاريع تُدار فيها أموال أكثر من قدرتك على العد، ماذا يُدبِّرون في جلستهم تلك؟ عندما ينصرفون ينصرفون كما أتوا، فرادى.

وكان يحدث أحياناً أن تصادف أحدهم عند عودتك من المكتبة في وقت متأخر من الليل، يعرفونك بطريقتهم، يتوقفون بسياراتهم الهامسة إلى جوارك ويفتحون الباب أيضاً بهمس لتركب، ورغم رغبتك في التمشي والتحدُّث مع الناس الطبيعيين في المواصلات العامة تجيب دعوتهم وتركب معهم، لا شيء مسلٍّ في ذلك الاجتماع الثنائي القصير، صامتون هم مثل نسور عملاقة في واد صخري فارغ تترصَّد فريستها، ينظرون للطريق بحرص كأنه واجب ديني، وكنت تهبط من السيارة في كل مرة بتساؤل واحد: هل يعيش هؤلاء الناس مثلنا؟ بعضهم في مثل سنك، أغنياء، إذا كانوا كذلك فما الذي يدفعهم لاستثارة المكتب ناحيتهم؟ لديهم ما يخسرونه، المال..

الترف.. احترام النفس، لم يمروا مثلك من وادي الأفاعي أو حتى أطلوا عليه من أعلى، فما الذي يدفعهم لتذوُّق عذاباته اختياراً!!

رأيت واحداً منهم في قمة محنتك بعد أن قبضوا عليك للاستجواب في حادث تفجير الكنيسة، ربما كان أقربهم إليك سناً، لم يتحدَّث معك عندما رآك، اصطدم كتفه بكتفك وهو يخرج من غرفة مكتب الضابط المحقق، فأشار بطرف عينه إشارة خفية من بعيد فعلمت أنه لم يزل يتذكرك رغم الكدمات التي غيَّرت ملامحك، عذرت تجاهله الظاهري فالحديث بينكما قد يضرُّ بك أكثر مما قد يضر به، تكفيه مؤنة نفسه، ولم تمنع نفسك بعدها من التساؤل برغم ما كنت فيه.. بوحي ساخر، كيف أخذوه؟؟ هل طاردوه في سيارته المكيفة حتى أجبروه على التوقُّف ثم اعتقلوه؟ أم ذهبوا إليه في شقته الفاخرة فتركهم يدوسون بأحذيتهم على أبسطتها الوثيرة كحال أي طريدة؟ أم جعلهم ينتظرون بهيبة فلوسه على السلالم حتى يتصل بمن يخيفهم؟؟ تنخيل، سيناريوهات عدة ولكنك لم ترجح إلا سيناريو واحداً فقط، جالس على الفوتيل مرتدياً ذلك الشبشب القطيفة، بينما يناول سماعة التليفون لضابط الحملة ويستمع لتهنئته وهو يجيب: "سعادة الباشا الكبير، مجرد إجراءات سعادة الباشا، اسمه مدرج عندنا سعادة البا... نعم نعم سعادة الباشا، يعرف جيداً صلته بك سعادة.... ولكن الموضوع أكبر من مجرد... سعادة الباشا، حسناً سأنتظر سعادة البـ..."

يتبدل لون وجهه بينما يتسرَّب من السماعة تلك الوشوشة الخافتة المنبئة عن علوِّ الصوت في الطرف الآخر، الموضوع أخطر مما يبدو عليه، في النهاية يرتدي ملابسه ببطء بينما رتل العساكر ينشون الذباب عن وجوههم على السلالم ورئيسهم يحتسي شراباً دافئاً في الصالة، يلملم في أكياس كثيرة أشياء الحبس المنفرد التي لم تكن تختلف عن أشياء النزهة الخلوية، (معطِّر للجو، فليت قاتل للبعوض، قفازات، غيارات متعددة، صابون فاخر

أملس، وعلبة شامبو معالج لقشرة الرأس، ملابس داخلية، مزيل للعرق)، لم يصطحب معه هواءً للتنفس؛ لأنهم تركوا شباك زنزانته الفردية حُرَّ الغلق والفتح ولا اسطوانات للغوص لأنهم لم يضعوا رأسه في حوض الماء الوسخ ليجبروه على التوقيع على أوراقهم!

وكنت تتخيله في زنزانته الفردية بينما يلون واقع الحوائط الكئيب بألوانه المستعارة قبل أن يستسلم للنوم، يرشُّ الفليت أولاً ثم معطر الجو، يرتدي منامته، يزحف تحت غطائه، أفكار ما قبل النوم المعتادة (أحوال أسرته الصغيرة، لماذا لم أخرج حتى الآن، كم هي شاقة ومؤلمة الدعوة في سبيل الله)!

نفس نفس ذلك الوقت من الليل الذي لم تكن تستطيع النوم فيه ولو تثاقلت برأسك خداعاً للنوم ليأتيك بالإيحاء، تهاجمك الحيرة، لماذا الأمر مختلف هذه المرة عن كل مرة، حتى رفاق زنزانتك مختلفون، لا تعرف واحداً منهم، تحدثتم أول ما التقيتم ثم أصابكم الخرس، مستمرين في الإتيان بكم من أماكن متفرقة فتتبادلون الأسماء فيما بينكم بخفوت وتتزوون في الأركان المتبقية، ما زالوا في روعة الصدمة الأولى لطريقة اصطيادهم، كأن الأمر عشوائياً، اذهبوا فاصطادوهم من الشوارع، تماماً كما اصطادوك أنت ومن معك: في اليوم التالي للتفجير أتت سيارتهم المغطاة نصف النقل ذات اللون الكاكي مع أول ألوان الغروب، وعادت بظهرها في صمت جنائزي بعد أن دارت في الشارع الجانبي واحتكَّت في دورانها بشجرة فيكس فسقطت من فروعها بعض أوراق لم تكتمل يبوستها، وطارت منها بضع عصافير رمادية لم تنم بعد، فتحوا الباب الخلفي للسيارة مثل فم صغير على باب المسجد، ولم يستثنوا أحداً، كنت في المكتبة حينها غافلاً عما يحدث في الناحية الأخرى من المسجد، كعادتك في ذلك الوقت عند عدم وجود الشيخ والطلبة المصاحبين لوجوده تغلق المكتبة مبكراً، تخرج من الباب الخلفي، تتمشى

حتى أول الشارع لتنتظر الترام، لم يصيحوا بك: قف، بل هجموا في صمت لاهث ليطرحوك أرضاً، ولم تكن الكدمات بسبب اصطدامك بالأسفلت، خُدش ذراعاك سابقاً وأنت تقي وجهك من الأرض، ثم التفتَّ في وضع رقودك ونصبتهما كدفاع واه ضدَّ الضربات والأقدام التي تدوسك لتصنع كدماتها، بصقت أحد أسنانك الأمامية وهم يجرجرونك ولم تسمع قرقعة اصطدامها بالأسفلت، نفخت الضربات على جانبي وجهك كدمات من الصمم، رأيت قدميك تخطان في تراب الأرض الصلبة خطين متوازيين حتى السيارة الممتلئة بالشبيهين بك، رفاق مسجدك، ثم انطلقوا..

وكأنكم أعاجم لا تفقهون لغتكم الواحدة المشتركة، يأخذونكم من وقت لآخر ويجيئون بكم محمَّلين بالقلق والحزن والخرس، حتى توجُّعات التأوُّه تكتمونها تحرُّجاً عن بعضكم بعضاً، هل للخرس ما يُبرِّره هذه المرة عدا الخوف، احتشد فضاء الزنزانة الواسعة الضيقة بكم بالخوف، تُرى.. ربما هو السجين المنفرد الوحيد الذي لم يأخذوه للاستجواب مرة واحدة ولم يعرفه أحد فيكم، ربما هي لمبة الفلورسنت الوحيدة التي تعطَّلت واهتموا بإصلاحها مرة بعد مرة، لم يهتموا من قبل بإصلاح شيء، تكتمل دائرة المراقبة، عينان بشريتان في الأرض تغفلان نوماً ونسياناً، وعين في السقف لا تغفل، وكان الجدد يأتون فيقعون بعد تعارف بسيط في دوامة الخرس واختلاس النظر إلى لمبة الفلورسنت الوحيدة المضاءة ليل نهار، والخوف من السجين الذي لم يعرفه أحد، ما الذي بوسعهم أن يفعلوه أكثر مما يفعلونه، تجاوزوا الحد، يبحثون في أعماقكم عن طرف لخيط واحد ولو كان خيط عنكبوت واهٍ، ولا يزيدهم اليأس والفشل إلا جنوناً، هل ما زال الناس يعيشون حياتهم الطبيعية في الخارج رغم كل ذلك؟

ولم تكن تستسلم للنوم إلا سقوطاً مخزياً، لا يلتقط منه جسدك إلا كما يلتقط من الطعام لقيمات يقمن صلبك، توقظك في أثنائه هلاوس بصرية

وصوتية قديمة لأوقات مشابهة، يوقظ التشابه الذكريات، تطارد ذاكرتك مثل خيالات ظل على حائط حياتك القديمة، مثل الصور الملتبسة التي ترى فيها أكثر مما تحتمله خطوطها وزواياها في صندوق الدنيا بطفولتك البعيدة: وليس بفعل الجوع ولا التعب ولا الوجع، ربما بفعل الشوق والرؤية الملتبسة لتهشم نظارتك منذ اليوم الأول، ومؤكد -أيضاً- بفعل الانطفاء المتكرر للمبة الفلورسنت المسلطة فوقكم ليل نهار بضوء مبهر لا يوقفونه وكأنه نوع من التعذيب؛ لأنه في هذه الأوقات بالذات عندما ينسحب ضوؤها بفعل التعطل حيث تكون في زاويتك البعيدة تدسُّ جسدك في بطانيتك لتقيه البرودة المنبعثة من الأرض عند توغل الليل فتراهم، ترى هيئات أجساد رفاقك القدامى في رفاقك الآخرين الجدد الذين لا تربطك بهم علاقة غير التنفس المشترك في فضاء زنزانة واحدة، كأنهم انبعثوا من ذكريات ذلك اليوم البعيد، قبيل صلاة المغرب في الليلة الأولى من الليال العشر الأخيرة في رمضان عندما كانوا يأتون للاعتكاف، يُغلق النور لخداع البعوض ورغم ذلك يظل يأتي مع مجيئهم متتبعاً حرارة دفء كائن التنفس المشترك في فضاء المسجد الواسع، يُضاء فقط ذلك الضوء الأزرق الناعم لصواعق الناموس المنتشرة في فضاء المسجد والتي تصدر منها كل فترة صوت فرقعة كهربية، تزداد العتمة مع اقتراب المغرب ويصبح التعرُّف على الأشخاص بالصوت وهيئات الأجساد، يدور أحدهم ببخاخ مليء بمادة منعشة -ذلك البخاخ ذو اليد المكبسية- ليرشَّه في مواضع السجود من الصفوف تغزل حركته خيوطاً أفقية بعرض المسجد، يجذبك طنينهم فتهبط من المكتبة لتتفرج على أول لقائهم ببعض، تتحرّك ملامح وجهك التي تمغنطت من كثرة احتكاك عينيك بملامحهم المبتسمة، تتساءل.. ما الروح التي تربط بينهم، متى ستقرر أن تصبح واحداً منهم فقط لتصبح واحداً من ذلك المهرجان إن

لم تكن قد قرَّرت ذلك في حفل زواجك عندما أحاطوا بك وصار الاحتضان لغتكم الوحيدة، كأنك عائد من سفر طويل إليهم..

صرت تعرفهم بعد ذلك بعد طول تعارف بهيئات أجسادهم، بعد أن يُغلق النور، بجزء من كتف أو ذراع، بشكل الظهر من بعيد، صرت تعرفهم وصرت جزءاً من احتفالهم السنوي عندما يأتون فيصعد أولهم مَجيئاً إليك في المكتبة بعد أن يترك شنطة ملابسه بأسفل ليأخذك في حضنه بشوق مساوٍ لحزنه عند انتهاء الأيام العشر، تبكي بصدق عندما يغادرونك فلا تراهم إلا السنة التالية في نفس الميعاد بعد دورة الأيام..

ولم تكن بعدُ قد رأيت رؤية الطبيب عندما أوشكت على الموت خنقاً في حوض المياه الزنخ الرائحة، لم ترها إلا بعد أن وصلت لما بعد اليأس، أما تلك الرؤى فكانت فقط بدايات تلك الدرجة من الشوق التي تختلط عندها الحواس، الشوق لأن تعود الأيام كعهدها القديم عندما كان يأتي زوار الليل فيأخذونكم ثم تعودون إلى بيوتكم بعد يوم أو يومين، يبعث الشوق الرؤى المختلفة عن واقع مؤلم صارم كحائط خرساني، ليس فقط هيئات الأجساد التي تختلط بل الأفعال التي تقوم بها الأجساد، ينفضُ رفاقك الحاليون بطاطينهم قبل النوم فترى فيهم رفاقك السابقين، هلاوسك البصرية، يفعلون كما كانوا يفعلون في كل مرة تُعتقلون فيها، كل أربعة أشهر، وكانت مرات كافية لتدرك أن الذين يأتون معك كمعتقلين لا يتغيرون كل مرة وكأنكم موجودون في جداول ثابتة لديهم، يُشمِّرون عن سيقانهم في أول ليلة التي تجمعكم فيها أسوار الزنزانة الضيقة، يُهينون صالة الزنزانة كأنهم يُهينون ملعباً للعب الكرة أو معتكفاً في المسجد، مشكلتهم المزمنة كانت في البراغيث، يُغرقون الأرضية بالماء والفنيك وينتظرون وقتاً طويلاً حتى تتشرَّبها الأرضية بالكامل قبل أن يفرشوها بأغطيتهم التي اصطحبوها معهم، ومع ذا تظلُّ البراغيث تقفز على وجوههم في الأيام التالية، كل مرة

كانوا يأتون بحلول جديدة، أحد المرات أعطوا حارسهم خمسة جنيهات ليأتي لهم بكومة من قش الأرز، كوَّموا أغطيتهم على أذرعتهم وأشعلوا النار برذاذ بنزين في القشّ المتناثر على الأرضية، هولوكوست البراغيث، يسمعون طقطقة انفجار أغلفتها الكيتينية ويبتسمون، ولكن عندما عادوا في المرة التالية كان قد تكاثرت، يضعون في وسط صالة زنزانتهم "قروانة" مليئة بالماء والصابون لاصطيادها، يُنَفضون الأغطية فتقفز البراغيث من مكان لآخر، ولا بد أن تمرَّ في قفزها بمركز المساحة الحرة التي تقفز فيها، تسقط في ذلك الفخ الصابوني منعدم التوتر السطحي، تغرق، لا يحملها الماء، يصبح قاع الماء بعد زوال الرغاوي البيضاء كأنه مليء ببرادة الحديد الصدأة، جثث البراغيث الغارقة.

تبتسم بوجه لا تستطيع أن تبسط عضلات الابتسام فيه دون أن تؤلمك الكدمات وأنت تراهم، هلاوسك، وهم يتقافزون فوق أغطيتهم كأنهم يُفزعون قبيلة من القرود وليس براغيث لا تراها ولو أجهدْت عينيك...

عندئذ تتذكَّر ميم..

***

لم يكن ميم طالب علم من الطلبة دائمي التردُّد على المكتبة، عندما بحثت في سجلات الاستعارة وجدت أنه يأتي مرتين كل شهر تقريباً، تتبعت آثاره كياناً مجازياً في الكتب التي يستعيرها، لم تكن نوعية الكتب التَي يستعيرها مألوفة عند الآخرين، هي ذات الكتب التي اجتذبتك لقراءتها بعد بحث طويل في المكتبة عن إجابات لأسئلتك.

تتبعت عناوين الكتب وخمَّنت -بحدس قارئ يحبُّ الحكايات وليس حدس الأكاديمي- أيها سيفيدك، تصعد السلم رفاً رفاً حتى الرف الأخير متحسساً كعوب الكتب كأنما تستنطقها عن أسرارها، ثم تسحب الكتاب وتتصفحه واقفاً حتى تجد بغيتك فتأخذه تحت إبطك كغنيمة ساخنة إلى مكتبك لتواصل التمعن في سطوره، وكانت صحراء المجلدات الجرداء تستحيل مع الزمن مساحة عشب ثم تنمو فيها أشجار نخيل ثم ينبثق آبار ماء، كل هذه الكتب كانت موجودة من قبل لكنك لم ترَها، هل يجب أن نقرأ تحت سيطرة أيديولوجيات خاصة لنفهم أم يجب أن نتحرر منها قبل أن نقرأ لنصل إلى الفهم الصحيح المطلق؟ هل تحررت من سيطرة فكرة واحدة عنهم كانت مسيطرة عليك أم نُسخت رؤيتهم على عينيك فصرت ترى كما يرون؟

كانت تتكشَّف لك فيها منارات بين فضائها الواسع، إنها هوايتك القديمة في استنطاق الكتب من آثارها عمن قرأها قبلك، وكأن عبر الصفحات خيطاً يداعب أصابعك لتجذبه، خيوط الصفحات المطوية، صفحات في كتب كنت تجد فيها زخماً محبباً لك، كثافة من الإجابات عن الأسئلة التي تبحث عنها، تندهش مرة بعد مرة، بعد أن تضع علامة في ذلك الموضع من الكتاب لتعود إليها فيما بعدُ، يبدو وكأن شخصاً أتى بعدك سراً فثنى الصفحة بأكملها ثم أعادها لوضعها، فظلَّت تحمل ذلك الأثر الباهت، خط طويل يذبح الصفحة لشخص لا يحترم جسد الكتاب كما تحترمه.

ثم تكتشف بعد عدة كتب وعدة صفحات، تلك العلامات، الصفحات

المطوية، كانت موجودة قبل أن تقرأ. فقط أنت لم تلحظها من المرة الأولى. إنها ليست لشخص يأتي خلفك يتتبعك بفضول بل هي نقاط من رأس قلم في فضاء أبيض تنتظر منك أن تصل الخطوط بينها لتصل إلى الشكل النهائي لفهم مختلف. تلك الصفحات المطوية لم تكن أكثر من علامات طريق إلى خريطة الكنز.

ثم بدأت تبحث بعد ذلك عن تلك العلامات، صارت ربان سفينتك الحائرة. تأخذ الكتاب وتقلب صفحاته رويداً رويداً حتى تلتقط عيناك ذلك الأثر الباهت لصفحة مطوية. فتضعه تحت إبطك غنيمة ولكن باردة دون تعب البحث..

وكنت تجد الإجابات، عن تلك الأسئلة التي تفكر فيها وتلك الأسئلة التي ستفكر فيها. ثم يأتيك ذلك الخاطر يوماً ما، إذا كانت كل الكتب تمرُ على أمين المكتبة -الذي هو أنت- ويُسجّل مستعيرها، رقم بطاقته واسمه، فلا بد أن هناك قاسماً مشتركاً أعظم في مستعيري تلك الكتب التي وجدت فيها تلك الصفحات المطوية، اسم واحد كان يأتي ليستعيرها كلها كتاباً تلو الآخر، وبمجهود ليس ببسيط كانت الأسماء تختصر نفسها، تتكثف، هناك واحد فقط الذي استعار كل هذه الكتب تباعاً، لا بد أنه مرَّ عليك. حسب تواريخ الاستعارة لم يأتِ معظمهم منذ ما يزيد على شهر، وكنت تبحث في الكتب التي تُعاد لك عن الصفحات المطوية الطازجة الطي، لم يتركك الأمل أنك يوماً ما ستجده، تتحدث معه، هو شبيهك، جزءك الآخر، ربما لا تراه؛ لأن ظهره التصق بظهرك أول لقائكما معاً في معركة واحدة تحاربان فيها نفس الأشباح، تتسليان بالثرثرة عبر صفحات مطوية واحدة كما يتسلَّى المحاربان وقد خلا عليهما ميدان الحرب في نهاية معركتهما وأحاط بهما الأعداء من الجانبين بذكر بطولاتهما القديمة، لا ريب أن النهاية ستكون واحدة، لا ريب أن نفس الرمح الذي سيطعنه سينفذ عبرك، رمح الغربة...

***

ميـــم:

لم أكن أحلم عندما أيقظني الطبيب وهو يهزُّني بعنف شديد:

- استيقظ، السجين في حالة حرجة، ربنا يستر.

***

سـيـن:

وكانت رغبتك في لقاء "ميم" تزداد يوماً بعد يوم، يُخفِّف من شدة تلك الرغبة مجيء كاتب الحلم إلى نومك بانتظام، لم يعد قاصراً على المكتبة بل صار يأتيك أيضاً في البيت، تستيقظ من نومك الأول بفعل الأرق الناتج من التفكير في حياتك الجديدة، وعندما تعود للنوم مجبراً يجيء كاتب الحلم..

وكان عادةً ما يجيئك فيظلُّ صامتاً بعد أن يسألك سؤاله الاعتيادي الأول: ماذا أكتب؟، يقلب في أوراق دفتره مثل موظف نمطي يسترجع ذكريات عمل قديم، ويبتسم ويهز رأسه متعجباً (أحلام قديمة؟ أحلام مثيرة للسخرية.. أحلام لم تتحقق)، وينظر لك من حين لآخر كأنه يتأكد من بقائك، كأنه هو من يحلم بك لا أنت! سألته في إحدى تلك المرات بمجرد أن جلس في حلمك:

لماذا لا أحلم؟ أنا بالذات.

أولاً.. كل البشر يحلمون، ولكن هناك من ينام نوماً كاملاً لا تقلقه أحلامه، فينساها عندما يصحو، وهناك من يستيقظ في أحلامه فيتذكرها عندما يستيقظ، أما أنت فلا تحلم، ببساطة لأنك لست نائماً.

ولماذا تأتيني ما دمت لست نائماً؟

لأجعلك تحلم، لأخفف من التفاف قبضتك بالواقع، تشبّثك بمدينتك.

قرأت منذ شهور قولاً لجلال الدين الرومي يشبه كلامك الآن، كان يقول: "حين يخلد للنوم من عاش في مدينة طويلاً يحلم بمدينة أخرى حافلة بالخير أو بالشر وتنمحي من فكره مدينته.

لن يدرك أن ما يراه خلال حلمه هي مدينة أخرى، ليست مدينته وأنه غريب فيها إنما سيعتقد أنه مولود فيها، وأنه عاش وسطها طوال عمره".

أهذا ما تقصده؟

ابتسم بود وهو يقول بعد لحظات صمت وتأمُّل للكلمات:

ربما.

ولكنه كان يتكلم عن الجنة.

المعاني أشرس من أن نكبح زمامها.

ولكن أين أنا الآن؟، في أي المدينتين، المدينة الحقيقية أم مدينة حُلمي؟

المدينة الحقيقية هي مدينة حُلمك وهي المدينة الأولى التي لا يمكنك أن تُغيّرها، أما المدينة الأخرى فهي مدينة الخير أو الشر حسب ما تفكر أنت فيها وتصنعها، هي المدينة التي تعيش فيها وتغيرها وتتغير بها.

ولكن جلال الدين الرومي وصف الأمر وصفاً معكوساً عما تقوله.

كما أن في المرآة ترى أن أذنك اليمنى هي أذنك اليسرى والعكس، وكأن جلال الدين الرومي كان ينظر في مرآة العالم عندما قال قولته تلك.

هل أنا نائم الآن؟

بصورة نسبية، لا، بصورة مطلقة، الحياة نوم، الموت نوم، النوم هو أن تنسى ما كنت فيه وتقتنع بما تحلم به، يتوقف الأمر دائماً على الحالة التي تصحو عليها، ربما تظل نائماً أو تنام وأنت لم تزل مستيقظاً، على سبيل المثال أنت مغمض عينك الآن ولكنك لست نائماً، أنت نائم ذلك النوم الذي يكون حتى تمر الأزمات.

مثل أهل الكهف؟

أهل الكهف ليسوا حالة نادرة من تاريخ البشر، انظر حولك وانظر لنفسك، ألقيَ النوم على أهل الكهف بعد هروبهم ليناموا، تحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ليظنهم من يراهم أنهم مستيقظون بينما هم يحلمون، هل كانوا يحلمون بمدن الخير التي يتمنونها أم مدن الشر التي

هربوا منها، لم يتقدم بهم العمر أو تقدم بهم تقدماً طفيفاً ثم استيقظوا فوجدوا أظفارهم وشعورهم طويلة للغاية، ووجدوا انفسهم جوعى، فأرسلوا أحدهم لإحضار طعام لهم وحذروه من أن يراه أحد فيُعثر عليهم، نسوا المدن التي حلموا بها لثلاثة قرون كاملة وعادوا ليبحثوا عن مدينتهم التي هربوا منها رغم أنها اندثرت، مدنهم القديمة التي لم تزل باقية وراسخة في أذهانهم، ثلاثة قرون من الحلم لم تُزل منها بيتاً واحداً ولم تُنقص شارعاً من شوارعها، هل سألت نفسك يوماً ما وأنت تقرأ حكايتهم أي المدينتين أولى بأن يُصدِّقوا وجودها، هل الحقيقة أن يروا النقيضين في لحظة من اليقظة الحقيقية ثم يموتون، عكس كل أولئك الذين يحلمون ويعيشون في أحلام المدن الأخرى المختلفة ويموتون فيها وهم نائمون.

كأنك تقصدني؟

ليس تماماً، غير أنك تدهشني رغم ذلك، لا أنكر، طريقتك في تحسُّس وجهك كلما استيقظت، طريقتك في النظر إلى ظلك عندما تسير وحدك في الشوارع، اختلاسك النظر في المرآة وكأنك ترى شخصاً آخر، منذ أن تركت شعر وجهك ينمو لترضي زوجتك تبدو أكثر شبهاً بأهل الكهف عندما استيقظوا فوجدوا شعورهم وأظفارهم طويلة، أنت الآن لا تستطيع أن تعود إلى مدينتك التي كنت خائفاً منها وكنت تعرف كيف تنجو فيها بالهرب، ولا تستطيع أن تعيش في المدينة الجديدة التي استيقظت فيها وتبدو ملائمة لتستمر في الحياة متخفياً.

ولكني لم أفعل ذلك لأرضي زوجتي، في كل وقت كان لديَّ الخيارات، يمكنني أن أستيقظ الآن، ويمكنني أن أعود فأنام وأحلم بمدينتي القديمة.

عندما تهتف لمن حولك أن كل الخيارات متاحة لك لا يعني بالضرورة أن فرص تلك الخيارات متساوية لديك، أي الخيارين سيصنع اختلافاً كبيراً، ولكنك لست نائماً وبالتالي لن تحلم، ولست مستيقظاً فلن ترى مدينتك الأولى عندما تفتح عينيك، أنت في حالة وسط.

مثل الأرق المرضي، مرض البرايون، عدم النوم حتى الموت؟

تلك الأمراض النادرة ما هي إلا أعراض بقائكم في هذا العالم الذي لم تولدوا فيه، إنها الحمّى التي تصيب المسافر حينما ينتقل من مدينته ويبيت في مدينة أخرى، إنها طريقة أجسادكم لتكسر الحواجز فترى وتشم روائح ورؤى مدنكم الأولى، ولكن اطمئن، لن تموت بسبب الأرق، حالتك ليست كاملة فجسدك نائم ولكن عقلك هو من يأبى.. والعقل عندما يمرض لا يموت الجسد.

توجد نظرية جميلة أخبرني بها أحدهم لتفسير كل ما أمر به الآن.

ما هي؟

أنا نائم ومستغرق في النوم وأنت مجرد تلاعب شيطاني.

ربما رأيت ابتسامة سخرية على شفتيه، رجل الحلم لا تظهر على وجهه دهشة أو سخرية أو حزن أو غضب، كان هذا انعكاس أفكاري على وجهه، قال لي:

يمكنك أن تفكر بتلك الطريقة ولكني سأظل أتيك رغم ذلك وأسألك.

قرأت عن حكاية ذلك العابد الذي كان يأتيه الشيطان كل ليلة على شكل طائر فيحمله إلى الجنة فيصلي فيها طوال الليل، حتى قرر ذات يوم أن يتوقّف عن الصلاة؛ لأن الجنة ببساطة لم تُجعل للعمل وإنما جُعلت للمتعة، ظلّ جالساً حتى الفجر ثم جاء الطائر ليعود به، فرفض أن يترك الجنة، وغضب الطائر وأخذ يضربه بجناحيه وهو يرفض أن

يعود حتى أشرقت الشمس، فوجد نفسه فوق تل من القمامة.. عندما قرأت حكاية ذلك العابد سألت نفسي: لماذا تكبَّد الشيطان كل هذه المشقة؟، هل ليُبطل عمل العابد أم لمجرد أن يسخر منه؟ ماذا لو استمرَّ العابد في الصلاة بالجنة كما أوهمه الشيطان. فوق تل القمامة في حقيقة الأمر، خاصة أن ثواب العمل بقدر النية حتى لو كان تلاعباً شيطانياً، السؤال الآن، الشاهد من الحكاية: لماذا تأتيني؟ هل أنت شيطان أم ملاك أم حديث نفس وسخرية ثقيلة؟؟؟

لا شيء من الثلاثة، أنا مجرد مرض نادر كما قلت من قبل (يبتسم) أو أحد أعراض ذلك المرض.

وكيف أشفى منك؟

لا تبحث عن المتناقضات فيمن حولك، سيرهقك ذلك، ابحث عن التشابه.

أبحث عن "ميم"؟؟

لا أعرف "ميم، ولكن.. ابحث.. لا تتوقف.

***

ولكنك لم تر "ميم" إلا بعد أن جاءك كاتب الحلم للمرة الأخيرة وأنت خارج السجن، في المكتبة. وكان صوته لا يزال في أذنك عندما فتحت عينك في ضوء النهار.. النهار الذي رأيت فيه "ميم" لأول مرة.

ذلك الاسم، ذلك الوجه الذي كان يطوي ظله بتوجس في طرقات المدينة، يصعد سلالم المسجد بعد صلاة المسافر في باحته، يضع أمامك الكتب التي اشتراها من الخارج كما هي قوانين المكتبة في اللوحة المعلقة خلفك. والتي تقول إنه يجب تسليم الكتب الخارجية لأمين المكتبة، ملفوفة في أوراق الجرائد ليس لغرض حفظها بل بغرض إخفائها عن الأعين، أوراق ملتصقة بفعل عرق اليد والإطباقة الطويلة عليها لوقت طويل وليس بفعل الطيات غير المحكمة، ربما احتاجت منك إلى أن تخدشها خفية في أماكن ضعفها لتتفتح كصدفة لؤلؤية رويداً رويداً مع حركة هواء مراوح السقف، متوجساً تنظر حيث اختفى بين أرفف المكتبة: خشية أن يعود فيراك تنبش في أشيائه، يظهر عنوان أول كتاب، الإخوة كارامازوف، تتسارع دقات قلبك تسارعاً مخيفاً، تتماسك بإعجوبة بينما يتلوَّن وجهك باللون القرمزي. إنه هو، إنه "ميم"، تسحب من بين الكتب الملفوفة كراسته الزرقاء، هل تسرق الآن حاجيات رواد المكتبة؟، وكانت الدقائق التي قضاها بين أرفف المكتبة أزمنة، يضع أمامك الكتاب الذي يود استعارته، ما اسمك؟، تسأله فيجيبك، تبحث في الأسماء التي صارت مختصرة إلى حد بعيد، تجد اسمه، مرة أخرى: اسمك بالكامل لأسجله بالكامل، تريد فقط أن تتأكد وأن تنفي الوهم عن أذنيك، لصيق ظهرك.

ميم.

وكنت تحتاج جهداً هائلاً لتنطق ما مرَّنت عليه شفتيك طيلة ساعة كاملة:

هو أنت إذن؟ أخبرني لِمَ تطوي الصفحات في كتب المكتبة التي تستعيرها؟

***

ميـــم:

تنمو مساحات الوحشة والألفة في داخلنا تجاه الأشخاص الذين يسكنون حياتنا بصورة مؤقتة أو دائمة. تتبدل تلك المساحات وتتغيَّر كحدود دول صغيرة متناحرة متعادلة القوى، لا يأبه سكان حدودها عند استيقاظهم في الصباح على أي جانب أصبحوا بقدر اهتمامنا نحن بذلك. كانت تتملكني الحيرة طيلة حياتي كيف يصبح أشخاص بعينهم هباءً منثوراً بعد أن كانوا يملأون سمعي وبصري، وكيف يكتسب أشخاص آخرون أهمية مفاجئة ووجوداً خاصاً بعد أن كانوا لا شيء. لا نبوءات أولية كالملاحم الإغريقية، لا أشخاص يطاردونك كالقدر، لا موائد منبسطة ولا فضفضة ولا زوَّار غامضون يهمسون لك بالحقيقة ثم يهربون مع أول شعاع شمس. إنها المكابدة وفقط.

طيلة إقامتي مع الطبيب في الزنزانة لم أره يصرخ أو يعلو صوته كما كان في تلك الليلة التي أيقظني فيها. أخذ يدقُّ على الباب الحديدي حتى كلَّت مفاصل أصابع يديه الاثنتين وحتى بَحَّ صوته. لم يجبه في النهاية سوى صوت شخص نائم غاضب بأن ينتظر حتى الصباح. عاد الطبيب وجلس في مكانه إلى جواري. كانت هناك حشرجة خافتة مخيفة تأتي من ناحية المريض وكأن ثوب من الزجاج الرقيق يتهشم ببطء في مريئه. بعد أن هدأت أنفاسه قال لي إننا سنتناوب السهر عليه. اخترت أن تكون المناوبة الأولى لي. قلت في نفسي: ربي لا تجعله الشخص الثاني الذي يموت وأنا أسهر بجانبه.

قمت فجلست إلى جواره. فكَّرت في نفسي: لم أكن بهذا القرب منه أبداً منذ اتى معنا. أعني في حرية تفحُّص ملامحه. تأملته. عينان مُسدلتان وخدوش كثيرة على الوجه وفيما عدا ذلك كان يشبه شخصا التقيته يوماً ما وطلب لي كوباً من الشاي دون سابق معرفة بيننا. نعم.. نعم، إنه أمين مكتبة

المسجد الكبير بجانب الكنيسة. جزء من حكاية عجيبة حدثت لي قبل القبض علي بأيام. ما زلت سيئ الاعتقاد تجاه أمناء المكاتب. انقرض أمناء المكتبة الودودون كما انقرضت الديناصورات، حتى في مكاتب الاستعارة المجانية. يتعاملون معك في استعارة الكتب كأنك تقطع من جلدهم الخاص. بالإضافة إلى ذلك لا بد أنهم يكرهون القراءة كنوع من التفاعل البيولوجي مع مفردات بيئتهم. مرضى السكر يعملون في محالّ الحلويات. النحيفون فاقدو الشهية يعملون في المطاعم. أمناء المكتبة يكرهون الكتب وقارئيها. أو ربما يأتون بهم كذلك كنوع من المهارات المطلوبة في استمارات التقدم للوظيفة. الشخص المناسب في المكان المناسب. كل أمناء المكتبة يكرهون روّادها. لا يطلبون لك الشاي بتلك البساطة بعد سؤال عدائي "لِمَ تطوي الصفحات في كتب المكتبة التي تستعيرها؟" وعندما يسألونك: "ماذا تقرأ؟" فهم مخبرون في أمن الدولة ليس إلا. حتى إذا كانوا ملتحين!

لهذا تركت كوب الشاي الذي قدَّمه لي أمين مكتبة المسجد وانصرفت؟ عندما سألني عن اسمي للمرة الثانية انتبهت إلى عينيه. ليست عينَي أمين مكتبة أصابه الملل من تكرار الأسماء المتشابهة. يُمثِّل اسمي عنده شيئاً ما مهما غير استعارة الكتب. لم أستطع أن أكتم نظرة تندمي لحظتها. سحب كرسياً من حواره ووضعه لي. قال لي: اجلس.. بيننا كلام كثير. اختلست النظر إلى الدرج الذي يسحبه قريباً من بطنه وأنا أنحني لأجلس. ثمة أسماء في تلك الورقة التي يخفيها، أسماء مشطوب عليها. كل ما ينقصها فقط أن تُختم بـ"تم التحري عنها" أو بـ"تم تبليغها". وأسماء مكررة. هل كان اسمي من بينها؟ نعم.. مكرراً عدة مرات، ربما أعاد الخوف ترتيب حروف الأسماء الأخرى فصارت شبيهة بحروف اسمي، هو الخوف وحده الذي جمَّد يدي فلم أمدَّها إلى كوب الشاي الذي أحضره لي، وبقيت تائهاً في دلالات الكلمات

التي يقولها حتى نهض ليرشد أحد زوَّار المكتبة فالتقطت لفة كُتبي وتسرَّبت من الباب عبر السلالم إلى الخارج.

والآن ها هو ذا أمامي مرة أخرى، لم أقترب منه لأتأكد ولكنه فتح عينيه فجأة، نظر لي نظرة طويلة كأنه يعرفني ولكنه لم يتكلم، الآن ها هو ينظر لي دون أن يتحدَّث، كان راغباً في الحديث في المرة الأخيرة التي التقينا فيها، والآن هو صامت مثل قبر أو مشروع قبر، زحفت على ركبتي حتى صرت قريباً منه وهمست: أنا أعرفك، أنت أمين المكتبة في المسجد، هل تتذكرني؟ أنا "ميم"، لقد قدَّمت لي كوباً من الشاي.

ولكنه لم يرد، عاد فأغلق عينيه وابتسم.

***

كانت ليلة مؤرقة، حتى بعد أن تسلَّم الطبيب مناوبته لم أستطع النوم، ظلَّ السجين يئنُّ بخفوت، قبيل الفجر بقليل نمت نوماً عميقاً، استيقظت على أنين أبي، اندفعت إلى حيث كان نائماً، حاولت أن أكتم الدماء المندفقة من فمه ولم يكن في إمكاني أن أفعل شيئاً آخر، استيقظت أمي وأختي على صراخي ووقفتا مفزوعتين أمام باب الزنزانة، لم يكن فزعهما بسبب الدماء ولكن بسبب أنهما يعلمان أن أبي مات منذ سنة كاملة، وأنني أحاول إنْقاذ شخص ميت، عندما فتحت عينيَّ رأيت عيني "سبن" تُطل عليَّ من أعلى، نما الثلج على ظهري وطفرت الدموع من عينيَّ وهو يهمس لي:

أنا أعرف أنك "ميم" كم كنت أتمنى أن أقابلك في مكان غير هذا، كراستك الزرقاء الضائعة وأوراقي على الرفِّ الأخير، ممر كتب التاريخ، احتفظ بهم، أشكرك.

ولكنه كان راقداً في مكانه عندما استيقظت في الصباح، وكان الطبيب للمرة الثانية يدقُّ على باب الزنزانة بعنف أشدَّ.

***

الجزء الثاني

(وفيه ما حدث لـ"ميم" بعد خروجه من الزنزانة وتتمة حكاية "سير الحزينة)

ميـــم:

لا يزال موجوداً ذلك الأثر الباهت لكوب الشاي الذي قدَّمه لي "سين" على منضدته الصغيرة عندما ذهبت للمكتبة في المرة الأخيرة، وضعوا المنضدة بجانب الحائط وتركوها هناك ترثي صاحبها، ملاحظ بشدة حذر رواد المكتبة من لمسها والاصطدام بها، ملاحظ لدرجة أنني سألت نفسي: هل يمكن أن يأتي اليوم الذي نتوقَّف فيه عن الحركة؛ لأن فضاء الأماكن من حولنا قد تلوَّث بأثار الموتى، نظلُّ ندور حولها كما ندور حول شواهد قبورهم لئلا ندوس عليها مخافة الإثم وذنب النسيان، لهذا السبب لسنا خالدين؟، يأتي من بعدنا من يتحلى بالنسيان فيعودون للحركة مجدداً وكأن شيئاً لم يحدث.

وضع لي سين كوب الشاي وذهب بين الأرفف فهربت عبر السلم، ربما ترك كوب الشاي مذهولاً عند عودته فلم يمسها، لم يحملها إلى فتى الكانتين ولم يُنادِ عليه ليأتي فيحملها فطبعت أثراً من رحيق السكر الباهت، ما زال على المنضدة يوسوس لي بالبوح لأخبركم عن "سين"، ولكن.. من أنا على أية حال؟

أنا هو، "ميم"، لم أجئ إلى هذا العالم عبثاً، ولكن العبث هو الذي يمكنه أن يجيء إليَّ ليعطلني عن كل ما أودُّ أن أقوله لكم، أفكِّر في ذلك الآن وأعلل لنفسي، ربما كان هذا قدري منذ البداية وأنا لا أدري، أن أقع في العبث قبل أن أصل، أن أحترق في السماء بلا أدنى كرامة مثل نيزك ضئيل، فلا أُخلِّف إلا نشع ضوء يذوي قبل أن يصل إلى العيون لتراه.

"ميم" يمكن أن يكون الحرف الأول من اسمي، يمكن أن يكون الحرف الأول من ديانتي، يمكن أن يكون الحرف الأول من اسم فرقتي التي أنتمي إليها،

دخلت إلى هذه الدنيا مثل المرة الأولى التي دخلت فيها إلى سور المدرسة الواسعة، على الجوانب الثلاثة من مساحة الفضاء التي كانت ميداناً لانطلاقنا غير الحذر رأيت أفواها مظلمة تمتلئ بالظلام وأشباح دكك خشبية، علّمونا أن نقف طوابير. ونسمح لتلك الظلام أن يبتلعنا فنصير جزءاً من أسمه، فصل "أولى أول، أولى ثاني..... في المساحة الخضراء التي تطلُّ عليها الفصول والتي صارت ميدان حرب لنا عندما يطول زمن الفسحة لسهو الفراش المسؤول عن ضرب الجرس أو لاجتماع المدرّسين مع الناظر فنتبادل قذف قنابل التراب الورقية والهجوم بالعصي يؤطر هجومنا سابق تصنيفنا الذي لم يكن يعني شيئاً عند الكبار سوى أن يُبقونا حزمة واحدة في طوابير الصباح وأفواه الفصول.

أنا "ميم" ولكن الحق أقوله لكم الآن، ليس "ميم" فقط هو الحرف الأول من اسمي. ليس يكفي حتى ليشرح مُسَلَّمات ديانتي وقناعات فرقتي. ولو أخبرتكم معه بكل حروف الأبجدية الفقيرة كما لم يكفِ انفجار تلك المطبعة المجازية لنظم قصيدة لشكسبير، لا يكفي أن أخبركم ولو اصطنعتم كل الاهتمام وكل الإصغاء الزائف وكل التفهُّم، فبيني وبينكم مساحات شاسعة من الغربة ولغة تحطَّمت حروف الفهم فيها فلم يعد فيها إلا حروف المشاكسة والعداء.

أعلم أنني أعني لنفسي أكثر مما تخدعكم به نمطية حواسكم القاصرة فترسم لكم صورة الجلد والعظم والشعر والأظافر ولا شيء آخر، أعني لنفسي أكثر مما تتحمّله كل الصباحات التي لم أستطع فيها عند شروق الشمس أن أكون كما ينبغي أن أكون، فكنت كما يريد لي الآخرون أن أكونه، أعني لنفسي أكثر مما علمتني أمي إياه في صمت، أن ألملم بقاياي وأدفنها بعيداً عن أن يدوس الناس عليها فأظلَّ عزيز البقايا، كما لم أستطع أن أكون عزيز الكُلّ، تحتفظ معظم فجوات الحوائط المتصدعة في بيتنا

ببقايا شعر أمي الذي خرج به مشطها فأرسلتني لأدفنها هناك بعد أن صَنعتْ منها كرات صغيرة. صنعتُ لنفسي كرات مثلها ولكن ليس من شعر بل من حروف أبجديتي التي لا أجرؤ الآن أن أواجهكم سوى بحرفين منها، ودسستها في كل الحوائط التي مررت بها في عالمي، لا أريد بذلك أن ألطخ العالم ببقاياي اعتراضاً على تجاهله إياي، أريد بذلك أن أعني لنفسي أكثر من أن يتخلف عني بضع غازات متطايرة وجرامات من مكونات معدنية تمتصها نباتات تربتي، عنيت لنفسي أكثر من أن أفنى ببساطة، لذا أنا هنا الآن.. لألعب لعبة الكتابة كعادة سيئة لا أنفكُّ عنها، ربما حتى تقرر أجزاء الدهون الضاغطة على الكبد أن تصير مرضاً مؤرقاً، ربما حتى تقرر جزيئات الكولسترول المبحرة في عروقي بأمان أن تكفَّ عن التجوُّل المتلصص وتهبط لتنتظر دورها فتضرب ضربتها الأخيرة، ربما سأترك تلك اللعبة، مضطراً حينذاك.

أهم ما يمكن أن تسألوني إذا تركت لكم حرية السؤال، لماذا لم أكن "سين" وكنت "ميم"؟، لماذا أنزوي إلى بدايات الكلمات (أو نهاياتها!) بحروف مُعجَّمة لا تعني لكم شيئا مثل قبطان ينزوي إلى حافة سفينته الغارقة ليلقي على العالم آخر نظرة له قبل أن تغرق، لماذا أقتحم ديكوراتكم السخيفة وأختبئ فيها وأحدثكم منها متقمصاً لغتكم ومتجاوزاً فدادين الغربة بيننا، لماذا لا أبقى في ذلك الديكور الذي اعتدتم شكله واعتدتم أيضاً عند رؤيته أن تغمضوا عيونكم حتى تمروا أو يمر وأن تسدوا مواضع السمع منكم حتى تنتهي صلصلة الصوت الزاعق، بمعني آخر لماذا لم أكن "سين" عندما مات؟ على الأقل لماذا لم أكن هناك وهو يغمض عينيه للمرة الأخيرة ثم آتي الآن لألوّث نبل تلك اللحظات التي لم أكن حاضراً فيها بكلماتي، لماذا لن أكونه ما دمنا محض حكايات مكرَّرة موبوءين بنهايات واحدة.

وما يهمكم من اسمي أو هويتي غير ألا أكون -عندما يمسك قارع الجرس حلقته في ساحة العالم ليهزها- تائهاً وحيداً مثيراً للشك والأسئلة المريبة. أن أنحاز إلى صفي فأخوض معاركم الخاصة كما تريدونها أن تكون، ضدكم أو معكم والنتيجة واحدة للكل، الجنة التي تتسع للجميع في النهاية، ألا تتسع للجميع؟؟

يذكر "سين" في أوراقه التي عثرت عليها حكايةً ما حدثت له. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتخيله.. بحماس أول أيام له في العمل بالمكتبة، دون توجيه من الشيخ. دون تنويه، إنما هي ملاحظة عند مروره بين أرفف الكتب فحاول من تلقاء نفسه أن يستدركها. تلك البطاقات من الورق الأبيض المقوى المعلقة على أول صفوف الكتب ذات النوعية الواحدة لإرشاد الطلبة، والتي محا الزمن الحبر المكتوب به بحيث لا يمكن قراءتها فتفقد الغرض الذي وُضِعت من أجله، يأتي "سين" ببطاقات جديدة، يكتبها واحدة تلو الأخرى وينزع البطاقات القديمة، يسترشد بالبطاقات القديمة في التسمية عدا بطاقة واحدة مُحيت تماماً، يصعد على الأرفف ويقرأ كعوب الكتب ويقرر، ليكن هذا القسم "ديانات أخرى"، ذات يوم يذهب الشيخ بين الأرفف (صدفة؟، هل أبلغه أحد الطلبة بهذا الخطأ الفاقع فأتى) عائداً من تلك الزيارة بين الأرفف والتي لم يفعلها منذ تسلَّم "سين" عمله معه، ويلقي بعبارته، لا هي حاسمة ولا هي متراخية:

إن الدين عند الله الإسلام، لا توجد ديانات أخرى، توجد مِلل.

ربما تململ "سين" في دخيلة نفسه، تضايق من الملاحظة، ربما تأخَّر لأيام حتى قام بتغيير البطاقة، ربما لم يُغيِّر جسم الجريمة برمَّته، فقط قلب البطاقة على ظهرها وكتب بفتور "مِلل أخرى"، يذهب الشيخ مرة أخرى (متعمدا؟ أو كما في المرة الأولى باحثاً عن كتاب لا يعرف مكانه غيره؟

مستطلعاً أحوال الطلبة هناك في الخلوة بين الأرفف العالية؟)، ومن ثم يأتي ويضع أمامه البطاقة التي كتبها بنفسه في صمت باسم "مِلل ونِحل"

هذا الاهتمام المرعب بالكلمات، هل قلت بين كلماتي السابقة (صُدفة)! لم يذهب الشيخ بين الأرفف صدفة، لا شيء يحدث في كوننا صدفة كما يقول السلفيون (أو كما تقول الكتب التي ينكفئون على دراستها ليل نهار)، كل شيء يحدث بقدر. عثرت على أوراق "سين" فوق أعلى رف من تلك الأرفف قدراً وليس صدفة

أقسم لي الطبيب أن "سين" لم ينتقل من مكانه، ولم يتكلم معي وأنا نائم- وها أنا ذا أعثر على أوراقه بالفعل، ليس صدفة، أثناء نزولي من فوق السلم لمحت البطاقتين، بطاقة الشيخ النهائية وبطاقة سين المُعدَّلة، فوق بعضهما بنفس الدبوس الضاغط، عندما قرأت حكاية البطاقات بعد ذلك في أوراقه أشرقت ظلمات جهلي، لا شيء يحدث صدفة.

لطالما سألت نفسي: لِمَ قُتل (سين) بالذات دون غيره ممن استجوبوهم؟ لا أعرف كيف كان التحقيق يسير معه، يبقى هذا سراً مغلقاً على أطرافه لا سبيل للوصول إليه، ولكن كان السؤال يطرح نفسه مرة تلو مرة بعدد النهارات التي تفصل قراءتي لأوراقه وحتى يومي الذي قررت أن أجلس فيه إلى أوراقي وأكتب فيه هذه الكلمات، لماذا كان "سين"؟؟، ألأن سين لم يكن قد طرح كل تساؤلاته بعدُ وحصل على إجابات شافية لها؟، لم يفرز صَدفة دفاعاته بالصمت المطبق كما فعل غيره وفعلت أنا، لم يتعلم كما تعلم غيره من سائر الحروف الأبجدية أن ينحاز إلى الصف عندما يسمع قرعة الجرس وبقي هناك في الفضاء الذي يخز أعينهم، أسيراً لدهشته، متلكأً قليلاً، متململاً قليلاً، واضعاً البطاقتين فوق بعضهما بدبوس ضاغط واحد (قناعاته وقناعات الآخرين التي لا يُكذِّبها ولا يدَّعي تصديقها) فأتت الكلاب فعقرته في لجلجة حيرته.

خرجنا بعد خروج "سين" بقليل، أو بالأحرى بعد خروج جسده النازف الموشك على الخفوت. اكتشفنا فيما بعد أن الحادث الذي تمَّ اعتقالنا من أجله -الانفجار- كان محض لعبة مدبَّرة لإعادة الأمور إلى توازنها الأول. كنا جزءاً من الفوضى كما كنا جزء من إعادة التوازن. يبدو هذا للوهلة الأولى عادلاً. يبدو هذا للوهلة الأولى مفعماً بالإيمان. أنه مهما بلغت نسبة ذكائنا ومراوغتنا للقدر الضاغط على حركتنا بإحكام لم ولن نكون أفضل حالاً مما حدث قبل تلك الليلة التي سمعنا فيها أن "سين" مات ولا الليلة التالية. تسرَّب الخبر مثل غاز مخدِّر عبر الحوائط فألقي على جميع الزنازين تراب السكون، تسرَّب من مكتب الضابط بطريقة لا يعرفها أحد، وليس بالضرورة ذلك الضابط الذي كان يبحث عن أخبار كهذه ليبثَّ الفزع فينا أثناء استجوابنا وكان يخبرنا باستمرار أنه يريد سماع قصص حياتنا من الألف إلى الياء حتى عدد المرات التي مارسنا فيها العادة السرية في سنوات المراهقة. بالتأكيد صار السجناء -مع هذا الضابط أو غيره- بعد سماع الخبر أشدَّ تعاوناً، أكثر خوفاً وأكثر اعترافاً بآثامنا. غير مدركين -الضحايا وجلاديهم، لا نحن ولا هم- أن سلخ الشاة بعد ذبحها (كاستثناء في عالم البشر عن عالم البهائم) يصبح واجباً ثقيلاً للطرفين على حد سواء.

بالتأكيد قبل أن يتسرَّب الخبر أتت تلك المكالمة للضابط المسؤول من رتبة أعلى قليلاً، بالتأكيد لم يسرسب نقطتين من البول في بنطلونه فزعاً عند سماعه خبر موت "سين" في المستشفى التي نقلوه إليه بعد النزيف الذي أصابه نتيجة الضرب والتعذيب المفرطين، لم تشتبك أنفاسهما اللاهثة المتهمة في سماعتي التليفون على الطرفين مثل كلابات زوجين من الكابوريا الشرسة، لم يندفق الأدرينالين في العروق ليلتهم عشرات السعرات الحرارية ليفرز ذلك العرق كربه الرائحة تحت إبطيه وحبات أخرى منه فوق الجبين رغم أزيز التكييف خلف ظهره، لم يكن هناك اتهام ومتهم، فقط نوع من

الانحدار السيئ إلى مخاطرة وظيفية معلومة العواقب نوعاً ما. عقاباً على خطأ في تقدير القوة أثناء استجواب عادي، نوع من شدِّ الأذن الذي تطور بقصد أو دون قصد- إلى انتزاع الأذن كلها من منبتها فلوَّث ملابسه ببعض من الدم ونثار اللحم الممزق.

وماذا أفعل يا سعادة الباشا وأنتم ترسلون لنا دائماً ضباطاً لم يتدرَّبوا جيداً؟

ربما أغلقا سماعة التليفون دون تصفية الموقف بكامله، إزالة ما تعكَّر من الماء ورؤية القاع بكل احتمالاته، جحيم المستحيل وأرق الممكن، على أية حال: لن يعطوا له مسدساً ليضعه في حنكه ويشد الزناد. سيعود إلى بيته. يلتهم طعامه، تلاحظ زوجته ذلك التدرُّج الخفيف في لون بشرة وجهه، تغير لوني لا تلاحظه إلا الزوجات المُحبات.

ما بك؟

سَتُقال وسط الضجة الخافتة لاصطدام معدن الملاعق بالأطباق. سَتُقال دون أن تفارق عيناها الطبق الخاص بها بعد نظرة سريعة إلى وجهه. لأنها تخشى أن تُتَّهم بالقلق الزائد عن الحد:

لا شيء.

يرد عليها لا ينهي طعامه عقب إجابته المقتضبة تلك. وربما أكل بشهية أكثر ليطمئنها. ليس بشهية أكثر من اللازم. يعرف كيف يضبط ذلك القدر من الطعام الذي لا يثير شكوكها ولو كان شبعان. يعرف أنه لا يجب يهرب عينيه بعيداً عن نظراتها المختلسة يسلط عينيه عليه بصورة مستمرة وكأنه يدفع عن نفسه تهمة الانشغال عنها. تعلم مع الوقت يدفع هموم عمله وشكوكه إلى ما خلف جزيرة بؤبؤ العين. تَعَلم أن يتجاهل شكوكه بأن الأمور تتكرر. ليست ظاهرة الديجافو، بل هو فساد العالم.

يذهب للنوم مباشرة، يسقط فيه دون أرقٍ الهواجس أو تأنيب الضمير، دون أن يأتيه الشبح الجديد في أحلامه لينغصه، لا يطنو حتى وجه الضحية على الخلفية السوداء. كلهم متشابهون. كلهم حروف أبجدية لا قيمة لها.

سنترك الضابط الآن، في جسد الحكاية القديمة، لا أسحب عليه الباب بهدوء كما فعلت زوجته سلفاً. أتركه. أنهض من فوق منضدتي، أتأمل علامة الكتابة النابضة في برنامج الكتابة على شاشة الكمبيوتر بجمود حتى تُظلم الشاشة من تلقاء ذاتها وتُظلم العوالم الثلاثة معها:

عالم الضابط النائم دون أرق.

٢ عالم "سين" المنغلق على العدم في نومته الأبدية. ضحية النائم الأول الثاوية تحت التراب والتي دُفنت دون طقوس الجنائز المعتادة.

تم تسليم الجثة بعد التعهدات والتأكيدات (مجموعة إرشادات أولية، كيف تدفن جثة أخيك بأقل الطرق ضجيجاً) لا تُصلّون عليه في مسجد كبير أو تمشون بالنعش في شارع من شوارع سمُّوها لهم (كتبوها لهم في ورقة. صورة ورقة أخذوا إمضاء أحدهم على الأصل منها كإقرار، أكثرهم ارتعاشاً. لمحة قانونية تعيد بعضاً من ثبات العالم)، وأن يُدفن ليلاً دون أن يصطحبوا معهم نساء البيت، يدفنونه بينما العالم الثالث.

٣ عالم الزوجة التي فقدت زوجها وعائل ابنها الوحيد، يظلم إجبارياً تدريجياً بفعل الحُقن المنومة..

ليس مستيقظاً الآن إلا علامة الكتابة النابضة التي هي بابي السحري إلى عالم "سين"، وإلى عالم هواجسي، كرسي اعترافي، ولكنها الآن علامة مقفلة كحائط خرساني، نام سمسم المعني بفتح الباب السحري ولم يعد يأبه للنداءات المُلحة. لن يفتح لي، الوقت متأخر، ربما أحاول أن أنام مثله فلا أستطيع. تهاجمني الكلمات فتؤرقني ثم لا أجد لها أثراً بعد أن أنهض وأضيء شاشة الكمبيوتر، لي وصفة جيدة لمقاومة الأرق ولكنها لا تصلح

الآن، مزامنة تنفسي الخاص مع تنفس النائمين معي في الغرفة، شهيق ببطء زفير ببطء أكثر، كأنني مُركب معهم على دائرة تنفُّس واحدة، ومن ثم أسقط في النوم، هذا هو تكنيك الهروب الذي اكتشفته عندما أخذوني ولم أستطِع النوم في الليلة الأولى بزنزانة "أم السعد" لغربة المكان، أتقنته ولم يتقنه "سين"، لم ينم ليلة واحدة طيلة وجودي معه ولم أمتلك الجرأة لأخبره بذلك التكنيك الفعال.

أفرجوا عنا تزامناً مع بدء تظاهرات يناير في الشوارع، لم نعرف هل تم الإفراج بسبب انتهاء التحقيقات أم التظاهرات، كانوا يُخرجوننا ثنائيات أو ثلاثيات، كنت البداية أنا والطبيب، الوحيدان اللذان خرجا في ذلك اليوم، وكأنهم قرروا أن يتوقفوا عن علاج المسجونين أولاً، ربما نظر الطبيب خلفه بعد أن تصافحنا بقوة ومشى كل واحد منا في طريقه، ولكني لم أنظر، لم نتبادل حتى العناوين أو الأسماء كاملة، يكفي ما عشناه سوياً، كأنه غاضب مني بسبب عجزي، وكنت غاضباً منه لنفس السبب، نجونا -ظاهرياً على الأقل- فالنجاة بالبدن ظاهرياً بينما العطب مستقر بالداخل كبذور سحرية للهلاك ليست نجاة، نظل في حياتنا بعد ما رأيناه صموتين وساكنين وشكاكين لحد الموت. هل كنا كذلك قبل تجربة الاعتقال أم صرنا بها كذلك، وكأن الكلمات في أفواهنا تقمَّصت روح رأس سلحفاة مخدوشة صدفتها، لم نحكِ عن "سين" طيلة الفترة التي بقيناها بعد أن سمعنا عن موته وحتى خروجنا، في أي شيء سنتحدث لو فكَّرنا في أن نتحدَّث؟، موت شخص بسبب اعتقاد يعتقده آلاف الأشخاص في مدينته دون أن يرفع أحدهم إصبع إعتراض واحد في وجه من قتلوه؟، لم نتحدث عن "سين" لنتحاشى الكذب على أنفسنا؟، أم لأن الواقع يبدو بعيداً عن إمكانيات السرد العادية، ألهذا يكون ضمير الحكي فيما أحكيه الآن هو ضميره؟ "سين"، مختبئاً خلف سرد حكايته من أن أقع في سرد حكايتي الخاصة.

أليست حكايتي الآن أكثر مما هي حكايته بعد أن طواه الموت في أجنحته السوداء؟ ألهذا تتفلت الضمائر مني فأكونه أحياناً ثم أكونني؟، أخاطب نفسي بكل الضمائر المتاحة فلا تكاد تكفي لألبس معها كل الاستياء وكل البطولة وكل النُبل الذي حلمت به في رحم أمي، فخرجت إلى العالم لأبحث عن بقاياه المهترئة دون جدوى!، تظل مع ذلك كل ضمائري حائرة مخلخلة فلا تكون كما أريد أن أقوله لكم الآن.

خلف علامة الكتابة النابضة بالحركة احتمالات عديدة للهروب، قد أستأنف في الصباح حكايتي بسرد علاقتي مع الكتب، عشقي للأوراق واختلاف ألوانها حسب قِدمها كما تتغير بشرة الأحياء بمرور الزمن، هذا كتاب عجوز وهذا كتاب شاب، عشقي لرائحة الكتب المطبوعة الجديدة كما أعشق رائحة أول تبلل لتراب الصيف بأول المطر، كما أعشق رائحة بشرة الأطفال الصغار وزغب الطيور، كما أعشق رائحة القمح المطحون لتوّه والأرز الذي فُرك غلافه ولم يزل دافئاً فواحاً، حاجتي إلى وهم الاختباء في بواكير الأشياء لأنفي عن نفسي حقيقة الغربة، قد أبدأ بالحديث عن الشيخ والذي لم تتعدَّ علاقتي به بضع نظرات اختلستها إلى باب غرفته المنعزلة في المكتبة في صعودي وهبوطي واحتكاك كتفينا الوميضي للحظة واحدة في تلك المرة الأخيرة من زيارتي للمكتبة حيث (ويوم أن) وجدت كراستي الضائعة وأوراق "سين" على رفّ المكتبة العالي، لحظة التفت هو فيها واعتذر إليَّ، واصطكت عيناي بعينيه حين كان قد ألقى عن روحه عبء الادّعاء وألقى عن وجهه قناع ابتسامة مبتسرة، أدركت خلال تلك اللحظة الكاشفة كم هو مُتعَب وكم هو مُثقَل ذلك الرجل الذي وصفه أحد الصحفيين ذات مرة بأنه أحد أكثر مشايخ الأصوليين ضراوة وشدة في بلاده.

قد أبدأ من النهاية، واقعاً في حيرة الاتجاهات أول ما هبطت من الترام، تبدو المدن مع انعكاسات الضوء عندما نتوه فيها ونفقد الاتجاهات كما لو كانت

مدناً أخرى، تختلف الرؤية مع اختلاف الزمن والوقت وحالتك النفسية (مدناً قديمة تنتحر ببطء بالتهام الضوء لها أو مدناً جديدة تغتسل بشعاعات الشمس)، تبدو حواف البيوت العالية متماسكة أو متفتتة مع الضوء، فقدت تلك القدرة القديمة على تمييز الأشخاص الموتى في الصور الفوتوغرافية الخاصة بأقاربنا برؤيتي لهالة الضوء الغريبة المحيطة بهم بعد سنوات طفولتي الأولى، ولكن عندما كنت أغمض عينيَّ قليلاً لأرى من خلال رموش عيني تلك البيوت فأعلم: ها هي مدينة أخرى تموت، ها هي مدينة أخرى على وشك الوقوع في دوامة الفوضى. ذاهباً في زيارة وحيدة إلى الزوجة بعد أن ادَّعيت أنني صحفي أعمل في جريدة ما. الزوجة التي انتقلت إلى بيت أبيها وأغلقت الأبواب على الأنفاس المختزنة التي رحل صاحبها. والنحلات التي ظلت تأتي إلى الصبانة لتموت رغم جثث قريناتها، تكتفي بزيارة من وقت لآخر متعللة بتنفيض التراب من فوق الأثاث وإنما هي للبكاء والتذكُّر، أصعد السلم وأنا أتساءل: ما الذي بوسعها أن تخبرني به غير ما عاينته بنفسي وما عرفته من أوراقه التي عثرت عليها فوق أرفف المكتبة. عدا أني مغرم بلملمة الجغرافيات الحزينة. مغرم بالدوران حول شواهد الموتى دون أن أغادرها، أعود من منتصف السلم هارباً.

في تلك اللحظة قررت: سأكتب حكاية "سين"

***

تتمة حكاية "سين" الحزينة

وَأُهَيِّجُ مِصْرِيِّينَ على مِصْرِيِّينَ، فَيُحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ: مَدِينَةٌ مَدِينَةً، وَمَمْلَكَةٌ مَمْلَكَةً وَتُهْرَاقُ رُوحُ مِصْرَ دَاخِلَهَا، وَأُفْنِي مَشُورَتَهَا، فَيَسْأَلُونَ الأَوْثَانَ وَالْعَازِفِينَ وَأَصْحَابَ التَّوَابِعِ وَالْعَرَّافِينَ.

وَأُغْلِقُ على الْمِصْرِيِّينَ فِي يَدِ مَوْلًى قَاسٍ، فَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ عَزِيزٌ، يَقُولُ السَّيِّدُ رَبّ الْجُنُودِ.

وَتُنَشَّفُ الْمِيَاه مِنَ الْبَحْرِ، وَيَجِفّ النَّهْرُ وَيَيْبَسُ.

وَتُنْتِنُ الأَنْهَارُ، وَتَضْعُفُ وَتَجِف سَوَاقِي مِصْرَ، وَيَتْلَفُ الْقَصَبُ وَالأَسَلُ.

وَالرِّيَاضُ على النِّيلِ على حَافَةِ النِّيلِ، وَكُلُّ مَزْرَعَةٍ على النِّيلِ تَيْبَسُ وَتَتَبَدَّدُ وَلاَ تَكُونُ.

يَضْرِبُ الرَّبُّ مِصْرَ ضَارِباً فَشَافِياً فَيَرْجِعُونَ إِلى الرَّبِّ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَشْفِيهِمْ.

[سفر أشعياء- الإصحاح

***

(- هل كنت تمر أمام الكنيسة في ذهابك وإيابك؟

لا ولكني مررت بعض المرات.

لم يلفت نظرك شيء ما؟

نعم.. حارس الكنيسة.

ما به؟؟

مسلم.. كان يقرأ القرآن.. ويهتز في قراءته كأطفال الكتاتيب وهو يرمق المارين من حين لآخر) جزء من التحقيقات التي ضاعت في مفرمة الأوراق.

(الخروج عن الدائرة)

وها هو هنا الآن، جاءني كاتب الحلم للمرة الأخيرة. كاتب الحلم أم الشيخ؟. عندما استعدت عينيَّ رأيت الشيخ واقفاً ومن خلفه الجدران البيضاء لغرفة المستشفى. وعندما أغمضتهما رأيت كاتب الحلم جالساً وهو يبتسم لي دون قلق. معه كوب ماء بارد وشطائر دافئة. فول وفلافل. أشعر بنفسي خارج الحلم وداخله. ملقى على سرير خشبي، وجهي كدمة زرقاء، يبلل الشيخ شفتيَّ بسائل بارد مسكر. لا أستطيع أن أفتح فمي ليقطر فيه قطرتين تبللان حلقي الجاف، ولكني جالس في عالم الحلم والشطائر الدافئة وكوب الماء المضبب بالندى أمامي، وكاتب الحلم ظلَّ ينظر لي مشفقاً وأنا ألتهمها، كانت عضلات وجهي تؤلمني وأنا أمضغ كأنني في الحقيقة:

هل تتذكر حديثنا عن أهل الكهف ومدن الحُلم؟

أي جزء فيه؟

عندما أخبرتك أنك لن تموت بسبب الأرق.

- نعم أتذكر ذلك.

كنت مخطئاً.

هل سأموت؟

ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ستراني فيها.

هل سأموت؟

-

حسنا، هل سأموت هنا أم هناك، في مدينتي الحقيقة أم في المدينة التي تخيلتها، في الحلم أم في الحقيقة؟

لا توجد طريقة لتعرف الفارق بين الحلم والحقيقة أيها المتيقظ دائماً في نومك، في الحلم تقتنع تماماً أنه الواقع، وعندما تستيقظ تكتشف أنك خُدعت، الفارق بينهما أنك تستمر في الواقع دون أن يحدث لك شيء حتى النهاية الحتمية، ولكنك تستيقظ في الحلم دائماً قبل الموت، لو استمررت في الحلم ستموت، لو سقطت من أعلى في الحلم ولم تستيقظ ستموت، ولو وقفت أمام القطار ولم تبتعد أو تستيقظ ستموت.

أو سأنتقل إلى واقع آخر أكثر إقناعاً، ربما هذه هي طريقة واقعنا بأن يخبرنا أن ما نعيش فيه مجرد وهم هش، واقع لا نستطيع الاستمرار في حلمه فكيف نرضى بأن نستمر في حقيقته..

نرضى لأن هذه هي القواعد....

لا تصدِّع رأسي بالقواعد، لقد انكسرت حوافُ الدائرة يا كاتب الحلم، ألا تبصرها، خرج قوم يأجوج ومأجوج من خلف سور النحاس والحديد ليأكلوا الأخضر واليابس، لقد توقفت عن الاقتناع بهذا العالم الرث، أريد مدينتي الحقيقية.

- مدينتك الحقيقية لن تحصل عليها إلا بالموت.

أنا قريب منه الآن، قريب منها، أشعر بها.

أنت تريد الاستمرار إذن، يمكنك أن تُغيّر كل ذلك الآن.

لا يستطيع إنسان أن يُغيّر من قدره.

لن تُغيّره، أنت تهرب منه إلى قدر آخر، سأمنحك استثناءً، فقط لكي لا أشعر بالذنب عندما يقتلونك.

ما هو؟ (كنت قد انتهيت من طعامي).

سآخذ أنفاسك ودقات قلبك إلى عالمي، لن تموت ولكنهم سيظنون ذلك فيلفظونك. موت سريري، لن أعيد أنفاسك لك إلا بعد أن تُصبح في القبر. تسمون ذلك في عالمكم العودة من الموت، خروج للجسد الأثيري من الجسم الفيزياني، عبور النفق الأبيض ورؤية الأضواء المبهرة، ستكون رحلة قصيرة وممتعة لدرجة أنكم في الغالب لا ترغبون في العودة من هناك ولكني سأكون إلى جوارك، أهمس لك باسمك لكيلا تنساه وأخبرك بأن أحباءك في الدنيا ينتظرون عودتك، هذا ما سيعيدك وعندما ستستيقظ في القبر ستنساني.

وما الفائدة عندما أصحو في القبر وأخرج مرة أخرى إلى العالم؟ سيظل نفس العالم هو هو لم يتغير، سيطاردني الموت مرة أخرى..

كل الخيارات ستكون متاحة أمامك مرة أخرى، تظل في عملك أو تعثر على عمل جديد، تبحث عن "ميم" والذين يشبهونه، تبحث عن إجابات أسئلتك.

هذا اقتراح أم نبوءة؟

اقتراح!

بعد كل ما رأيت لم يعد كافياً لي، أريد نبوءة مؤكدة يا كاتب الحلم، أريد صوتاً من السماء يُخبرني بأن كل شيء سيعود إلى داخل الدائرة مرة

أخرى، أن ما حدث لي كان استثناءً، بهذه الطريقة وحدها سأستطيع أن أنظر في عيني زوجتي دون أن تخدعني عيناي، وسيمكنني أن أجعل صغيري يؤمن ويحلم بعالمنا الزجاجي، أن أعود وأخاف من الموت مرة أخرى، ومن كل ما يجلبه ومن يجلبه إليَّ، كنت أتمنى أن أصحبك يا كاتب الحلم ولكن.....

حسنا، لا تريد، سأنصرف الآن إذن. (يبتعد صوته).

لا لا.. ابقَ معي قليلاً.

افتح عينيك الآن إنه يريد أن يسمعك، لقد أتى وسيلقنك الشهادة.

عندما فتحت عينيَّ مرة أخرى رأيتك أيها الشيخ، قلت هامساً فانحنيت تسمع لي:

- يا مُعلمي، لقد انفجرت القنبلة، لماذا لم تُحذِرني، لماذا خدعتني؟؟

***

الآن.. الشيخ إلى جوارك، لا ترى منه إلا وجهه وجزء من كتفيه، ليس جالساً ولا واقفاً -لا تعرف ارتفاع السرير الذي وضعوك عليه لتكتشف ذلك، ولم يعد جسدك ملكا لك لتحركه فتتقلب وتنحني لتنظر -لا تعرف حتى إن كانوا قد وضعوك على مرتبة من خامة لينة أم على ألواح خشب صرف ليوفروا على أنفسهم مؤنة رفع الملاءات المتسخة بالدم بعد موتك. يفقد جلدك مع النزيف قدرته على لمس الأشياء ومعرفتها، يفقد حتى إحساسه بدبيب النمل الخافت المؤلم الذي كان يجتاحك هناك في زنزانتهم إثر كل مرة يعيدونك فيها مليئاً بالكدمات وأشباح ضربات تركض فتتصادم من كثرتها على جسدك مُخلفة نشع وجع لا يطاق، ماتت كل قبائل النمل الموجعة تلك وجاء دورك أنت لتموت، وجاء هو ليودعك. ليس حلماً. هو بذاته ولا أحد غيره. واقفاً إلى جانب سريرك. خمس سنوات كانت كافية لتعرف ملامح وجهه من خلال رؤية مضبَّبة بالألم. أتى من أجلك وكان مجيئه آية موتك. لن يسمحوا لأحد بزيارتك إلا في حالة موتك، لم يُخبروك بذلك ولكنك تعرفه. أنت تموت إذاً، وقد أتي هو ليودِّعك..

لطالما سألت نفسك عن دوره في حياتك على الحقيقة بعيداً عن ذلك المجاز الوظيفي الذي جمع بينكما، سألتها ولم تصل لإجابة واختلست النظر إلى عينيه مرة بعد مرة تسألهما فلم تصل أيضاً إلى إجابة، وها أنت ذا تصل إلى شاطئ رحلتكما المشتركة، ويوشك أن يُحرِّك مجدافيه بعيداً فيغيبه الأفق ولم تزل كما كنت، حائراً في معاني الكلمات التي يمكن أن تستوفي مشاعرك إزاءه، فليكن في هذا الوقت الملتبس أي شيء طالما هو الوحيد الذي تبقى من هذا العالم إلى جوارك، فليكن أستاذك، شيخك عرَّابك قائدك مُلقِّنك مُلهمك، ليكن كما لم ترضَ له أن يكونه طيلة معرفتكما القصيرة، ليكن ما شاء الله له أن يكونه في تلك اللحظة وقد أرسله إليك ربما ليصبح آخر من

يحدثك، فكن حريصاً على وجوده إذن إلى جانبك عندما تأتي اللحظة الأخيرة.

وربما لن يمهلوه حتى هذه اللحظة، ربما لن يمهلوه حتى ينحني على أذنيك ليلقنك ويمنح لسانك المتعثر كلمات الشهادة التي ستتوه عنك وتتوه عنها في معاناة الموت، وكأنه يقودك إلى دربك الأخير، يقودك ببطء كل قطرة تنزف منك تراها أو لا تراها، كل قطرة تسلب وعيك وتنزع بك عن طريق الفكرة السليمة لحقيقة موتك، كل الموتى يملكون فكرة أخيرة عن حقيقة موتهم عداك، ندماً أخيراً يلوكونه بأسى إلا أنت (سبب موتهم، الندم على الخطوة الأخيرة التي قاموا بها فتسببت في قتلهم، لماذا لم يلتفت عند عبور الطريق فدهمه الصدر الحديدي للسيارة المسرعة، لماذا لم يستقل باصاً أو قطاراً أو عَبَّارةً أخرى لينجو من التصادم أو الغرق، لماذا اختلَّ به التوازن فسقط. لا يسقط من هنا إلا الحمقى الطائشون)، دائماً ندمٌ أخير وفكرةٌ أخيرة، أما أنت فكيف تندم؟ كيف تندم على وعي خمس سنواتك الأخيرة وقد سبقتها بالندم على غفلة خمس وعشرين سنة قبلها، المجموع. ثلاثون سنة لم تكن مخيراً في يوم فيها سوى في اختيار الجانب الذي ترقد عليه لتنام إن ملكت رفاهية التقلُّب بعد تعب يوم طويل...

كل أسئلتك أصبحت ساعات رملية تنتظر الكفَّ العظمية الهائلة للموت أن تطيح بها سواء فرغت أم لم تفرغ لتنتهي سلسلة أسئلتك الحائرة دون إجابة واحدة شافية، هل ستكون وحيداً أثناء موتك أم سيظلُّ الشيخ إلى جوارك يحدثك ويلهم لسانك كلمات أخيرة يظن أنها الأنسب لحالة موتك بدلاً من حديث نفسك العجيب هذا، ربما يمل منك ويتركك، لماذا تموت بهذا البطء على أية حال ما دامت النهاية هي الموت؟ ما أكثر الطرق التي تُنهي بها الحياة في وقت أقل من كل هذا الوقت، لماذا لم يجهزوا عليك بشرف، لماذا استهانوا بلحظاتك الأخيرة كما يستهين المحاربون المنهكون بعد حرب

ضروس بتوجعات المحتضرين من أعدائهم في أرض المعركة، ما اختاروا لك هذه الطريقة إلا لاستهانتهم بك، يختارون طريقة الموت حسب خطورة الجسد. حسب قوة ما يتلفظون به في نهاياتهم. حسب الإجابات التي يستطيعون الوصول إليها عند الموت بالرؤية الثاقبة، من الأجساد ما يجب إسكات حديث أعضائها في لحظة واحدة، يكون كلامهم الأخير إرث ثورات جديدة، ومن الأجساد من تَلبَّس بالخرس طيلة حياته، لا يستطيع أن يترك إرثاً سوى الخرس، فها أنت ذا تموت وما زلت تتلجلج في خرسك وحيرتك.

أول خانات حيرتك.. متى بدأت نزيفَك؟ أهو ذلك الصباح.. ذات ذات الصباح الذي تموت فيه الآن، أم هو صباح آخر بعيد شبيه؟ وهل حيرتك تلك في كل تشابه الصباحات بسبب أن فلك الأشياء أتسع عنه عما كان عليه منذ أن كنت صغيراً؟ اتسع حتى لم تعد الأشياء التي تمر أمام عينك وتغيب تعود مرة أخرى إلى أماكنها القديمة، لم يدركوا -لا أبوك ولا أمك ولا أحد من إخوتك- سبب شغفك بمراقبة القرص الدائر لعداد الكهرباء، سبب وقوفك الساعات الطوال على بسطة سلم بيتكم المظلمة لترى تلك النقطة الحمراء، بينما يرتعد قلبك بتلك النغمشة اللذيذة كلما عادت ولا تحزن عندما تغيب. فقط تنتظر ممتلئاً باليقين، ستعود ستعود..

لن تعود إلى ضحكات طفلك الصغير الذي كان يحبُّ أن تشعل له عيدان الكبريت وتضعها قبالة فمه فينفخها لتنطفئ، لن تعود إلى امرأتك فتغرقك في سحابة رائحتها عندما تخلع ثوبها الفضفاض الأسود الكبير إثر مجيئها من رحلة التسوُّق (رائحة زيت جوز الهند ووزيت الزيتون وقشر الليمون والرمان الذي تدعك به مواضع العرق في ذراعيها ورائحة جسدها الخاصة التي لا تشبهها أي رائحة أخرى، ولكنها أقرب لرائحة الكراميل)، لن تعود إلى إظهار التذمُّر لها من إصرارها على الإتيان بذلك الصابون الذي يجذب النحل من الخارج برائحته فيأتي ليموت في الصبانة، معللة ذلك بطريقتها الطفولية

"أصل ريحته حلوة" لن تعود، ربما ستعود في صورة أخرى... صورة حيوان أخرس إلا من صوته الخاص، ثم تموت فتعود.. صورة نبات لا يمتلك حتى صوته الخاص، توهب الأصوات لسرد الحقائق وتُنتزع عندما نكفُّ عن التفوُّه بها، ما الحقيقة التي يمكنك أن تتفوَّه بها في وجه الذين يدَّعون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة..

***

رحلة السندباد الأخيرة

يا مُعلمي، أخبرتني بأن الأسفنجة ما لم تمتلئ بالماء فلن تُعتصر، وأن المرء ما لم يعرف الكثير أو يلوح براية في مقدمات الصفوف فلن يكون هدفاً للرمي. ولكنك لم تُعلِّمني كيف أدفع عني نهش الكلاب دون أن تمتلئ يدي بالعظام العفنة التي ألقيها لأفواههم المُزبدة بلعاب الجوع لأسكتهم سوى أن تكون عظامي أنا!

حتى بعد أن جئت أنت، هل جئت؟ لم يكفُّوا عن اعتصاري، ربما اعتصروك أنت أيضاً، ليست نفس القبضة التي اعتصرتني، كل القبضات الكثيرة التي تناوبت على جسدي متفاوتة القوة والرغبة والقسوة ليس من بينهم قبضة واحدة تصلح لاعتصارك، كم مرة حاولت أن أتصوَّر تلك القبضة التي اعتصرتك، القبضة التي لم تعتَدْ حين الخرس أن تمتدَّ أوتوماتيكياً فتُري ضحيتها من بعد أن تمتد النجوم ويلتهب أنفك بلسع الدم وكأنك تغرق، ربما أيضاً قبل الخرس، عند الثأثأة...

وما كان بوسعك أن تخبرهم به؟ لم يكن أفضل كوابيسك ولا أسوأ كوابيسك، تهتز جدران غرفة مكتبك الصغيرة وتسمع دوي سقوط بعض المجلدات من فوق الأرفف العالية، لم يُصب إلا طالب واحد في جبهته ذلك الذي أعطيته منديلك القماشي ليكتم النزيف قبل أن ترسلني لأبتاع له المطهِّر والشاش الطبي، وعندما عدت لم أجدك، لم أكن بحاجة إلى أوامر منك لأعلم أن اليوم والأيام التالية هي أيام الدعاء والصلاة لا أيام تلقِّي العلم والقراءة، أغلقت المكتبة بعد أن أعدت المجلدات التي سقطت إلى أماكنها، ونزلت للشارع بسرعة..

(زلزال، سفينة جنحت إلى الشاطئ فاصطدمت به، غواصة من غواصات التجسُّس مختبئة انفجرت في عمق الماء البعيد، لغم من ألغام الحرب

العالمية انفجر في أحد أفران صهر الحديد الخردة بورش الحدادة عندما أيقظته الحرارة، مارد يدبدب بقدميه في منطقة سيدي بِشر القريبة طالباً حلواه) كل شيء كان محتملاً، وممكن الحدوث قبلاً، عدا ما كان الناس يقولونه في الشارع، تفجير في كنيسة!!، ما اكتشفته من أفواه الناس المعنين في الهرب في الاتجاه المضاد عندما سعيت على قدميك هرولة لتستكشف الأمر فمنعوك عند الحاجز الأول، كيف أتت كل تلك الحواجز الأمنية بتلك السرعة؟ أتت حتى قبل سيارات الإسعاف التي بدأت في الظهور الآن لتحمل الأشلاء، سادت روح المطر بين المارة في الطرقات رغم أن الشمس كانت ساطعة الوجود، يسيرون بسرعة بجانب جدران البيوت وكأن السماء ستمطر حصى لا ماء، بعضهم كان يختلس النظر إليك في شفقة، اختبئ اختبئ، تنطقها عيونهم وترتعش بها شفاههم خفية، أشار أحدهم إليك بسيف كفه على عنقه بحركة كالذبح فأجفلت وكأنه مرَّرها على عنقك أنت، هل كانت نبوءة؟؟

ولكن أين ذهبت أنت؟

أين ذهب الشيخ عند حدوث الانفجار؟؟

لا أعرف.. كان في المكتبة عندما سمعنا الانفجار، نزل متعجلاً ولم يُخبرني.

أين تظنه ذهب؟

لا أعرف.. لا أعرف.

كان هذا أحد أسئلتهم التي لم أعرف لهم أجابة عنها، أحد العظام العفنة التي نبشت عنها في كل أرض معرفتي بك لأدفعها إليهم بدل أن يستبيحوا لحمي لينهشوه فلم أجد اجابة، وكنت أتخيلك بعد أن أعطيت منديلك للطالب المبطوح، تدور في ذهني سيناريوهات عديدة (ربما ذهبت قريباً جداً من بؤرة العاصفة الدموية قبل أن يمنعوك كما منعوني، وأخذت تحمل

الجثث والجرحى مع من يفعل ثم عدت إلى بيتك مرهقاً بملابسك البيضاء وقد تشبَّعت بالدم ولون التراب فخلعتها وحاولت النوم -فقط- لتكتسي رؤيتك بلون آخر غير لون الدم ولو كان اللون الأسود، ربما عدت إلى بيتك مسرعاً لتطمئنَّ إلى وجود أفراد عائلتك أن يكون قد تصادف مرور أحدهم مع وقت التفجير ناسياً في لوثة أفكارك أنه يمكنك الاطمئنان عليهم بالتليفون في جيب قميصك، الردُّ فقط على مكالمة واحدة فائتة من ضمن عشرين مكالمة فاتتك منهم وقد راودتهم نفس الوسوسة القلقة عليك، لم يكن معك وقت لترف الاطمئنان على عائلتك الصغيرة، لم تنفذ مكالمة واحدة منهم خلال جدار سلسلة طويلة من المكالمات، ظلَّ تليفونك يعطيهم كما ظلَّ يعطيني تلك الصفارة السريعة المتلاحقة علامة انشغالك طيلة الليل، تطلب من كل من يرد عليك أن يُثبت وجوده بشكل علني في مجتمع غير مجتمع حاملي العلامات القاتلة مثله).

ربما ربما ولا شيء مؤكد، وربما كنت تفعل ذلك كله في وقت واحد، يتطلَّب إخماد كل قلق منفرد رجل ذو بال فارغ منفرد ولكن من قال إنك رجل واحد، لست إلا شظايا وتلك الشظايا طارت في كل الاتجاهات، وكأن الفتيل الذي فجَّر القنبلة فجَّرك معها (يردونك عند الحاجز الأخير فلم تجنِ من عرولتك خلال الشوارع وتعثرك وقدماك التي أدمتها حجارة الأرصفة المتكسرة غير لوعة الرؤية للأشلاء المتناثرة، تنطلق عائداً، أقل سرعة عن الذهاب كأنك أُرهقت ولكنه ميراث الذاكرة المثقلة، لا تتوقف عن إجراء مكالماتك حتى يؤلمك ذراعاك وأنت تراوح بينهما في حمل التليفون على أذنك، تَطمئنُّ وتُطَمئنُ، لن تعود إلى بيتك، لم تُجعل البيوت إلا للراحة لا لتقليب الفكر على جمر القلق).

يهبط كل طائر من طيورك المفضلة ويأخذ شظية منك إلى أرض مجهولة ضائعة، تلك هي حصيلة المكالمات التي قمت بها؛ للاطمئنان على تلاميذك

ومربديك وتحذيرهم، ليسوا أعداءك، لم تدخل في أرض أعدائك بعد، ولكنه فِعلُ الأصدقاء عندما يلوذون بك لتطفئ نيران قلقهم فتنشب في ملابسك وتنفذ إلى لحمك وشعرك فلا تستطيع أن تزيد عن الابتسام حتى يواريهم الصمت على الطرف الآخر وتلك الصفارة الخافتة التي تنبض كنبض أفكارك وقد وصلت جميعها مرهقة إلى نهاية الرحلة، بلا نتيجة.

عاد إلى المكتبة.

كيف عرفت؟

لم يكن المفتاح في مكانه حيث وضعته عندما انصرفت مسرعاً.

عدت إلى المكتبة لتجمع شظاياك فوجدت الباب مغلقاً، تعرف مكان ذلك الثقب في درابزين السلالم الذي أضع فيه المفتاح الاحتياطي، عندما عدت في اليوم التالي لم يكن كما وضعته في المرة الأخيرة، ولم تسألني أنت عن ميعاد انصرافي كما كنت تسألني في كل مرة تسبقني فيها بالانصراف، لم تعد لتقرأ بالتأكيد، كنت تبحث عن مكان لا يسمعك فيه أحد لتجري مكالماتك السرية (غير المعتادة) بعد حدث غير معتاد كهذا الحدث، والكلمات سابقة التحضير على شفتيك "لسنا نحن من فعلها" تخبرهم بما تعلم أنهم يعرفونه أكثر منك، تستنكه من ردودهم عليك نواياهم كما يستنكه الفقيه رائحة الخمر من فم شاربه قبل أن يجلده. كارهاً، ولكن كراهية هذه المرة ليست ككل مرة، هذه المرة وأنت تنحني على الفم تعلم يقيناً أن رائحة الخمر ستعبئ رئتيك، وأنك لن تستطيع رغم ذلك أن تجلد، وأنها مجرد طقوس هزلية بينكما كطقوس مولد النبي في ريف بلدتك الأولى (المرأة التي تلد كلاباً، والرجل الذي يدهن وجهه ويحمل كرباجاً ويمثل أمامه الناس تمثيلية الخوف والهرب منه)، ولم يحدث قط بعد انتهاء الطقوس أن بحثت المرأة عن كلابها العمياء لتربيها كأولادها، ولا وقعت فرقلة الكرباج على جسد وأوجعته، وإنما محض فرقعات في الهواء لا تضر إلا الأذنين بصوتها، تعلم

يقيناً وجود خطأ ما، صفارة البداية لشيء لا تعلمه انطلقت في الهواء من مكان مجهول غير مكانها، فانطلق الجميع دون أن ينتبهوا، عودوا عودوا!! تصيح، ولكن أي عودة ومنظر الدماء واللحم الممزق يشرخ رؤيتك، بقيت وحدك عند خط البداية تنتظر النقاء، الشرعية، كما انتظرتها طيلة حياتك! تنتظر وتنظر كل يوم على رصيف مسجدك لترى المهانين والمصفوعين لتعيدهم إلى خط البداية، لا بأس عليكم.. لم يحن الوقت بعدُ.. لم نستحق بعدُ أن نكون، تنفد نسخ الكتب المكررة التي تحتفظ بها لهم فترسل لتشتري غيرها..

وكنت أراك -بعد لقائك الأخير بأبي ذر وهروبه منك- بعد كل درس بعد أن تتخلَّص من طلابك فتدخل بين أرفف المكتبة، لا تبحث عن كتاب بعينه، كلهم بُغيتك، كلهم يلوذون بك وتلوذ بهم، أطنان من الكتب التي تكفي صفحاتها لتغطي سطح الأرض مرتين ولا تكفي لتغطي متراً واحداً من الواقع العاري، لا تكفي لإنبات شعرة واحدة من شعر المرأة التي انتُهكت بنفس قناعاتها القديمة ولا لدفع البرد إلى الوجوه الملتهبة بالصفع، تتأملهم وكأنك تخشى أن تُضحي بهم إذا ثقلت حركة سفينتك في المياة الراكدة فتكتشف متأخراً عند آخر كتاب ترميه أنك كنت واحداً منهم، كائناً ورقياً، وأنك لم تعد تنتمي لعالم اللحم والدم الذي تدافع عن بقائه وتستميت لذلك، وتكون هذه خيانتك لأبناء جنسك، أرى هذا في عينك وأنت تشم رائحة الطباعة في الصفحات في الكتب الجديدة، وكأنك تطمئن إلى وجودك!! أرى حيرتك حينئذ كما تصوَّرت مثيلتها في ساعات وحدتي الطويلة في زنزانتي عندما تنفد حصيلة أرقامك السرية في ذلك اليوم الغريب ولا يردُّ أحد، يوم التفجير الذي هزَّ الإسكندرية كلها، تعيد الكرة بعناية شديدة لا تتوفر إلا لمن تاه في أودية الفكر المختلفة وتشتت إلى الأبد، لا يردون عليك وهذا هو المختلف عن كل مرة، لا وعود هذه المرة، تتشكل الرؤية، الكابوس، الارتجال

هو سيد الموقف، لا شيء يشبه شيئاً في كل ما سبق، عُدْ إلى بيتك وتقنَّع برداءك وانتظر المرور الكامل للعاصفة. ليس هذا الجو المناسب لسنك العجوز وكل قناعات الشيخوخة التي كوَّنتها عبر سنوات طويلة من المهادنة، مناسب فقط للجنون والقوة الغشوم المطلقة، وكانت الصفارة الرتيبة لكل مكالمة لهم لم يردوا عليها تخبرك بأفصح لسان: اطمئن اطمئن، سنترك لك بعضاً من عالمك لتقيم عليه عالماً آخر جديداً، كنت تمتلك القدرة بعد كل مرة على ذلك، أليس كذلك؟؟

ولم تعد إلى بيتك، وكيف تفعل وحتى التليفون لم يرحم حاجتك للعزلة لتفكر. ماذا نفعل؟ يسألونك بقلق، كل من اتصل بك في ذلك اليوم أتت أصواتهم القلقة على بقايا ثباتك الظاهري، ورغم ذلك كنت تجد الكلمات على لسانك لتخبرهم، واحداً تلو الآخر مثل رسالة الأنسر ماشين "لا تهربوا ولا تفزعوا، أياديكم بيضاء، لا تلوِّثوها بالهرب"، هذه هي إجابتك بينما الآخر، أنت الآخر الذي يطل برأسه من داخلك يصيح "اهربوا اهربوا، هذا الجبل هو جبل المغناطيس ولن ننجو هذه المرة!".

ولكنك لم تخبرني، لم أكن أحد بحارتك المفضلين، كنت أحد ركاب سفينتك المؤقتين، لا تخبروهم، لن يحدث لهم شيء، يكفي الفزع لأن يقلب السفينة رأساً على عقب.

لقد انفجرت القنبلة يا مُعلمي، انفجرت ولكنك لم تُخبرني؟

***

يا مُعلمي، لِمَ لمْ تخلع عمامتك وقتها وترميها على خشب سفينتنا المتهالكة وتجذب شعر لحيتك كمداً وتهتف بركاب سفينتك وقعنا في أرض مهلكة لكي يتبادلوا كلمات الوداع بعيون باكية أو يتعجلوا الموت غرقاً بظن السباحة بعيداً عن الخطر. لما لم تدمع عيناك رغم أن أنفك التقط رائحة هواء غير هواء البحر الآمن، لِمَ لَمْ تخبرنا عندما تاهت بوصلتك وأخذت تدور وتطن كدبور حبيس في زجاجتها، لِم ظللت مستمراً في إلقاء أوامرك إلى بحارتك الغافلين حتى تفرقت خشبات السفينة في جبل المغناطيس.. الآن أراك تنحني وتهمس في أذني وتدير أذنك إلى فمي بعدها تتسمع للنبض الضعيف لكلامي، وكأنك تُسعف غريقاً بالنفخ في فمه وتلتمس أن تخرج من فمه نفخاتك اليائسة زفيراً وشهيقاً. لماذا تفعل ذلك الآن ولست سوى خشبة من خشبات سفينتك المبعثرة، لا تُلقن الخشبة الشهادتين ولا تُنفث في تداوير لحائها بقبلات الحياة لتنجو.

وكنت أسأل نفسي كل يوم بعد أن يُغيِّبهم الليل في بيوتهم فيتركونا إلا من بضع حراس على أبواب الزنازين، وقت تصمت هلاوسي عن مداعبة عيني بالرؤى الخادعة، هل كان كابوسك عندما حدث ما حدث أن يُغيب البحر خشب سفينتك؟ أم كان كابوسك أن يَغرق بحارتك وركابك إلى الأبد في قبور الموت المائية؟ هل كان طلبك مني أن أحرق سجلات الاستعارة نوعاً من إلقاء الحمولات عند بدء الغرق على أمل أن تطفو حتى الشاطئ؟ ألذلك لم تسأل عني عندما أخذوني وأخذوا غيري؟ كنت أتوقع أن ينادي الحارس عليَّ في أي وقت لأقابلك، أن تنفذ خلال هذه الجدران كقطرة ماء عنيدة لأعرف -فقط من خلال رؤيتك- أن المدار ثابت ولم ينكسر وأن الأرض التي نقف عليها ليست تبناً فوق ماء عميق مظلم ينتظرنا الموت في قاعه أفواهاً مفتوحة نهمة، ولكن.. هل يحتفظ البحارة بجثث الموتى معهم إذا هلكوا في عرض البحر أم يرمونها تطيُّراً وهم يستغفرون؟ هل وقعت قرعتك وقت أحاط بنا

الخطر على من وقعت عليه وكنت منهم دون أن أدري؟ ولكنك لم تجمعنا حولك لتسألنا من المذنب بينكم فلا تجد إلا طيور الصمت تعشش فوق رؤوسنا لتجري قُرعتك المشئومة لأرمي بنفسي وغيري لأنقذ الباقين، لم أتلقَّ منك اتصالاً واحداً لتخبرني كيف أفعل في وقت كهذا، تركتني وتراكم الأحداث ودهشتي تجرفني، لم تُحذِّرني حتى لأرتجل، فقط أخبرتني "أحرقْ سجلات الاستعارة" ثم انصرفت، كنت تنقذ جزءاً من عالمك عندما فعلت وتركت جزءاً ليلهيهم وقت التبعثر.

سألتك عندها ناصحاً: "سأخفي السجلات في مكان بعيد عن المكتبة؟"، فأجبتني: "لا.. أحرقها أحرقها" سألتك: "كلها؟" فأجبتني بإصرار غاضب من مناقشتي لك: قلت لك كلها. ولم أسألك حينذاك عن مصير الكتب التي أُستعيرت ولم يردها أصحابها بعدُ، كنت أعلم إجابتك. ليس لأننا لم يسبق لنا أن لاحقنا أحد المستعيرين لنردَّ الكتاب الذي استعاره بل لأني كنت أعلم أن الأمر كان أخطر من الكتب.

ولم أنصرف حتى فعلت ما أمرتني به، لم أترك بياض ورقة يحمل اسماً، لم يبقَ إلا تلك الورقة الوحيدة التي ملأتها بأسماء المستعيرين للكتب ذات الصفحات المطوية من قبل، كانت في جيبي عندما غادرت، لم أقذفها بعيداً بجانب الرصيف عندما أسقطوني أرضاً من غير أن يصيحوا بي "قف!"، لم أضعها في فمي عندما سقطت على وجهي وابتلعتها كُرهاً لأخفيها عنهم، لم أفعل إلا بعد أن لملمت شتات ذاكرتي وتذكرت اسمه وهم يرفعونني من فوق الأرض بعد أن كلَّت أقدامهم من ضربي، لصيق ظهري، وكان فمي آنذاك غاصاً بالدماء فكوَّرتها في يدي وقذفتها بعيداً بجانب الرصيف حيث سيسهل عليَّ فيما بعد العثور عليها، ودعوت الله ألا يأتي المطر فيجرفها معه، ستكون لي يوماً ما بعد أن أخرج مكتبتي الخاصة (هي تلك الكتب في

تلك الورقة) وسيكون لي أصدقاء خاصون (هم هؤلاء الأشخاص في تلك الورقة)، هي زورق إنقاذي..

وكان المطر يسقط مرة بعد مرة فأسمعه، لا تخفي الجدران ولا الأسوار صوت سقوط المطر في مدينتي، ولو كانت جدران السجن المبطنة باليأس، لا يمسح المطر مع ما يغسله من واجهات البيوت والأبنية الشاهقة أملي في أن أعود وأجد الورقة مكانها هناك حيث قذفتها، قد يمحو الماء الحبر المكتوب فيها، ولكن لا يزايلني اليقين أنني سأعود إلى ورقتي الملقاة هناك إلى جانب الرصيف، فأفكُّ تلافيفها التي جففها تعاقب المطر والشمس بحرص عالم مخطوطات بارع حتى تعود كما كانت قبل أن أهرسها في يدي في ذلك اليوم المشئوم وألقيها، لا يهتز يقيني ذلك غمضة عين؛ لعلمي أن مدارات الله غير مدارات البشر، ليست مفتوحة على الفراغ القاتل، وأنه لا يحدث في كون الله شيء اعتباطاً، لا تسقط ورقة شجرة على الأرض إلا وهو يعلمها، لا ينحني ظهر بشر على الأرض ليلتقط ورقة إلا بعلمه، ولا يفهمها إلا أن ينفث في روعه بفهمها، ربما لن يكون وقتها أنا -كما أعرف أنا نفسي- لن تترك تجربتي الأليمة شيئاً على حاله في داخلي، وربما لن يكون إلا أحد الأسماء في تلك الورقة، أحد أصدقائي المستقبليين، يملكون كلهم ذلك الفضول وذلك الشغف لالتقاط الأوراق المجهولة الملقاة على الأرصفة، يملكون أيضاً تلك الجغرافية المشتركة ليمشوا في نفس الأماكن التي مشيت فيها رغم مكامن الخطر، ندور في مدارات واحدة وإن انكسرت!

وربما كانت نبوءة قلبي قد كذبت ولم يكن إلا أن هلاوس عينيَّ لم تعد تشبعني، لم تعد كافية لتعادل شحنة اليأس في قلبي، وأن ما أعيشه تمنٍّ ليس إلا أمعاناً في الهرب، لم يخبرني طبيب وهمي بذلك بينما يخنقونني، أعلمه من واقع التجربة حينما كان يداهمني الألم الغاشم لوقع ضرباتهم فتفقد خلايا بشرتي القدرة على استقبال الألم، تتخدر بفعل بنج بيولوجي

جعله الله فقط لأجساد المعذبين ظلماً، تعود خلايا بشرتي للشعور بالألم بعد زوال مؤلمها، ولكن لا يعود عقلي أبداً من هناك، جميع الأماكن التي أسكنها بحرارة جسدي الكامنة فيها ما زالت، لم تُبدِّدها نسمات الهواء العابرة (بين أرفف المكتبة حيث قضيت خمس سنوات من عمري، الطريق حيث ذهبت وجئت طيلة أيام تلك السنوات، وحيث الرصيف الذي ألقيت عليه ورقتي أملاً في أن أعود فأقطعه مرة أخرى يوماً ما، غرفة نومي قبل أن يأتي ميعاد نومي فأندس تحت الغطاء أراقب زوجتي تشرب عيني على مهل وتأنّ، المستمتع من كهرباء حركة جسدها تحت الثياب وهي تتحرك، مطبخ شقتنا الصغيرة حيث شفاط الأبخرة المعطل والذي أعلم أنها لن تصلحه بعد موتي: لأنني كرهت ذلك في حياتي (كانت لعبتنا المفضلة، أتسلل خفية عنها فأوقفه، أعشق رائحة الطهي وهي تتسرَّب إلى أثاثنا وجدران شقتنا الصغيرة، فتعطيها رائحتها التي لا تشبهها رائحة أي بيت آخر)، أكره ذلك الفم الفضولي المعلق في جدار مطبخنا يمتصُّ روائحنا ويحرمني منها، تديره فأتسرَّب وأغلقه، أسمعها تصرخ: ستفسد منظر الجدران، سنختنق، ذات يوم تسحب حبل إدارته فلا يدور، أرفض إصلاحه، تلجأ للطريقة القديمة: فتح الشبابيك على اتساعها، نعود للعبتنا القديمة، أغلق الشبابيك بعد أن تفتحها، هل ستعود لفتح الشبابيك بعد أن تسمع بخبر موتي؟، لا أستطيع أن أتخيَّل وجهها وهي حزينة، حتى وجهها المبتسم دائماً تضيع خطوطه من عيني عندما أغمضهما وأحاول أن أستدعيه، موبوء بخيانة عيني تلك منذ الصغر، أذكر وجوه كل الذين كرهتهم، واحداً واحداً، تبيت معي تحت غطائي وفي أحلامي، أبني عليها قلاع حرب وزمجرات غضب منفلتة مع نفثات الهدأة في نومي وطعنات وعراك أستيقظ بأثرها صباحاً تعباً في الجسد، ولكني لا أذكر وجوه مَن أحبهم، فلا مدينة واحدة من مدن أحلامي تصلح لمبيتهم، لا مدينة ترفع الراية البيضاء أو لا ينعقد فوقها الدخان، لا تضطرب

على أسوارها موجات الكر والفر، لا يهرول في شوارعها المهانون والمصفوعون وينتظرون على الأرصفة مداواة كدمات أنفسهم، كلها صاخبة لا تتسع لهمس وجودهم السحائبي، أشكِّلها حسب هواي، وكل تشكيل هو أقل من الكمال في وجودها المنفلت من بين أصابع ذاكرتي، أرسمها على حائط زنزانتي ولا أخاف، لِمَ أخاف وكل رسائل ذاكرتي المُلطفة لخواطري السوداء مكتوبة بالحبر السري لا يملك حرارة إظهارها إلا هم، كل أعدائي عبثاً حاولوا، أشعلوا تحتها كل حرائقهم الحانقة ولم يُفلحوا، لا يعلمون، فقط نفثات دفء من أفواه الذين لا أذكر كيف تبدو وجوههم سَتُظهر دليل خيانتي لكل غضب ضرباتهم على جسدي، أنفاس دفء لا أملكها ولكني أحلم بها، أشم رائحتها وهي تنحني على وجهي بوجهها وأنا نائم في زنزانتي فلا أفتح عيني مخافة أن أفقدها، إنها زوجتي، "نضيرتي" الباسمة.

أشمها الآن وأبتسم، بعيني المفتوحتين بكل قوة الفتح لأتيقَّن، أختبر هبة موتي سعيداً بثباتها الحديدي، آخر جائزة لي قبل أن أغادر، لا واقع أشد ثقلاً من واقع الموت عندما يأتي ورغم ذلك تأتي الرائحة ضاغطة الوطء إلى أنفي فتجعلني أبتسم، أتأمل سقف غرفتي في المستشفى الذي نقلوني إليه في فرح شديد.

أراك الآن أيها الشيخ وأنت تكفُّ عن الانحناء، تنصب ظهرك وتُسقط ابتسامة تصبرك مثل طلاء قديم، قشرة قشرة، هل لأنك سمعتني؟ هل تفزعك ابتسامتي، هل أفزعك إصراري على رفض ترديد كلماتك التي تُلقنها لي، أم إنك أبصرت الحقيقة كما أبصرها الآن؟ منذ أن كفَّ جسدي عن التخبُّط في الجدران الملساء لرحلة انزلاقي، ولم يعد إلا البصر المشدود بقوة حديدية إلى رؤية واحدة لا تحيد، والحلق الجاف الذي لا يطفئ حفافه كل ثلوج الدنيا، أبصرك وأبصر الآخر، أنت و"ميم"، لصيق ظهري في معركتي

الأولى والأخيرة، لا تراه كما أراه أنا، فالبصيرة لسبب ما حكر على الموتى والأنبياء، وهذا من مكابدة الحياة.

(أراك بعد أن تُغمض عينيَّ المحملقتين للمرة الأخيرة وتنصرف، وكأن شيخوخة العالم وقعت على كاهليك، لا تعود إلى بيتك لتضع لقمة في فمك الذي يرتعش من الجوع، تعود إلى المسجد، لا تذهب إلى الميضأة في مسجدك لتغسل وجهك من غبار الموت عند مرورك من باحة المسجد صاعداً للمكتبة، أراك.. ساقطاً على ركبتيك بين أرفف المكتبة، تنشج بصوت عال وكأن قلبك قد أتى فتاتاً بين حلقك وفمك، وكان حولك ذلك الضوء المليء بزغب الحريق يؤطرك، أعرف مصيرك (لن تموت.. لن تُحرَق كتبك ولن تحرقها أنت من فرط الحزن.. لن يضعوك في غياهب سجن بعيد لتكون خلوتك الأخيرة ذات مغزى.. لن يغتالك أحد الموتورين فتصير شهيداً)، بدلاً من ذلك ستظلُّ الأرفف المليئة بالكتب ثابتة، تظل الرؤية المضببة بالدموع ثابتة، ستظل الأقدام تصعد وتهبط على سلالمك (سلالم مسجدك وسلالم بيتك) والأيدي تدقُّ بخجل على بابك فلم يعد لك بواب ولا ظل، سيظل كل شيء ثابتاً: لأن ما ذهب لن يعود.. لأن المدار انكسر ولن يعود، تفقد دهشة الرؤية الأولى.. لأن ما يمر أمام عينيك لا يمر على الحقيقة، وإنما هي ذبذبة واهية كأن شيئاً ما سقط وانحشر بين تروس صندوق الدنيا الهائل فأفسد حركة تسلسل الصور فيه.

ولهذا السبب لن تراه -ميم، لصيق ظهري- حين يمر عليك ويلوّح تحية بذراعه الأخرى الخالية عندما يصدمك بكتفه فتعتذر له، بينما الذراع الأخرى تحتضن تحت إبطها كنزه الصغير الذي وجده فوق أعلى رف من أرفف المكتبة ممر التاريخ، يمرُّ سريعاً بينما يدقُّ قلبه بعنف أن يكتشف أحد ما سرقته الصغيرة، تنبض دوالي ساقيه الجاحظية ألماً من التوتر لا من الوقوف والنزول على السلم الطويل حيث كان منذ قليل، ينزل سلم

المسجد، ينساب في طرقات المدينة دون خوف، لا يرمق ظله من وقت لآخر ويُسرع، يبتسم عندما يسمع أغنية وطنية تُذاع في راديو بقال أول الشارع [1]، ليس موسم الأغاني الوطنية، شهر فبراير، يلوّح بالتحية للشبيهين به وغير الشبيهين، تحية مؤكدة كضربة من جناح نسر عملاق لا يقتنع بالطيران الشراعي الصامت، لا يتوه في طرقات المدينة، سرعان ما يستقبل رائحة اليود والطحالب البحرية المطبوخة بحرارة الشمس بعينين مفعمتين بالدموع، سيظل جالساً هناك يقرأ أوراقي التي أخذها من المكتبة، لن يخاف مجيء الليل الخادع وإغراقة في القراءة وغفلته عن الوقت رغم أن الطريق مليء بقطاع الطرق والمجرمين الذين خلت منهم السجون[2]، سيظل جالساً حتى تُضاء كابينة اليخت الأبيض المتأرجح على البُعد في الماء وكأن ركابه يستعجلون الليل أو كأن الليل يأتي من البحر أولاً، فينتشر على اليابسة، يقوم، يضع الكتب تحت إبطه ويصعد الطريق..)

لا تغرغر عينيك الآن بالدموع أيها الشيخ، لا تقلق عليَّ فليس شيطاناً من ترتسم له تلك الابتسامة على شفتي، ولا ملاكاً أيضاً.. أحتاج أحدهما فقط لأعبر للجانب الآخر بلطف، أما الشيطان فيعلم أنني لن أستمع إلى وسوسته في هذه اللحظة ولو حشا كل فمه الجهنمي بالحقائق الأكيدة، امتلأت حياتي بقائلي الحقيقة في غير وقتها، وبعد وقتها، وامتلأت أيضاً بالكاذبين، هم سواء عندي، لا فارق بينهما، لم أكن مخبراً يوماً في ألا أصغي إليهم، الآن صرت مخبراً، الهبة الأخرى لموتي، يظهرون في آخر كل شيء، في آخر الرحلة، آخر إقامتك، آخر الحياة.. ليخبروك بأن كل ما مرَّ بك ضرب من العبث وقبض الريح، فلا تسمع لهم، ضع كل أصابعك في أذنيك وامضِ، امضِ.. فلئن تمضي وأنت تُحسن النية بالآخرين خير من أن تمضي وأنت تلعنهم، ما أجمل القلوب الخالية من الحقد..

---

(١) و (٢) ثورة يناير.

سَلفيّ يكتب الروايات سرًا

في أدراج مكتبه، وتحت وسادته، وفي جيب سترته، تتناثر أوراقه في كل مكان.. لكنه يخبئها بعناية عن أعين الآخرين.. يحسبون حالة الشرود التي يعيشها ما هي إلا تأمّل وتسبيح.. يحتفظ بالسرّ لنفسه ولا يفصح عنه لأحد..

عالمان متوازيان يحيا بينهما.. لا يتقاطعان إلا حينما تأتيه النهاية.. فيكتشف ما فاته، ويعلم ما قد غفل عنه.. وقتها يكشف سرّه مضطرا أمام ضابط التحقيقات.. إنه السلفي الذي يكتب الروايات سراً..

دوّن
للنشر والتوزيع